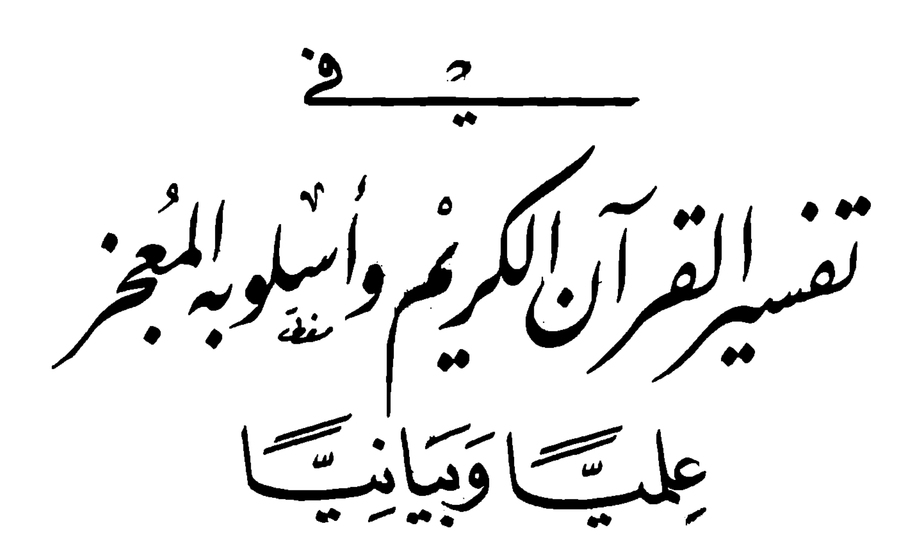
في تفسير القرآن الكريم وأسلوبه المعجز علمياً وبيانياً

نور الدين عتر

أستاذ التفسير والحديث في كليات الشريعة والآداب




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الطبعة الثانية عشر

١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م



مطبعة الصباح

دمشق - هاتف ٢٢٢١٥١٠

عدد النسخ (١٠٠٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على رسوله القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.وصلى الله وسلم على نبينا محمد الذي أنزل على قلبه القرآن؛ كما قال تعالى:"كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب".

أما بعد:

فإن إعجاز القرآن أهم قضية يواجهها العقل الحديث والمثقف في العصر الحديث ، وهو جوهر دراسات القرآن ولبابها، وقد حفلت مكتبتنا الاسلامية بالمؤلفات التي تدرس وجوه إعجاز القرآن وأصوله من قديم وحديث، وزخرت كتب التفسير بتفصيل إعجاز القرآن الاسلوبي وإبرازه في مؤلفات السابقين من أعلام التفسير باللغة والبلاغة ، كما نرى في الكشاف وتفسير النسفي وابي السعود والشهاب الخفاجي ثم الآلوسي وغيرهم.

لكن المكتبة الحديثة تعاني فقرًا ملحا وإعوازًا واضحًا في هذا اللون من الدراسة، فرأيت تقديم هذا الكتاب لسد حاجة الدارسين إلى نماذج من التفسير تُعنى بجلاء أسرار آيات الله البيانية، وإبراز إعجاز القرآن الكريم في أسلوبه ، وإعجازه في مضمونه ،وخصوصًا إعجازه العلمي.

وقد راعينا في هذا الكتاب الموجز أن نقدم دراسات لسور من القرآن الكريم تلبي تلك الحاجة ، ولاسيما لدى دارسي اللغة العربية والأدب العربي ،وتوفي مايُحتاج اليه من تطبيق العلوم الشرعية واللغوية ، ودراسة الأسلوب دراسة تبرز إعجاز القرآن في حروفه وكلماته وجمله، وأسلوبه.

وهكذا يجد الدارس بيان غرض السورة وموضوعها وارتباطها بالسورة التي قبلها ، ثم ارتباط أجزائها ببعضها ، حتى ارتباط آخر السورة بفاتحتها.

كما يجد العناية بأسباب النزول ، وكشف بعض إعجاز القرآن من خلالها . ثم بيان الجوانب اللغوية والنحوية للتوصل إلى جلاء المعنى ، ومن ثم جلاء أسلوب القرآن المعجز ، بعيدًا عن استعمال ألفاظ اعتاد كثيرمن دارسي الأدب استعمالها دون تدقيق ، مبينا هذه الجوانب بالاعتمادعلى دلالات اللغة والصيغة والتركيب وغير ذلك.

كما أنا عُنينا بتفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالحديث، وجلونا ما يستنبط من الآيات من الفوائد،وبيان البحوث العلمية التي تتعلق بالقرآن، لجلاء إعجاز مضمونه، وخصوصًا إعجاز القرآن العلمي .

وهكذا جاءت دراستنا هذه مشتملة على مهمات التفسير الموضوعي، ومعتنية بالتفسير التحليلي، وبشرح أسلوب الآيات المعجز،والإعجاز العلمي . وشملنا في دراسة الأسلوب جوانب أخرى غيره، وساعد ذلك على إيجاز الدراسة والبعد عن التكرار .

ولابد لنا من القول: إن وفاء دراسة القرآن العظيم حقها أمر جليل، أقرّ بالقصور عنه أئمة هذا العلم ، غير أنه لابد أن يعمل أهل العلم على تلبية حاجة عصرهم المتجددة، قيامًا بواجب الأمانة وحق الإبلاغ، وسيرًا في سبيل النهضة .

والله تعالى أسأل أن ينفع بهذا العمل ،ويجعله في حرز القبول، وأن يمنّ علينا من فضله العظيم بخدمة كاملة شافية لتفسير الكتاب والسنة، وجلاء أحكامهما وحِكمهما،وتجديد علومهما . إنه أكرم مسؤول، وجوده خير مأمول .

الإســـتعاذة

الاستعاذة : الاحتماء ، والتحصن • والمراد الاحتماء بالله تعالى من شر الشيطان •

والصيغة المشهـورة للاستعاذة « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » •

أعـــوذ : أي أحتمي وأتحصن وألجأ •

اللـــــه : لفظ الجلالة اسم علم عـلى ذات الرب المعبود بحق جل جلاله لم يُسَمَّ به غيره تبارك وتعالى • ولذلك لم يُثَنَّ ولم يُجْمَع •

وهو اسم جامع لصفات الكمال الجلالية والجمالية • وهو أكبر أسمائه سبحانه وأجمعهـا ، حتى قال بعض العلماء : انه اسم الله الأعظم •

الشيطان : مأخوذ من « شطن » على الرأي الراجح عنـد العلماء ومعنى شَطَنَ : بَعُد •

والشيطان : بعيد عن طباع البشر ، وبعيد بفسقه عن كل خير غاية البعد ، حتى تمحض للشر عياذاً بالله تعالى ، فسمي لذلك شيطاناً •

الرجيم : مأخوذ من الرجم وهو الرمي بالحجارة أو غيرها ، أو الرمي بالقدح والذم • ومعناه المرجوم بالذم واللعن...

ومعنى الاستعاذة : أستجير وأحتمي وأتحصن بجناب الله المعبود بالحق من الشيطان الشرير البعيد عن الخير الملعون ، أن يضرني في ديني أو دنياي أو يصدني عن حق يلزمني لربي •

واختار بعض العلماء في التعوذ أن يقول :

« أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » •

أخذاً من الآية « فاستعذ بالله إنه سميع عليم » •

ولا تخفى مناسبة ذكر هذين الوصفين للمقام ، حيث فيهما الاشارة الى أنك يا ألله سميع لما يوسوس به الشيطان ، عليم بدسائسه ووسائله الخبيثة ، فأدخلني في حصنك وحمايتك منه •

حكم الاستعاذة :

حضت الشريعة المسلم على التعوذ عند كل أمر مهم ، كما دلت على ذلك النصوص الشرعية ، ومن أهم ذلك ما يلي :

١ ـ التعوذ عند قراءة القرآن في غير الصلاة :

لقوله تعالى:«فإذا قرأْتَ القرآن فاستعذ باللهمن الشيطان الرجيم». وظاهر الآية وجوب الاستعاذة لأنها بصيغة الأمر ، لكن العلماء قالوا إنه محمول على السنة ، لأنه لم يرد في حديث المسيء صلاته(١) •

ويكون التعوذ بالسر إذا قرأ سراً ، ويجهر به في الجهر بحضرة من يسمع • وإذا كانت القراءة بالدور فيكتفى بجهر أول واحد ، ثم يُسِرُّ بها من جاء دوره بعد ، لتتصل القراءة • وإذا قطع القراءة بقاطع أجنبي أعاد التعوذ •

---

(١) أحكام القرآن للرازي الجصاص ج ٣ ص ٢٣٦ •

٢ ـ التعوذ في ابتداء الصلاة :

هو سنة أيضاً ، وموضعه بعد دعاء الاستفتاح ، ويقرأ الاستعاذة سراً سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية ، عند الجمهور ، ومنهم الحنفية والشافعية ·

وهذا التعوذ عند الجمهور لأجل قراءة القرآن · وعند أبي يوسف لأجل الصلاة ·

٣ ـ تستحب الاستعاذة أيضاً في عموم الأحوال ، كلما عرض للانسان مايشوشه أو يقلقه، من شيطان وغيره،كما تُسْتَحَبُّ للتحصن من كل ما يضل الانسان أو يغويه ، لقوله تعالى : « وإما يَنْزَغَنَّك من الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إنه سميع عليم » ·

• • •

البسملة

أجمع العلماء قاطبة على صيغة البسملة المعروفة « بسم الله الرحمن الرحيم » أنها آيـة من سورة النمـل في قوله تبارك وتعالى : « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » ·

وأجمع العلماء على كتابتها في المصحف عند افتتاح كل سورة إلا سورة براءة ، مع إجماعهم على تجريد المصحف عن كل ما ليس بقرآن ، فاستدل بذلك عـلى كونها آية في كل تلك المواضع ، واتفق عـلى ذلك جماهير العلماء ·

لكن اختلفوا : فقال الشافعي وأحمد في رواية عنه واسحاق بن راهويه وغيرهم : إنها آية من كل سورة إلا سورة براءة ·

وقال الحنفية : وأحمد في رواية عنه وداود الظاهري : إنها آية مستقلة في أول كل سورة وليست منها ·

كما أخرج أبو داود باسناد صحيح والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم » ·

بسم : حرف الباء : واضح آنه حرف جر ، ومعلوم أنه لا بد للجار والمجرور من فعل أو شِبْه فعل يتعلق به ·

وليس في نص عبارة البسملة ما يصلح أن يتعلق به هذا الجار والمجرور ، فلا بد من تقديره ، فماذا نقدر هذا المتعلق للجار والمجرور ؟

المختار عندنا في ذلك هو ما ذهب إليه كثير من العلماء والمحققين وهو مذهب الامام الطبري : ان حرف الجر يتعلق بفعل محذوف يدل عليه الشيء الذي وقعت عنده التسمية ، فاذا كان قراءة فالتقدير باسم الله اقرأ ، وإذا كان ركوباً فالتقدير باسم الله أركب · وقد حذف هذا الفعل للاستغناء عن ذكره بدلالة الحال عليه ·

وأما المقصود من الباء في البسملة فالأقوى في تفسيرها عندنا معنيان جليلان اختلف العلماء في أيهما الراجح :

التفسير الأول: أن الباء للمصاحبة والمقصود بها التبرك ، والمعنى متبركاً باسم الله أكتب أو أقرأ ··· وهو اختيار الزمخشري في تفسيره ·

التفسير الثاني: أن الباء للاستعانة · والمعنى مستعيناً بالله ··· الرحمن الرحيم · وهو الراجح فيما نرى ·

قال الآلوسي رحمه الله: « وعندي أن الاستعانة أولى بل يكاد أن تكون متعينة إذ فيها من الأدب والاستكانة وإظهار العبودية ما ليس في دعوى المصاحبة » يعني « التبرك » ·

الرحمن الرحيم: صفتان مشبهتان بُنِيتا على وزن فعلان وفعيل ، لافادة

المبالغة • وهاتان الصفتان اللتان هما لله عز وجل تفيدان اتصافه تعالى برحمة بالغة لا حدود لها ولا نهاية •

قال المفسرون : ان الرحمن أكثر مبالغة في الرحمة ، لأنه أكثر حروفاً من الرحيم •

والقاعدة اللغوية تقرر « ان زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى » •

ومرادهم من قولهم : أكثر مبالغة « هو أن اسم الرحمن أكثر دلالة على عظمة رحمته سبحانه وتعالى ، وليس المقصود من كلمة مبالغة الزيادة على حقيقة الشيء[1].

فكيف نفسر كلا منهما بناء على هذا الأساس ؟

ذهب الجمهور الى أن المقصود « بالرحمن » الرحمة العامة للعباد كلهم بكل أنواع الرحمات • والمقصود « بالرحيم » الرحمة الخاصة بالمؤمنين ، لقوله تعالى : «وكان بالمؤمنين رحيما» • وقيل غير ذلك مما لا نطيل به.

وقد استشكل كثير من الناس هذا المذهب بأنه إذا كان اسم الرحمن أبلغ في وصف الرحمة فكان الأولى تأخيره في البسملة ليكون الانتقال من الأدنى الى الأعلى ، فيكون لذكر الأعلى بعد الأدنى فائدة بالكلام •

وهذا الاستشكال غير وارد بالنسبة لما ذهبنا إليه من تفسير الرحيم بالرحمة الخاصة ، فان هذا التخصيص بعد التعميم يفيد زيادة التأكيد ، كما يقال للرجل النبيل : إن فضلك شمل كل قاصديك وخصوصاً من يحبك ، يعني وأنا أحبك ، فتأكدت لي تلبيتك •

---

(١) فتنبه لهذا التعبير ، وقس عليه أمثاله في كتب التفسير •

وكذلك هنا يقول المؤمن : إنك يا ألله رحمن وسعت رحمتك كل شيء وخَصَصْتَ المؤمنين برحمات زائدة على غيرهم ، ومنحتهم منحاً جليلة لا ينالها سواهم ، وإني من المؤمنين فتأكدت لي معونتك وامداداتك وبركاتك فيما أقصده من الأمر(١) .

ومن عادة أهل الكرم إذا نودوا بصفة من كمالهم أن يفيضوا منها على من ذكرهم ، فكيف بأكرم الأكرمين وأرحم الراحمين سبحانه وقد توجه إليه العبد باسمه الأعظم الجامع لصفات الكمال كلها « اللـــه » ثم بوصفين من أعظم صفاته الجمالية « الرحمن الرحيم » .

حكم البسملة :

تطلب التسمية في ابتداء كل مهم من أمور الدين والدنيا، ومن ذلك:

١ ــ في ابتداء ركعات الصلاة قبل الفاتحة :

وهي واجبة عند القائلين بأنها آية من سورة الفاتحة كالشافعية ، وسنة عند غيرهم كالحنفية .

ومن قال إنها من الفاتحة فإنه يقول بأنه يجهر بها في القراءة الجهرية . وغيرهم قال بأنه يسر بها . وهذا الخلاف يسير ، لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر بها .

٢ ــ في أول الوضوء أيضاً :

كما جاء في مسند أحمد والسنن إلا النسائي من رواية أبي هريرة

---

(١) قارن بما ارتآه الزمخشري أن الرحيم مكمل لصفة الرحمن فأخر عنه بسبب ذلك ، وما قرره الطبري من ارتباط الترتيب بخصوصية الاسم بالله عز وجل أو عدم خصوصيته . وانظر للتوسع في الفرق بين « الرحمن » و « الرحيم » ووجه ترتيبهما في البسملة تفسير الآلوسي طبع بولاق ، ج ١ ص ٥٠ وما بعد .

وسعيد بن زيد وأبي سعيد الخدري مرفوعاً « لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه »(١) قال الحافظ بن كثير وهو حديث حسن(٢) ٠

والجمهور على أنها سنة في الوضوء وقال أحمد في رواية : البسملة واجب في أول الوضوء لظاهر الحديث٠وظاهر مذهب أحمد أنها سنة(٣).

واستدرك الجمهور على عدم الوجوب بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال للمسيء صلاته يعلمه الوضوء : « توضأ كما أمرك الله »(٤) وليس في الآية التسمية ، وقد أحاله عليها ، فلا تكون واجباً ٠ وقالوا ان معنى الحديث « لا وضوء ٠٠٠ » نفي الكمال لا نفي صحة الوضوء ٠

٣ ـ في ابتداء كل أمر مهم ، كالطعام ، والشراب ، وإتيان الرجل زوجه ، وعلى مرافق البيت عند النوم ، وغير ذلك مما صحت به الأحاديث ٠ نجتزىء عن التطويل به بهذه الاشارة ٠

---

(١) أخرجه أبو داود عن أبي هريرة ج ١ ، ص ٢٥ والترمذي من حديث سعيد بن زيد ج ١ ص ٣٧ ـ ٣٨ ، وابن ماجه من حديث أبي هريرة وسعيد وأبي سعيد وسهل ابن سعد ج ١ ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ٠
وقد توسع الحافظ الزيلعي فخرج الحديث عن هؤلاء الصحابة ، وزاد روايته من حديث أبي سبرة ٠ انظر نصب الراية ج ١ ص ٣ ـ ٨ ٠

(٢) تفسير ابن كثير الجزء الاول ، في تفسير سورة الفاتحة ٠

(٣) المغني لابن قدامة ج ١ ص ١٠٢ ٠ وقد تساهل من أطلق نسبة وجوب التسمية لمذهب الامام أحمد ، كما وقع في سبل السلام ج ١ ص ٥٣ ٠

(٤) حديث المسيء صلاته مشهور طويل ، فيه تعليم الوضوء والصلاة ببيان واجباتها من طرق كثيرة صحيحة ، أخرجه الشيخان وأصحاب السنن الاربعة وأحمد في المسند٠ انظر تخريجه ودراسته في كتابنا دراسات تطبيقية في الحديث النبوي (القسم الاول) ص ٢٦١ وما بعد ٠٠

تفسير سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالَمين . الرحمَنِ الرحيم . مالكِ يوم الدين . إيّاك نعبُدُ وإيّاك نستعين . اهدنا الصراطَ المستقيم . صراطَ الذينَ أَنعَمْتَ عليهم . غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالّين.

تسمية السورة :

تعددت أسماء سورة الفاتحة تعدداً كثيراً لم يكن لغيرها من سور القرآن، وذلك لتعدد جوانب خصوصياتها وفضلها. ومن أشهر أسمائها:

سورة الفاتحة : لكونها فاتحة القرآن وفاتحة القراءة في الصلاة .

سورة الحمد : لاشتمالها على حمد الله والثناء عليه سبحانه وتعالى

أم الكتاب ، أم القرآن ، السبع المثاني : لما ثبت في الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله رب العالمين » هي أم القرآن ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني »[1]

نزول السورة :

سورة الفاتحة مكية كلها على الصحيح الذي عليه أكثر العلماء . ويدل على ذلك قوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم » وهذه آية مكية من سورة الحجر التي اتفق على أنها مكية بتمامها · وقد امتن الله في هذه الآية بسورة الفاتحة على النبي صلى الله عليه وسلم وسماها « سبعاً من المثاني » فدل على أنها مكية بتمامها ·

الأبحاث اللغوية :

الحمد : الحمد معناه في اللغة هو الثناء الحسن الجميل على المحمود بصفاته وأفعاله ·

وقال الزمخشري : « الحمد والمدح اخوان ، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها ، تقول : حمدت الرجل على انعامه وحمدته على حسبه وشجاعته وأما الشكر فعلى النعمة خاصة ·· الخ » ·

وجعل بعض العلماء هناك فرقاً بين الحمد والمدح والشكر،وهو : أن الشكر يكون للأفعال الحميدة» تقول: شكرته على مساعدته أو إحسانه إليّ مثلا ، والمدح يختص بالصفات ، كأن يمدح الانسان لحسن خلقه أو علمه أو فضله · ويطلق المدح على مالا اختيار فيه ولا كسب

---

(١) أخرجه أبو داود في أبواب تنزيل القرآن من كتاب الصلاة « باب فاتحة الكتاب » ج ٢ ، ص ٧١ ، وصححه الطبري في تفسيره ج ١ ، ص ٤٧ ، وأخرجه أحمد في المسند ج ٢ ص ٤٤٨ كلاهما بنحوه تقريباً ·

ولا تعقل مثل : مدحت اللؤلؤ ، ولا يقال الحمد إلا لمن اكتسب ما يحمد عليه باختياره وحكمته ، كما أن الحمد يشمل الصفات والأفعــال فكان أشمل من المــدح ومن الشكر(١) ٠

ربّ : الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية وهي تنمية الشيء حالا فحالا حتى يبلغ كماله المقدر له٠ ثم وصف الرب بهذه الكلمة على صيغة المصدر للمبالغة،كما هو في قولهم : رجل عدل أي عادل والمعنى ، المربي للعالمين غاية التربية(٢) ٠

والرب هو المالك أيضاً والسيد ٠

وكل هذه المعاني صحيح في حق الله تعالى ، لكن أيها هو المراد ؟

اختار أكثر المفسرين المعنى الاول ، الذي هو الأصل في استعمال الكلمة٠ وفسره الزمخشري بالمالك، والمعنى : مالك العالمين ٠

ونحن نرجح التفســير الاول رب العالمين أي مربي العالمين ، ويؤيد ترجيحه ما يلي :

---

(١) انظر هذه التفرقة الأخيرة في الالوسي ج ١ ، ص ٦٠ ــ ٦١ ٠
وأما ادعاء الزمخشري ومن وافقه أن الحمد خاص بأن يكون باللسان فقد نازعه الالوسي ، واختار الالوسي أن الحمد إظهار الكمال باللسان أو بغيره ٠ انظر تفسيره روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ص ٥٩ ــ ٦٠ ٠

(٢) ويرى أبو حيان أن الرب اسم فاعل ، أصله رابّ ، فحذفت ألفه ٠ كما قالوا : رجل بار ، وبَرّ ٠ البحر المحيط وانظر التسهيل لابن جزي الكلبي والآلوسي ج ١ ، ص ٦٦ ٠

١ ـ ان تفسير الرب على معنى التربية هو الأصل في الكلمة ، ومنه أخذت الاطلاقات الأخرى • ومن المقرر في أصول التفسير أن اللفظ إذا احتمل معنيين كان تفسيره بحسب أصل وضعه أولى •

٢ ـ ان تفسير الرب بهذا يجعل قوله « مالك يوم الدين » يفيد معنى داخلا في رب العالمين ، وتفيد آية « مالك يوم الدين » تأكيد ملك هذا اليوم والاهتمام بشأنه(١) •

وهذا يرجح التفسير الاول عملا بقاعدة : التأسيس مقدم على التأكيد •

٣ ـ ان تفسير الرب على أنه من التربية أكثر مدحاً لله تعالى ، لأنه يتضمن صفات جليلة كثيرة من صفات الله ، مما لا يفيده تفسير الرب بالمالك • ومن أصول التفسير عند الاحتمال أن يقدم المعنى الأكثر تحقيقاً للغرض أو الأكثرُ مُلاءَمةً لسياق الكلام. والمقام هنا مقام مدح لله سبحانه وتعالى •

العالمين : جمع عالم ، و « العالم » يطلق على كل موجود سوى الله عز وجل • ويطلق على كل صنف من أصناف المخلوقات « عالم » ، مثل عالم السماء ، عالم الانسان، عالم الملائكة، عالم النحل ، وكل قرن وجيل عالم أيضاً •

والمراد بالعالمين هنا كل أصناف المخلوقات العلوية والسفلية ، الظاهرة والباطنة، ماعلمنا منها وما لم نعلم ،

---

(١) حاشية الكازروني على تفسير البيضاوي ج ١ ، ص ٢٦ • وانظر تفسير الطبري •

مالك يوم الدين: قرأ طائفة من القراء (مالك) بالألف ، وقرأ طائفة (مَلِكِ) وكلاهما صحيح متواتر ·

والفرق بينهما أن قراءة « مالك » تفيد معنى المِلك بكسر الميم ، من التملك ، أي انك يا ألله تملك الأمر كله والحكم والتصرف يوم الدين · وقراءة (ملك) من المُلك بضم الميم وهو السلطة ، أي إنك صاحب السلطان القاهر ، والحكم النافذ يوم الدين ·

الدين : الجزاء على الأعمال والحساب بها ، كذلك قال ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وقتادة وغيرهم ، ويدل عليه قوله تعالى : « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق » أي حسابهم [1] · ومنه قولهم كما تَدين تُدان، أي كما تفعل تُجازى ·

إياك نعبد : إيا ضمير منفصل مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدم والكاف حرف خطاب ·

وتقديم المفعول لافادة القصر والاختصاص ، فان من أدوات القصر عند البلاغيين تقديم ما حقه التأخير · والمعنى نعبدك ولا نعبد أحداً غيرك ·

والعبادة : أقصى غاية الخضوع والتذلل ·

إهدنا : الهداية هي الدلالة التي توصل الى المقصود ·

الصراط : في قراءة متواترة السراط بالسين ، وهو الاصل ، ثم قُلِبَتْ السين صاداً فصارت « الصراط » · وهي لغة قريش ، وهو الثابت في المصحف الامام · ومعنى الصراط في اللغة هو الطريق ·

---

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٣ ·

الصراط المستقيم: معنى الصراط المستقيم في اللغة : الطريق الواضح السوي • أما المراد به هنا في الآية فقد تعددت فيه عبارات المفسرين : روي عن علي وعبد الله بن مسعود انه كتاب الله ، وقال جماعة من الصحابة ومن بعدهم : هو الاسلام • وغير ذلك من أقوال ، تتفق معانيها في المآل ، ولا تخالف ما ذكرناه[1] •

أنعمت عليهم: الانعام : إيصال الاحسان الى الغير من العقلاء فقط • و « الذين أنعمت عليهم » أي بطاعتك وعبادتك وأنواع الاحسان وقد ورد بيانهم عن ابن عباس بأفضل تفسير وهو تفسير القرآن بالقرآن قال تعالى : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ».

غير : بدل من الذين و (لا) لتأكيد النفي المستفاد من غير • وقيل: «غير» صفة للذين • وعليه يكون المعنى انهم جمعوا بين كونهم منعما عليهم وكونهم غير مغضوب عليهم ولا ضالين • والظاهر هو الاعراب الاول وقد دارت حول الاعراب الثاني مناقشات لا نرى التعرض لها هنا[2] وحسبنا بيان ما يتعلق بالتفسير على مقتضاه •

المغضوب عليهم ولا الضالين : ينطبق على كل فرق الكفر كما سنوضحه في تفسير المعاني فهم مغضوب عليهم كلهم وضالون أيضاً عن طريق الحق تائهون •

وورد تفسير المغضوب عليهم باليهود « والضالين » بالنصارى ، وثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم •

---

(١) انظر تفصيلها وبيان التوفيق بينها في تفسير ابن كثير •

(٢) انظر إعراب القرآن للعكبري ص ٥ • ومصادر التفسير •

شرح المعنى والأسلوب :

يأمر الله عبده المؤمن في مطلع السورة أن يفتتح بالتوجه له بأفضل الثناء الحسن الجميل وأبلغه فيقول :

« الحَمْدُ لله رَبِّ العالمين » :

وعبر عن هذا الثناء بلفظ الحمد ليكون شاملا معاني المدح على الخصال والشكر على جميل الفعال ، كما قدمنا فكان التعبير بكلمة الحمد أبلغ من أية كلمة أخرى ، لأن الشكر قاصر على إفادة الثناء بجميل الفعال ، والمدح قاصر على الخصال ، فشملت العبارة بهذا معنى كل من المدح والشكر .

ثم وردت كلمة « الحمد » محلاة بأل وهي هنا على التحقيق كما رجح المحققون المحقون للاستغراق(١)، فأفادت العبارة بهذا التعريف معنى كليا مستغرقا أي شاملا كل حمد وكل شكر ومدح في العوالم سواء عرفه الانسان أم لم يعرفه ، فهو ثابت ومستحق لله سبحانه .

« رب العالمين » :

أي مربي العالمين ، فهو سبحانه خالق العوالم ومدبر أمورها كلها ، العوالم السماوية والأرضية وما بينها وما فيها ، وما نعلم وما لا يعلمه أحد ، وذلك يشير الى أن كل العوالم مفتقرة الى الله لبقائها ، كما أنها افتقرت إليه لابتداء وجودها(٢) .

فهو سبحانه رب العالمين يمدُّ بالوجود كل العوالم ، ويتعهدها بالتربية الحكيمة التي تبلغ بها درجة الكمال المقدر لها ، فينمو بتربيته

(١) انظر البحث في « أل » هذه هل هي للجنس أو للاستغراق وتحقيق ذلك في تفسير الآلوسي وقوله : « المحققون المحقون على تعميم الحمد » ج ١ ص ٦٢ ـ ٦٤ .

(٢) من تفسير البيضاوي ج ١ ص ٢٧ .

سبحانه كل عالم ويرقى في الاتجاه الذي رُسِمَ له ، وبحسب النظام الكوني الذي وضعه الله له ·

« الرحمن الرحيم » :

« الرحمن » المتصف بالرحمة التي لا نهاية لها في ذاته ·

« الرحيم » الذي وسعت رحمته كل شيء ·

أو « الرحمن » بالرحمة العامة « الرحيم » بالرحمة الخاصة كما قال : « وكان بالمؤمنين رحيماً » ، فهو سبحانه في ربوبيته متصف بغاية الرحمة التي لا نهاية لها يفيض منها على عباده ويتجلى على العالمين برحمته ، فكل رحمة وشفقة ، وكل رأفة في العوالم فهي أثر يسير من آثار رحمته التي وسعت كل شيء ·

وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثلا لرحمة الله تعالى ، فقال كما في الصحيحين عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» «متفق عليه»[١]·

وعن سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله تعالى خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة ، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض ، فجعل منها في الأرض رحمة ، فبها تعطف الوالدة على ولدها ، والوحش والطير بعضها على بعض ، (وأخر تسعاً وتسعين) فاذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة » أخرجه مسلم وغيره ··[٢] ·

---

(١) البخاري ج ٨ ص ٨ ، ومسلم بنحوه ج ٨ ص ٩٦ ·

(٢) مسلم ، في الموضع السابق ، وأحمد ج ٥ ص ٤٣٩ · وجملة « وأخر تسعاً وتسعين » زيادة من المسند ·

« مالِكِ يَوْمِ الدين » :

هذا أصل اعتقادي جليل ، وهو ركن من أركان الايمان ، يفيد وصفه تعالى بغاية السلطة والقهر والاستيلاء ، فهو سبحانه المالك والمتصرف المطلق في العوالم كلها في هذه الدنيا ، وفي يوم القيامة ، وفيما بعده ·

لكن الآية خصت بالذكر ملك يوم الدين لاظهار عظيم سلطانه سبحانه وقهره ونفاذ أمره وإرادته في الكون ، فان الملك في ذلك اليوم أعظم خطراً وأظهر لعين العيان أثراً لما يقع فيه من اضطراب العالم واختلاله ، وما يكون من المخاوف والاهوال ، حتى تذهل كل مرضعة عما أَرْضَعَتْ وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وترى الناس سُكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. ولا يمكن لأحد من الجبابرة والمتسلطين أن يزعم لنفسه شيئاً مما كان يزعمه في الدنيا ، أو ينازع في ملكوت الله تعالى : « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » ·

وهكذا جاءت هذه الصفات الثلاثة : « رب العالمين ·· الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين » في موقع غاية في الفخامة والحكمة والاحكام الفني بين « الحمد لله » وبين « إياك نعبد وإياك نستعين » حيث اشتملت على نَعْتِهِ تعالى بجمل من صفات الجمال والجلال تدل على أنه ليسَ أحدٌ أحقَّ منه بالحمد والثناء عليه ، كما أنها تشير الى أنه وحده سبحانه يستوجب العبادة والاستمداد منه ، والاستعانة به حيث تفرد بهذه الصفات · وهكذا تمهد السبيل لاعلان غاية الخضوع والتذلل والانكسار له وحده دون سواه ولاعلان الاستعانة والاعتماد عليه وحده دون سواه ·

« إياك نعبد وإياك نستعين » :

وقد أفادت هذه الآية توحيد الله تعالى في العبادة ، وتوحيده في

الاستعانة والاستمداد منه ، وذلك بتقديم ضمير المفعول به « إياك » • وهو يفيد الحصر ، والمعنى نعبدك وحدك ، ولا نعبد أحداً غيرك ، ونستعين بك وحدك ، ولا نستعين بأحد غيرك ، وذلك هو لب الدين ومحوز أركان الايمان والاسلام •

وقد اختص هذا الأسلوب في تحقيق فائدة الحصر الجليلة الشأن بزيادة تعظيم جناب الحق حيث بدأ بذكره في تقديم الضمير « إياك » ، وذلك يشعر بغاية التعليم والتوجه اليه سبحانه والأدب معه ، وهي فائدة جامعة لفوائد لا تتأتى بغير هذا الأسلوب الموجز المعجز •

وقد جاء التعبير في الآية بأسلوب جديد في توجيه الكلام عدل به عن الاسلوب السابق ، حيث كان الاسلوب فيما مضى من السورة أسلوب الغائب ، فانتقل هنا الى الخطاب لله سبحانه ، وهو لون بلاغي يسميه علماء البلاغة « الالتفات » وهو لون من جمال الكلام يستكثر منه العرب لأن له أثراً كبيراً في التشويق ، فان هذا التحول من غيبة الى خطاب ، أو بالعكس ، أو من متكلم الى غائب أو مخاطب ، أو ما شابه ذلك أحسن في تطرية نشاط السامع وأملأ لاستلذاذه ذوق الكلام والاصغاء اليه •

وههنا سؤال مشهور بحثه العلماء ، وهو كيف يقول الله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » ؟ وهو سبحانه معبود لا عابد ••؟

والجواب : أن سورة الفاتحة من كلام الله تعالى أنزلها تعليماً لعباده كيف يحمدونه والمعنى: قولوا : الحمد لله رب العالمين• الرحمن الرحيم• مالك يوم الدين • إياك نعبد وإياك نستعين •• الى آخرها •

قال الامام أبو بكر بن العربي(١) بفصل هذا الجواب :

« الأول : أنه علمنا كيف نحمده ، وكلفنا حمده والثناء عليه ، إذ لم يكن لنا سبيل إليه إلا به •

---

(١) في كتابه أحكام القرآن ج ١ ص ٣ طبع مطبعة السعادة •

الثاني : أنه قال بعض الناس : معناه قولوا : الحمد لله ، فيكون فائدة ذلك التكليف لنا ٠٠ » ٠

« إهدنا الصراط المستقيم » :

يتوجه العبد الى ربه بهذه الآية يستعينه في شأنٍ هو أعظم مايُسْتَعان عليه بالله ، وهو لاسترشاد والدلالة الى الحق والصواب فيقول :

« اهدنا الصراط المستقيم » ٠

وذلك لأن معترك العقائد والشرائع أخطر ميدان في حق هـذا الانسان ، زلق فيه أساطين الفلسفة والخبراء في القانون والاجتماع وعلماء الانسان في قديم الزمان وحديثه ، وتفرقت بسببه الانسانية أيدي سبأ ، وتاهت فيه شعوب وأمم ، وهو أعظم مهم لهذا الانسان ، كي يتحقق بانسانيته في الدنيا ، ويسعد برضوان الله تعالى وخلوده في الجنة في الآخرة ٠ وليس أحد سوى الله تعالى يملك هذه الهداية ٠ لذلك يتوجه العبد الى ربه ويطلبها منه ويسأله إياها لخطورة شأنها ، لذلك كان هذا المعنى أول ما يدخل في دلالة الآية وأهم ما يقصده القارىء ويخطر ببال الداعي ٠

ولذلك ولأهمية هـذا الدعاء جاء بعـد الثناء على الله تعالى بتلك الصفات العظام ، وقدم عليه مباشرة قوله : « وإياك نستعين » ليكون في هذا كله ترشيح لقبول هذا الدعاء العظيم ٠

وفي هذا المقام دقيقة هامة نلفت النظر إليها وهي أن المؤمن مهتد، ومع ذلك فهو يطلب الهداية ، فكيف ذلك ؟ ٠

الجواب : هو أن المراد بطلب الهداية أن يطلب المؤمن الازدياد منها والرقي فيها ٠ أو أنه يطلب الثبات على الهداية ، والرسوخ فيها في مستقبل الأزمان أيضاً ٠ فان الانسان بحاجـة الى توفيق الله تعـالى ، وتثبيته ٠

« صراط الذين أنعمت عليهم » :

هذا بيان الصراط المستقيم يدل على شرفه بشرف قصاده وسالكيه، بعد بيان شرفه في الآية السابقة شرفاً ذاتياً ، لكونه صراطاً مستقيماً ، أي واضح الحجة لا غموض في معانيه ولا التواء في مقاصده ·

وقد جاء هذا البيان بأسلوب البدلية المفسرة في قوله تعالى : « صراط الذين أنعمت عليهم » فبين أنه طريق يسلكه خيار الناس وأبرار البرية الذين أنعم الله عليهم ، وهم كما يفسرهم القرآن النبيون والصديقون والشهداء والصالحون وحسن أولئك رفيقاً ·

وهذا الأسلوب ـ وهو ذكر الصراط المستقيم أولا ، ثم تفسيره بآية صراط الذين أنعمت عليهم ثانياً ـ هذا الأسلوب فيه بيان قوي غاية القوة لفخامة طريق المسلمين واستقامته ، حتى جعلته الآية مثلاً في ذلك ، بتكرار ذكره مجملاً أولاً، ثم مفصلاً ثانياً، فجعلته بذلك علماً في الفضل والاستقامة ·

« غير المغضوب عليهم ولا الضالين » :

هذا ختام الفاتحة ، وهو بيان موقف المنابذة للحائدين عن الصراط المستقيم ، بعد بيان اتباع الصراط المستقيم ، وهو يفيد أيضاً تأكيد استقامة طريق المسلمين ، وأنه في غاية الاستقامة التي لا غاية بعدها ، حيث إنه سالم من أي انحراف ومن سلوك أي منحرف فيه ·

ولا يخفى على الفطن موقع (لا) في قوله : « ولا الضالين » من تأكيد التحرز عن الضلال والتجنب له ·

قال الامام ابن كثير في تفسيره : « وأكد الكلام ب « لا » ليدل على أن ثَمَّ مَسْلكين فاسدين :

وهما طريقة اليهود والنصارى : فاليهود كما عرفت فسدت

إرادتهم وخَبُثَتْ ، فعلموا الحق وعدلوا عنه ، والنصارى فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون الى الحق » انتهى ٠

وظاهر أن « المغضوب عليهم » و « الضالين » تشملان كل أصناف الكفار بحسب ظاهر العبارة لأنهم جميعهم مغضوب عليهم وضالون أيضاً ، لكن ورد تفسير « المغضوب عليهم » باليهود ، و « الضالين » بالنصارى في روايات كثيرة يلزم الأخذ بها ، لبلوغها درجة الصحة ٠

منها : حديث عدي بن حاتم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان المغضوب عليهم اليهود وان الضالين النصارى » أخرجه الترمذي وقال : « حديث حسن غريب »(١) ٠

ولا يشكل ذلك على تفسيرنا بعموم الكفار ، لأن اليهود والنصارى إذا دخلوا في الآية وهم أهلُ دينٍ يزعمون التمسك به ، فَلَأَنْ يدخلَ غيرهم من المشركين والملاحدة والزنادقة أولى وأجدر ، وكأن الحديث لم يذكر هؤلاء لفرط سقوطهم عن الاعتبار ، والله تعالى أعلم ٠

أحكام الفاتحة :

تختص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور ، نذكر أشهرها فيما يلي :

١ ـ وجوب قراءتها في الصلاة على الامام والمنفرد في الصلاة الفريضة والنافلة ٠ وهو محل اتفاق الفقهاء على الجملة ، إنما اختلفوا في درجة هذا الوجوب ، فذهب المالكية والشافعية والحنابلة الى أنها فرض من أركان الصلاة ، من تركها بطلت صلاته ٠

واستدلوا بحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله

---

(١) الترمذي في جامعه أبواب التفسير ج ٥ ص ٢٠٣ ، وأحمد في المسند ج ٤ ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩ واللفظ للمسند وهو أرجح سنداً ٠ وهذه العبارات من الحديث أخرجاها ضمن قصة طويلة عندهما ٠

صلى الله عليه وسلم قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » متفق عليه [١] .

ظاهر الحديث نفي الصلاة عمن لم يقرأها فتكون ركناً .

وذهب الحنفية الى أنها واجب، بالمعنى الاصطلاحي للواجب عندهم. من تركها عمداً أثم ووجب عليه إعادة الصلاة في الوقت ، ومن تركها سهواً انجبرت بسجود السهو .

وقالوا : إن الركن يتحصل بقراءة أي شيء من القرآن عملاً بآية : « فاقرءوا ما تيسر من القرآن » ، فان هذه الآية صريحة في التخيير . فيحصل أداء الركن بأي قراءة . ونفسر الحديث الذي استدل به المخالفون وما وافقه بأن المرادَ به هو الوجوب الذي هو أدنى منزلة من الفرض عملا بكل الأدلة[٢] .

٢ ـ قراءة الفاتحة للمقتدي خلف الامام : وفيها ثلاثة مذاهب :

آ ـ الشافعية ورواية عن أحمد والحنبلية: انه تجب قراءتها على المقتدي في كل الصلوات الجهرية والسرية ، لأن حديث عبادة وما وافقه لم يفرق في ايجابها بين الامام وغيره فتكون واجبة على الجميع .

ب ـ مذهب الحنفية أن المقتدي لا يقرأ خلف الامام مطلقاً ، سواء كانت الصلاة جهرية أو سرية ، لقوله تعالى : « فاذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » . هذا أمر للسامع بالاستماع ولغيره بالانصات لحديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

---

(١) البخاري في الصلاة ، باب وجوب القراءة ... ج ١ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ، ومسلم : ج ٢ ، ص ٨ ـ ٩ .

(٢) انظر تفصيل بحث المسألة وأدلة الفريقين في كتابنا « دراسات تطبيقية في الحديث النبوي » (القسم الاول) .

« من كان له إمام فقراءة الامام له قراءة » أخرجه أحمد وغيره(١) . وغير ذلك من الأدلة كالحديث الآتي في استدلال المالكية .

ج ـ مذهب المالكية ورواية عن الامام أحمد تُسَنُّ قراءة الفاتحة على المأموم في السرية والجهرية التي لا يصل اليه صوت الامام فيها ، ويكره ذلك في الجهرية ، لما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما جعل الامام ليؤتم به فاذا كبر فكبروا وإذا قرأ فانصتوا » أخرجه مسلم وغيره(٢) وجعلوا ذلك طريقاً للتوفيق بين أدلة المذهبين السابقين .

٣ ـ يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول عند الفراغ منها (آمين) بمد الهمزة ، ويجوز القصر ، بأن تقول : « أمين » وهذا اللفظ ليس من سورة الفاتحة ولا من القرآن ، إنما وردت به السنة . وهو كما قال جمهور العلماء : اسم فعل أمر معناه : « اللهم استجب » .

ويتأكد قول : « آمين » في حق المصلي سواء كان إماماً أو مأموماً أو منفرداً .

أخرج الشيخان(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إذا أمَّنَ الامام فأمِّنوا ، فانه من وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه » .

---

(١) الحديث روي عن عدد من الصحابة بأسانيد كثيرة لم يخل شيء منها من القدح واستدل الحنفية أيضاً بما جاء من الآثار عن الصحابة في ذلك . انظر التوسع في تخريج الحديث والكلام على طرقه في نصب الراية للزيلعي ج ٢ ص ٦ ـ ١٤ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه وأبو داود وابن ماجه من حديث أبي موسى وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة انظر التوسع في تصحيحه في نصب الراية ج ٢ ص ١٤ ـ ١٦ .

(٣) البخاري في الصلاة (جهر الامام بالتأمين) ج ١ ص ١٥٢ ، ومسلم (باب التسبيح والتحميد والتأمين) ج ٢ ، ص ١٧ .

وأخرجا أيضاً[١] : « إذا قال أحدكم في الصلاة : آمين ، والملائكة في السماء : آمين ، فوافَقَتْ إحداهُما الأخرى غُفِرَ له ما تقدَّمَ مِنْ ذنبه » .

فضل سورة الفاتحة :

وردت أحاديث كثيرة تدل على فضل سورة الفاتحة ، مما يدل على جلالة شأنها ورفعة منزلتها ، نذكر منها هذه الأحاديث ؛ إضافة الى الحديث السابق في أسماء السورة :

١ ـ حديث أبي سعيد بن المُعَلَّى قال :

كنت أصلي ، فدعاني النبي صلى الله عليه وسلم فلم أجبه . قلت : يا رسول الله ، إني كنت أصلي ، قال : ألم يقل الله : « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم » . ثم قال : « ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ؟ » . فأخذ بيدي ، فلما أردنا أن نخرج قلت : يا رسول الله ، إنك قلت : لأعلمنك أعظم سورة من القرآن ! . قال : « الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيتُه » أخرجه البخاري وغيره[٢] .

٢ ـ حديث انه صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب في سورة الفاتحة: «والذي نفسي بيده ما أُنْزِلَتْ في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته » . أخرجه الترمذي وصححه والنسائي والحاكم وابن

---

(١) البخاري ومسلم الصفحات السابقة . وانظر للتوسع في أحكام سورة الفاتحة ومناقشة الأدلة (أحكام القرآن) لأبي بكر الرازي الجصاص ج ١ ص ١٨ ـ ٢٥ ، وتفسير القرطبي ج ١ ص ـ ١١٧ ـ ١٢٥ وغيرهما .

(٢) البخاري في فضائل القرآن ج ٦ ص ١٨٧ ، وأبو داود ج ٢ ص ٧١ ـ ٧٢ ، والنسائي ج ٢ ص ١٠٧ .

حبان(١) ٠

٣ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تعالى : « قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل : فاذا قال : الحمد لله رب العالمين ، قال الله تعالى : حمدني عبدي ٠ وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أثنى عليّ عبدي ، فاذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مَجّدني عبدي ٠ وقال مرة : فوّض إليّ عبدي ٠ فاذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ٠ فاذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ٠ قال : هذا لعبدي ، ولعبدي ما سأل » ٠ أخرجه مسلم(٢) ٠

---

(١) الترمذي في فضائل القرآن ج ٥ ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ، والمستدرك ج ٢ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ ٠ وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وموارد الظمآن ص ٤٢٤ ٠

(٢) مسلم ج ٢ ص ٩ والترمذي ج ٤ ص ٢٠١ ، والنسائي ج ٢ ص ١٠٥ ٠

الجوانب الأدبية في سورة الفاتحة

سورة الفاتحة هي أم الكتاب في مضمونها ومعانيها، وهي لذلك في غاية السمو في أسلوبها وفنونها الأدبية ولطائف التعبير الملائمة لما عبرت عنه من المعاني والأغراض، وقد عرضنا لمحات من أسلوبها في أثناء التفسير، ونلمح هنا إلى وجازات سريعة تلقي الضوء على بقية الجوانب الأدبية في السورة فيما يلي:

أ ـ التصوير

لا بد لنا هنا أن ننبه على أن التصوير وإثارة الخيال في القرآن ليس كما هو معهود من توهمات الأدباء والشعراء ومبالغاتهم المتجاوزة للحدود، بل إن التصوير في القرآن هو إثارة الصورة في النفس وتحريك المخيِّلة كي تتصور الأمور طبق الحقيقة التي أرادها القرآن الكريم. ومن هنا فإنه ربما يرى البعض أن فن التصوير غير موجود في سورة الفاتحة، ولكن الحقيقة أن السورة تتضمن مشاهد محسوسة ومشاهد متصورة ووقائع نفسية.

تفتتح السورة بهذا الإعلان ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، الذي يحضر في التصور الذهني حقيقة توجه الحمد كله من كل كائن ومن قديم الزمن إلى أبد الأبد لله تعالى، وعلى وجه الثبات والدوام، كما شرحه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾، وهذه صورة يعجز العقل عن إدراكها والإحاطة بها، ويندهش لعظمتها وإحاطتها، لكنها الحقيقة التي تنطق بها الكائنات، لا تزيّد فيها ولا غلوّ.

ثم تأتي كلمة ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لتشعر الإنسان بضآلته هو وكرته الأرضية التي يسكنها، والتي تعتبر كأنما هي ذرة أو هباءة أمام العوالم الكثيرة الفسيحة، ثم تضع هذه الكلمة صورة الكواكب التي تبعد

سنوات ضوئية عن الأرض، والمجرات التي يبلغ طول الواحدة ملايين من السنين الضوئية، كما تغوص بنا كلمة ﴿ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ في أعماق الجزئيات الدقيقة إلى الإلكترونات وعالم الذرات، لترتسم كلها في ظل ربوبية الله تعالى لها، وافتقارها إلى إمداده وإفاضاته عليها.

ومَن الذي يتصور نفسه قد حلّق فوق الأرض، وأشهده الله مخلوقاته كلها تجول في حركاتها الظاهرة والخفية بتدبير الله تعالى وإمداده. ثم يتمالك نفسه من هيبة لا طاقة له بها، وخشية لا يحتملها.

وهكذا لا يقتصر التصوير في القرآن على الصورة البيانية الاصطلاحية المحدودة، بل إن كل كلمة فيه هي حقيقة مشاهدة يقربها إلينا التصوير القرآني، لأن مصدره هو خالق التصور بأبعاده في نفوس الناس.

ومن هنا نرى ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يضعنا أمام صورة جديدة تتمم صورة الربوبية لكل ما في الكون بأنه مغمور بغاية الرحمة والإحسان من الله تعالى.

ونقف أمام قوله: ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، الذي أوقفنا أمام صورة بالغة لغاية الهيمنة، التي تمتلك ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾. والملكية كما نعهد تكون لرقاب الأشياء الحسية وذواتها، أما ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ فهو زمن هائل عظيم، لكن الله تعالى يملكه، فأين بقيت بعد هذا أملاك الإنسان الذي يأتي صاغراً إلى جناب ربه. وهكذا نجد حسية التملك تعطينا صورة السيطرة التامة.

كذلك الصورة البيانية ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ التي تختصر لنا الإسلام بعقائده وعباداته وأخلاقه، ومعاملاته وتنظيمه للحياة، تختصر كل ذلك في صورة حسية هي «طريق مستقيم»، لا التواء فيه، ولا انخفاض، ولا ارتفاع، ليفيدنا أن لا وصول للمقصود وهو السعادة إلا بالإسلام، الذي

هو طريقٌ رواده هم خيار البرية: الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون، ثم تكمل الصورة الحسية للطريق المستقيم بصيانته عن الدخلاء أدعياء العبادة والطاعة لله ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

ب ـ إثارة العاطفة:

سورة الفاتحة مناجاة يتوجه بها العبد إلى ربه، يعبر عن إيمانه وأهدافه، ولذلك فهي تعبِّر عن عواطف إنسانية عليا جياشة، تفيضها على قارئها وتاليها وسامعها، وإنها لعواطف عميقة ومتنوعة على الرغم من قصر السورة.

تعبر سورة الفاتحة عن أقصى مشاعر الشكر والامتنان والعرفان بالجميل، في افتتاحها الجامع لكل ثناء حسن جميل ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، يتوجه به قلب المؤمن إلى الله تعالى، كما يثور في النفس الشعور بالهيبة لذكر الاسم الأعظم الدال على الذات الإلهية والجامع لكل الأسماء والصفات ﴿ لِلَّهِ ﴾.

وتزداد هذه المشاعر بالعرفان والهيبة لهذه الجملة ﴿رب العالمين﴾ إلى مشاعر الافتقار الدائم في ذات الإنسان وذوات الكائنات بل ذرات المخلوقات كلها لله تعالى. كما تُفيض هذه العبارة مشاعر الاطمئنان، فلا يخشى الإنسان غير ربه، لأن كل العوالم من إنس وجن وحيوان وجماد ونبات كل هذه مثل الإنسان خاضعة لهذه الربوبية تستمد منها على الدوام.

كذلك تشعر هذه العبارة ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الإنسان بارتباطه بالعالم، بل العوالم وخصوصاً الارتباط بعالم الإنسان بمشاعر وحدة الأصل ووحدة الخالق، وتنتقل بالمسلم إلى مستوى عالمية العقيدة وعالمية المشاعر، وما أعجبها فكرة ومشاعر يأتي بها القرآن منذ تنزلاته الأولى على النبي ﷺ.

ثم تغمرنا الرحمة التي عمت الكائنات، والعوالم في الدنيا والآخرة لتزيدنا اطمئناناً وتفتح أبواب الأمل أمامنا، وتنمي في قلوبنا القبس من هذه الرحمة الإلهية فتصبح صبغة لنا في حياتنا وفي صِلاتنا بالناس، كما يثير فينا وصفه تعالى ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ الخشية والحذر، لكنهما خشية وحذر يدفعان إلى المكرمات والفضائل، ويصرفان عن السيئات والرذائل استعداداً للقاء الله في ذلك اليوم: ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

وهنا وقد اجتمعت في القلب مشاعر الحب والشكر والهيبة والافتقار والإجلال والخشية يتوجه المؤمن بأقصى غاية التذلل والانقياد والطاعة والخضوع ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾، ويتوجه يدعو الله أن يمده في قواه ليحقق ما يقربه إليه بقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾، وليحقق آرابه كلها فيناجي ربه داعياً مفتقراً يقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

ونجد مشاعر الحرية والاعتزاز هنا تثيرها فينا السورة بهذا الحصر ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ إذ أننا لا نذل لغير الله، ولا نفتقر لغير الله.

وتثير فينا السورة الشعور الجماعي ومحبة الجماعة والتعاطف معها بهذا التعبير بنون الجمع «نعبد»، «نستعين» «إهدنا»... لننطلق مع الجماعة نحو الهدف الصحيح ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، فنشعر بالثقة بدعوة القرآن، لأنها تقوم على وضوح الرؤية وصفائها، ومحبة هذه الدعوة والحرص عليها لأنها توصلنا إلى مقاصد الخير كلها العاجلة والآجلة. وتدخلنا في موكب هؤلاء الذين تثير فينا السورة غاية المحبة لهم والإعجاب والتقدير، والرغبة والتشوق إلى اللحاق بهم ﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾.

ويتمم هذه المشاعر عواطف الحذر والكره التي يثيرها ختام السورة ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، ليجعلنا نجتنب

أسباب الانحراف عن الصراط المستقيم، فنمحض إرادتنا له، فلا تصرفها رغبة دنيوية أو شهوة غريزية، أو حقد أو تطاول أو غير ذلك من مؤثرات، كما نحْرص على عقولنا وأفكارنا بأن تتبصر بهذا الصراط المستقيم وتتعرف عليه، وذلك بتنوير عقولنا وتوسيع ثقافتنا فنزداد قوة في التمسك بهذا الصراط المستقيم أقوى تمسك، ونعتصم به أعظم اعتصام.

جـ ـ التناغم الصوتي:

تتميز سورة الفاتحة بلحن خاص بها، يمكن أن نجد فيه الهدوء واللين والقوة أيضاً، وذلك يجمع أصول ألحان القرآن المكي والمدني، وتؤدّي السورة هذا اللحن بقصر آياتها وسيادة الهدوء واللين غالباً على كلماتها وحروفها.

ويظهر تناغم السورة كقطعة واحدة في فواصل آياتها، فالفاصلة الأولى تنتهي بالياء والنون ﴿ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ والثانية بالياء والميم ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾، والنون والميم حرفان متقاربان مخرجا، وقد سبقا بحرف مَدٍّ، مما يفيد التنغيم، ثم يأتي جمال الوحدة في التنوع في العودة إلى النون في آخر الفاصلة ﴿ ٱلدِّينِ ﴾...

وفي تفصيل جانب اللحن في سورة الفاتحة، نجد أول ما يطالعنا كثرة المدود في السورة كما في ﴿ لِلَّهِ ﴾، ﴿ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾، ﴿ نَسْتَعِينُ ﴾، ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ وهكذا... وذلك يساعد على إطلاق مشاعر الشكر والحب والإجلال، والرهبة أمام الله تعالى، وهذه المدود تخفف شدة بعض الحروف كما في ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ .. ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

ويضفي التكرار في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الكثير من التناغم مع زيادة تأكيد الخصوصية للعبادة والاستعانة بالله، كذلك

نلحظ في أطول آيات في السورة في ختامها تأثير الفواصل الداخلية في إقامة التوازن الموسيقي، وذلك في تكرار ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في آية ﴿صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، مع ما يفيده من البعد الشاسع بين الإنعام والغضب، وقد ختما بفاصلة واحدة، كذلك تقوم ﴿وَلَا﴾ بالعمل نفسه في نغم موسيقى الآية لتتوازن مع ﴿غَيْرِ﴾، بل تحتل فيها مكان الركن والأساس، مع المعنى البالغ غاية الأهمية الذي أفادته، وهو الدلالة على أن ثمة مسلكين يوقعان في الضلال، يجب الحذر من كل واحد منهما غاية الحذر.

ويأتي بعض الحروف الشديدة في آخر السورة، كما في ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ليناسب تصوير غلظ قلوبهم، وجو المقت الذي يحيط بهم ويزيدنا أن نحذر منهم أشد الحذر، لنظل على صراط مستقيم، منزه عن أية شائبة.

د ـ ترتيب كلمات السورة:

كذلك نجد ترتيب الكلمات في السورة على غاية الإحكام؛ فإن اسم الجلالة «الله» اسم للذات المقدسة، وهو الله أزلاً قبل الخلق وبعد الإفناء، ثم إنه برحمته خلق وأوجد فهو «رحمن»، ثم بعد الإيجاد رزق وأبقى فهو «رحيم»، ثم إن من خلق ورزق وأوجد وأبقى أتى بكمال النعمة فله الحمد، فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. ثم إنه يخلق الخلق ثانياً يوم القيامة، فهو ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

وإذا كان الخلق منه أولاً وثانياً والرزق والرحمة والإبقاء في الآخرة كل ذلك منه وحده فلا يجوز أن يعبد غيره، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ثم إن مَنْ عظُمت نعمه وعم كرمه لا يُقدر على حق عبادته إلا بإعانته فقال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثم إن العبادة للتقرب إلى الله تعالى فالعابد سالك يطلب الهداية ويقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، ولا بد من الرفيق فقال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، وبعد وجدان الطريق واصطحاب الرفيق يخاف قطع الطريق أو إضلاله فيقول: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ .فهذا ترتيب في غاية الحسن ونهاية الإحكام(١).

وهكذا اشتملت سورة الفاتحة بآياتها السبع القصار على أصول مقاصد الإسلام، وأمهات أغراض القرآن الكريم في العقيدة والشريعة والفضائل، والمواعظ، وجاءت من أولها إلى آخرها تنساب صوتاً عذباً يقدم قطعة لحن متآلفة، كلما أعادها القارىء شعرَ بجدتها، وجمال نغمها، وحلاوة انزلاقه على اللسان، وروعة تأثيره ولينه في القلب، لتظل نشيد العبودية للعباد، وتكون بيـان الدعـوة الإسلاميـة للعالم، ونجوى العارفين، وأشواق المشتاقين يبثونها، ينـاجون رب العـالمين بها.

* * *

---

(١) بتصرف عن تفسير قطف الأزهار في كشف الأسرار، للإمام السيوطي. مخطوط. ورقة ٤ ب.

جوانب من التربية في سورة الفاتحة

اشتملت سورة الفاتحة على أصولٍ تربوية جليلة، لها أهميتها البالغة لمن اهتدى بهداها، وإنها لجوانب عديدة واسعة يحتاج بسطها إلى بحث مطول، نجتزىء بالإشارة السريعة إلى مهماتٍ منها فيما يلي:

أولاً: التكوين الفكري الذي تحققه السورة، من حيث المعرفة بالله وتوحيده، وجوامع صفاته، ومعرفة الكون والعوالم وصلتها بالله صلة مربوب بربه الذي خلقه ثم يتعهده بالإمداد والتنمية.

والتكوين الفكري والاعتقادي أصل هام بل ركن أساسي في التربية، يوجه أهدافها ووسائلها، وقد جاءت سورة الفاتحة بمجمع هذا الأصل.

ثانياً: غرس فضيلة الشكر والعرفان بالجميل في قلب المؤمن، لما في السورة من الثناء الحسن الشامل للمدح والشكر، والبالغ غاية الغايات التي لا تحد، وذلك سبب أساسي للإيمان ولنموه في القلب، قد عني به القرآن، ولهجت به ألسنة العارفين، متأثرين بهدي القرآن في الشكر والحمد لله، وبهدي سورة الفاتحة.

فالمنطلق الأساسي في قيم الفكر والعقل هو شكر المنعم، وقد قرر الفلاسفة من قديمٍ قاعدةً مسلَّمة بديهية تقول: «شكر المنعم

واجب عقلاً». كما أن شكر المنعم أساس الخُلُقِ الفاضل، فليس من الخُلُقِ في شيء جحود النعمة وكفران المتفضل بها عند أحد من المخلوقات، إلا ما جُبِلَ على التوحش أو الأذى.

لذلك سجّل القرآن تفسير الحكمة بأنها الشكر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾(1).

وهذا الشكر الذي تأصل في القلب لله تعالى يوجب في الشاكر خلق الشكر للناس، إذ ما أكثر ما يكونون هم الواسطة في وصول نعمة الله تعالى إلى الإنسان، لذلك ورد في الحديث: «لم يشكر الله من لم يشكر الناس». وهذا يؤدي إلى أن تقوم العلاقات بين الناس على أوثق ما تكون، لأن كل واحد يعترف لغيره بجميل ما لديهم، وبحسن صنائعهم، وبتسلسل الروابط والعلاقات التي لا بد منها في المجتمع تتسلسل هذه الصلة ويتوثق بناء المجتمع بحسن العلاقة وجميل الروابط.

ثالثاً: إقامة الروابط الوثيقة بين الناس كافة، على أساس أنهم عبيد لله وحده، وهو سبحانه ربهم، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(2).

كذلك يعلن النبي ﷺ هذا المبدأ في خطبته الكبرى في حجة الوداع فيقول:

«أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب».

---

(1) سورة لقمان: الآية ١٢.
(2) سورة الحجرات: الآية ١٣.

ونجد في ابتهالات النبي ﷺ عقب الصلاة قوله:

«اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة» أخرجه أبو داود.

وذلك يوسع آفاق المؤمن فيربطه بالعالم كله برباط المحبة، وإرادة الخير، والدعوة إلى منبع الخيرات وهي الدعوة إلى الله تعالى، كما فعله المسلمون قديماً وأدخلوا الإسلام إلى كل أصقاع الدنيا، بدافع محبة الناس وإرادة الخير لهم، لا لبسط نفوذ أو اجتلاب منافع أنانية.

وفي ذلك ثبت الحديث: «الخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله».

رابعاً: إضفاء سمة التفاؤل على المسلم، وطبعه بطابع الأمل المتفتح في المستقبل، لأنه يعتقد في صميم قلبه، ويكرر بلسانه معلناً دائماً إيمانه وصلته بالله، ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

ولأن المؤمن يخاطب الله تعالى بعنوان الربوبية، ويستمد منه العون ويستمطر المدد، ويكرر ذلك دائماً، صادقاً متضرعاً إلى الله، وذلك يشعره بالثقة والاطمئنان إلى أنه سيكون موضع عناية الله وتوفيقه.

وقد حضّ النبي ﷺ المسلم على التفاؤل، وتوقع الخير من الله تعالى دائماً، وحذّر من التشاؤم وسوء الظن، وجاء ذلك بأقوى إبلاغ حديثي وهو الحديث القدسي:

«أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني».

خامساً: إثارة البواعث للعمل الصالح، والكف عن السيئات. وذلك لما اشتملت عليه السورة من فنون الترغيب والترهيب، والخوف والرجاء، ففيها ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ و﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . .﴾ وهذه بواعث رغبة وطمع، وفيها ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ و ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وهذه بواعث خوف وفزع. وهكذا تتحقق في النفس الدوافع بنوعيها السلبي والإيجابي، وتتوازن، فلا تغرق في الطمع والرغبة مما قد يضعف العزيمة، ولا تسرف في الخوف والرهبة، مما يدعو إلى اليأس، وهذا كما قالوا: المؤمن يطير بجناحي الخوف والرجاء، وكما أثنى الله على خاصة عباده فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

وكما ثبت في دعاء القنوت: «نرجو رحمتك ونخشى عذابك».

سادساً: استقلال شخصية المسلم عن كل ما سوى الإسلام، وفضائل الإسلام، وذلك من الناحيتين: الإيجابية والسلبية:

أما من الناحية الإيجابية فلما يتخلق به من الفضائل والكمالات، وذلك بموجب إيمانه بالله، وأنه رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، وتشبثه بطاعة ربه مطلقاً في كل شأنه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ . .﴾.

وأما من الناحية السلبية فبتحرزه عن كل مخالفة للإسلام، وتحفظه المؤكد عن تأثر شخصيته أو سلوكه بشيء ليس من الإسلام، أو ليس من أعمال المسلمين وأخلاقهم وعاداتهم، وذلك لما تختتم به سورة الفاتحة من هذا الاحتراز ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وهكذا تكوّنت للمسلم من خلال سورة الفاتحة شخصية متكاملة، تتميز بنقاء الفكر ووضوح العقيدة، وبسمو الخلق، وبانحيازه وانفراد شخصيته عن كل تقليد وسمة لغير الإسلام. فهو جزء من أمة هي خير الأمم، ثم هو بتكامله واستقلاله أمة بين غير المسلمين من سائر الأمم.

تفسير سورة لقمان

تعريف عام بالسورة :

سورة لقمان سورة مكية ، نزلت بمكة المكرمة حين كانت الدعوة تؤسس قواعد الايمان في القلوب ، ومن هنا كان من الطبيعي أن يدور محور السورة على الدعوة وترسيخ الايمان ، وقد ركزت السورة على الايمان بالله فشرحت مقتضيات الايمان أو نظام الايمان شؤونه الفكرية والعملية ، في قالب حكيم من قصة لقمان الحكيم ، وذكرت شواهد على وحدانية الله تعالى وعظمته من مظاهر الكون الناطقة بنعمة الله وقدرته، وختمت بالتذكير والتحذير من اليوم الآخر في أسلوب تصويري يبرز أهوال ذلك اليوم الذي يحاسب الناس فيه من يعلم الغيب غيب السموات والأرض ، وغيب هذا الانسان الذي لا يدري عن غيب نفسه شيئاً ، وكان هذا إيقاعاً أخيراً يهز النفس ويبعثها على التخلي عن الغفلة ، ويثيرها الى الاهتمام وأن لا تخدع بآمال الدنيا ومتاعها ·

مناسبة السورة لما قبلها :

تقع سورة لقمان في ترتيب المصحف بعد سورة الروم ، وهذا الترتيب بين سور القرآن ترتيب متناسق ، ترتبط فيه كل سورة بما قبلها بمناسبات قوية تعتبر لوناً من بلاغة هذا القرآن الكريم · وقد قسم علماء فن المناسبات بين السور هذه المناسبات الى قسمين : مناسبات

عامة وهي وجه الربط بين موضوع السورة السابقة واللاحقة أو ما في أثناء السورتين من أمور ترتبط ببعضها ·

القسم الثاني المناسبة الخاصة : وهي وجه الربط بين آخر السورة السابقة ومطلع السورة التالية لها ·

ومن أوجه المناسبة العامة بين سورة لقمان وسورة الروم :

١ ـ افتتاح كل من السورتين بـ « ألم » ·

٢ ـ في كلتا السورتين جملة من الآيات الكونية الشاهدة بعظمة الله تعالى ووحدانيته وتقدسه سبحانه ·

٣ ـ انه ذكر في سورة الروم مغلوبية الروم في حربها مع الفرس وانهم سوف يغلبون الفرس ، وهذه الحرب بينهم كانت بسبب الدنيا مما يخرج الأمر عن الحكمة ، وهذه السورة فيها قصة حكيم « لقمان » يأبى المحاربة لأجل الدنيا ، فانه زاهد فيها يحض على الزهد والاقبال على الآخرة ·

وأما المناسبة الخاصة وهي وجه ارتباط أول السورة بآخر سورة الروم : فانه تعالى قال في آخر سورة الروم : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثَل ، ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون · كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون · فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون » · هذه الآيات خاتمة سورة الروم بينت تصريف أنواع الاعجاز للكافرين ومع ذلك فهم يكفرون بالآيات ولا يؤمنون فبين عظمة هذه الآيات في فاتحة سورة لقمان بقوله : « الم · تلك آيات الكتاب الحكيم ··· » وفصل جانباً من موقفهم المعاند بقوله : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ··· »[1] ·

---

(١) بتفصيل وإيضاح لما ذكره الامام الرازي في تفسيره ج ٢٥ ص ١٣٩ ·

وأيضاً ففي آخر سورة الروم قوله تعالى : « ولا يستخفنك الذين لايوقنون » وفي مفتتح سورة لقمان : « وهـم بالآخرة هم يوقنون » . وهو وجـه بديع من المناسبة بين آخر السورة السابقـة وبين مفتتح هذه السورة .

• • •

بسم الله الرحمن الرحيم

« آلم . تِلكَ آياتُ الكتابِ الحَكِيمِ . هُدَىً ورَحمَةً للمحسنين . الذينَ يُقِيمونَ الصلاةَ ويُؤتونَ الزكاةَ وهُم بالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنونَ . أولئِكَ على هُدَىً مِنْ رَبِّهِمْ وأولئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ » .

سورة لقمان (١ ــ ٥)

اللغــة :

الــم : هذه الأحرف كنظائرها مما افتتحت به سور كثيرة من القرآن هي حروف مسرودة عــلى طريق التعداد اشارة الى إعجــاز القرآن .

آيات : جمع آية . وهي في اللغة العلامة . سميت بذلك الآية من القرآن لكونها علامة على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اشتملت عليه من الاعجاز بمفردها إذا كانت طويلة ، أو بانضمام غيرها إليها إذا كانت قصيرة .

الحكيم : هو المتصف بالحكمة ، وهي غاية السداد في القول والعمل ٠
والحكيم : من يضع الأشياء في موضعهــا اللائق بهــا ، وهو وصف لأهل الكمال من العقلاء ، وصف به القرآن لأنه جاء بالحكمة ، على طريق النسب ، مثل قولهم : لابن وتامر ، أي ذو لبن ، وذو تمر ٠ وقيل : إنه وصف للقرآن بصفة قائله على سبيل المجاز الاسنادي (أي المجاز العقلي) ٠

والمراد : الحكيم قائله ٠ فنسب الى القرآن وصف قائله عز وجل مجازأ ٠

وقال القرطبي : الحكيم المحكم ، أي لاخلل فيه ولا تناقض ٠

والأول أولى في نظرنا ، لأنه الظاهر من هذه الكلمة ٠

المحسنين: أي العاملين للحسنات ٠

الذين يقيمون الصلاة : صفة للمحسنين (مادحة) قصد بها مدحهم بجليل أعمالهم ٠

والمعنى:أنه هدىورحمة للمحسنين العاملين لكل الحسنات ثم مدحتهم بهذه الأعمال من حسناتهم لعظمة شأنها ٠

وقيل : هي صفــة (كاشفة) أي معرّفــة بهم ، ويكون المعنى : هدى ورحمــة للمحسنين وهم الذين يعملون هــذه الحسنات المذكورة ، أي « يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون »٠ وقد استشكل اعرابها صفة كاشفة بأن ثمة واجبات أخرى يجب أن يقوم بها المؤمن حتى يوصف بأنه محسن ، مثل الصيام والحج ، فلماذا لم تذكر تلك الواجبات الأخرى في الآية ؟ ٠

والجواب عن ذلك : انه خص بالذكر هذه الثلاثة لكونها جوامع ضوابط لما وراءها من أعمال القلب والقالب ٠

ويقال نحو هذا بالنسبة لاعرابها صفة مادحة · بأنه مدحهم بها مع أن هناك أركاناً أخرى إشارة لعظمة شأنها وفضلها ، وانها تستتبع غيرها ·

الشرح والأسلوب :

« الـم » بهذه الفاتحة من الأحرف الهجائية المقطعة ينبه القرآن كل ذي عقل الى وصفه المعجز ، فيسرد هذه الأحرف « ألف » « لام » « ميم » ليلفت الأنظار الى أن القرآن الكريم لا يعدو أن يكون مركباً منها ومن مثيلاتها ، كما أن كلام العرب أيضاً مركب من ذلك ، وحيث عجزوا عن أولهم وآخرهم عن الاتيان ولو بسورة من مثله ، وتقاصرت عنه هممهم ومواهبهم وهم أرباب الفصاحة والبلاغة وفرسان البيان ، كان ذلك دليلا على أن آياته الحكيمة نازلة من عند الله خالق القوى والقدر ·

« تلكَ آياتُ الكتابِ الحكيم » :

تلك : أي هذه الآيات القرآنية المعجزة جمعت خصال الكمال وتميزت بذلك وأصبحت محط الأنظار ، حتى يشار إليها بالاشارة « تلك » ·

تلك الآيات التي هذا شأنها هي « آيات » هذا « الكتاب الحكيم » ذي الحكمة البالغة في أسلوبه وخطاباته ، في أحكامه وعقيدته ، في مقاصده وأهدافه · ويجيء وصف القرآن هنا بالحكمة متناسباً تماماً مع هدف السورة ، لأن السورة تُبْرِزُ اتفاقَ الحكمة وانسجامها مع دعوة القرآن · وهو لون من البلاغة يسميه البلاغيون ، « براعة الاستهلال » ، وهي افتتاح الكلام بما يمهد لمضمونه وغرضه ، فيكون له أثر نفسي قوي في تحقيق ذلك الغرض في النفس ·

وهذا الوصف « الحكيم » يلقي على القرآن ظل الحياة كأنما هو كائن حي متصف بالحكمة يفيضها على من يصاحبها ، ويبثها فيمن يأخذ به(١) فهو بهذه الحكمة جاء :

« هُدىً ورَحْمةً للمُحْسنين » :

فهو في غاية الهداية حتى صار كأنه نفس الهدى : فعبر عنه بالمصدر « هدى » . وهو غاية في تحقيق الخير للناس . حتى صار هو الرحمة بعينها ، فلم يكتف بوصفه « راحماً » بل عبر بقوله : « رحمة للمحسنين » الذين اتبعوا هذا القرآن وعملوا به ، فصلحت كل أمورهم، فاتصفوا بهذه الخصال العظيمة :

«يُقيمونَ الصلاةَ ويُؤْتونَ الزكاةَ وهُمْ بالآخرةِ هُمْ يوقنون»:

وهي خصال جامعة تؤثر في جوانب النفس وتصلحها ، فدل اتصافهم بها على أن الاحسان شمل كل أمورهم الظاهرة والباطنة .

فالصلاة تدل على الاحسان في أعمالهم لأن الصلاة عنوان لها، مُسَيِّرَة لها تجاه رضوان الله تعالى . فصلحت أعمال البدن واستقامت باقامة الصلاة ، لذلك لم يقل : يؤدون الصلاة ، أو يصلون ، بل عبر بقوله : « يقيمون الصلاة » إشارة الى أنهم يؤدونها أداء تنعقد به تلك الصلة الوثيقة بين القلب والرب ، فتنتهي الجوارح عن الفحشاء والمنكر .

والزكاة : تدل على الاحسان في أمورهم المالية الفردية والاجتماعية، فهم يسيرون فيها على شِرْعة القرآن ، ويحققون مجتمعاً يعتمد على التعاون ، يأمن أفراده الفقر ، ويجد كل واحد منهم محبة القلوب

---

(١) وذلك صريح في جعل الحكيم من باب المجاز أو الاستعارة على ماسبق في بحث اللغة وهو بطريق الايماء والاشارة على تفسير الحكيم بمعنى « ذي الحكمة » وهو الرأي الذي رجحناه .

اللينة ، التي تهذبت بالاسلام فلا يطغيها بطر في العيش ، ولا يغريها بالحقد حرمان ·

والايمان بالآخرة عنوان لما في قلوبهم من إيمان وشفافية تخترق حجب المادة · لذلك قال :

وهُمْ بالآخرةِ هُمْ يوقنون » :

أي : إنهم في غاية القوة من الايمان بالآخرة، لذلك ميز هذه الجملة عن أسلوب سابقتها ، فلم يقل : وبالآخرة يوقنون ، بل قال : « وهم بالآخرة هم يوقنون » ، أي هم في غاية قوة الايمان واليقين بالآخرة ، وذلك لأنه بنى الجملة على الضمير « هم » في قوله : « وهم بالآخرة » ثم أعاده ثانية فقال : « هم يوقنون » وذلك يدل على أنه قد تمكن الايمان بالآخرة في قلوبهم غاية التمكن والرسوخ ·

وهذا اعتناء عظيم بقضية الايمان باليوم الآخر ، فانه أحد طرفي قطر الايمان ، يبقى كل زعم للايمان والتقوى متهافتاً إذا لم يعمر القلب بهذه العقيدة الخطيرة الشأن بحيث ترسخ فيه رسوخاً يجعلها من القلب في موقع المحرك الى الطاعات · المطهر عن السيئات ، فاذا استكمل الانسان هذه الأركان الثلاثة على وجه الاتقان والكمال كان لا بد أن يستكمل جوانب الاحسان لأنها تستتبعها ولا تنفك عنها · ومن ثم أثنت عليهم الآيات بهذا الثناء :

« أولئك على هُدَىً من رَبِّهِمْ » :

أي أنهم في غاية الهداية ، كما يدل عليه التعبير « على هدى » ولم يقل : « مهتدون » فعبر ب « على » ليدل على غاية تمكنهم من الهداية ، « لأنهم في أعلاها » ، ثم أشار الى عظمة هذه الهداية فذكرها منكرة « هدى » ، أي عظيماً ، كأنه لفخامة أمره لا يحيط به الذهن ، فلم

يعرفهـا بأل التعريف · وهي واصلة اليهم من مصدر العنايـة التي لا نهاية لها : « من ربهم » كما ينبيء عنه هذا التعبير باختيار لفظ الرب مضافاً إليهم ، فهي إذن هداية بالغة غاية الغايات ·

« وأولئك هم المفلحون » :

أي إنهم وقد بلغوا تلك المنزلة العالية قد تـمـيـّزوا بها أكمل تـمـيـّز حتى أصبحت الأصابع تشير إليهـم ، إشارة الى بـُعـْد ، لعلو منزلتهم « أولئك » ، تشير اليهم لما اختصوا به من الفلاح « هم المفلحون » أي لا غيرهم ، هكـذا بالتعريف للخبر « المفلحون » هنا لافادة اختصاص الفلاح بهم · فهم واصلون الى رضوان الله تعالى ، وقد نجوا من الضلال في الدنيا ، ومن عواقبه في الآخرة ·

قال تعالى :

« وَمِن الناسِ مَنْ يَشْتري لَهْوَ الحديثِ لِيُضِـلَّ عَنْ سبيـلِ الله بغيرِ عِلمٍ ويَتَّخِذَها هُزُواً أُولئك لهم عذابٌ مهين · وإذا تُتْلَى عليه آياتُنـا ولّى مُستَكبِراً كأنْ لَمْ يسمَعْها ، كأنَّ في أُذُنيه وَقْراً فَبَشِّرْهُ بعذابٍ أليم » ·

سورة لقمان (٦ ـ ٧)

سبب نزول الآيتين :

أخرج الفريابي وابن جرير وابن مَرْدُويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث » قال : باطل

الحديث وهو الغنـاء • ونحوه « لِيُضِلَّ عَنْ سبيل الله » قال : قراءة القرآن وذكر الله ، نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية(١) •

وورد مزيد من التفصيل في روايات أخرى •

أخرج جويبر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « أُنْزِلَتْ في النضر بن الحارث اشترى قينة وكان لا يسمع بأحد يريد الاسلام إلا انطلق به الى قينته فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ، هـذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تُقاتِل بين يديه،فنزلت(٢).

وذكر الزمخشري وغيره : « أن النضر بن الحارث كان يَتَّجِر الى بـلاد فارس فيشتري كتب الأعاجم فيحـدث بها قريشاً ، ويقول : إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود ، فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحـيرة ، فيستملحون حـديثه ويتركون استماع القرآن • • • »(٣) •

وكل هذا لا يوقف له على سند يصح(٤) ، فالله أعلم •

ابحاث اللغة :

يشتري لهو الحديث : الاشتراء معروف ، وهو دفع النقد ثمناً لشيء ،

وقد ذكر المفسرون له هنا معنيين :

الأول : هذا المعنى ، وذلك أخذاً بما رُوِيَ عن النضر ابن الحارث من شراء الجواري المغنيات ، أو شراء كتب أخبار الأعاجم ، وجعله القرطبي(٥) « أولى ما قيل في هذا الباب » •

---

(١) الدر المنثور ج ٥، ص ١٥٩ ، وانظر لباب النقول ص ١٨٥ وقد عزاه الى ابن جرير مقتصراً على ذكر الرجل من قريش •

(٢) لباب النقول والدر المنثور نفس الصفحة •

(٣) الكشاف ج ٣ ، ص ٣٨٧ •

(٤) ولعله بسبب ذلك لم يذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره شيئا من هذه الروايات •

(٥) في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ج ١٤ ص ٥٣ •

المعنى الثاني : ان الشراء هنا مستعار بمعنى الاستبدال والاختيار على سبيل المجاز ، والمعنى : يستبدل لهو الحديث ويختاره مكان القرآن الكريم :

وهذا أولى في اختيارنا ، وذلك لأمور :

١ ـ ان روايات سبب النزول لم يصح منها شيء ، فضلا عن الاختلاف الذي عرفته فيما بينها •

٢ ـ انها لو صحت لا يجوز أن تخرج النص عن إطلاقه أو شموله ، وذلك عملا بقاعدة هامة في التفسير هي : « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » • والنص هنا مطلق يصدق على كل لهو من الأحاديث الباطلة الصارفة للانسان عن الحق أو الخير •

٣ ـ ان القرآن الكريم درج على استعمال مثل هذا التعبير في حق الكفار بمعنى الاختيار لا بمعنى الاشتراء المعروف ، نحو قوله تعالى : « اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » • وقوله : « اشتروا الكفر بالايمان » وخير ما نفسر به القرآن كما يقرر علم أصول التفسير هو : « القرآن » فيكون هذا التفسير أولى ان شاء الله تعالى ، وقد أقسم على ذلك المفسر التابعي الامام المعروف قتادة بن دعامة فقال : فيما رواه الحافظ ابن كثير : قوله : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير عِلْمٍ »: «واللهِ لعله لا يُنْفِقُ فيه مالا، ولكن شراؤُه استحبابُه، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع »[1] •

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٤٢ •

اللهــو : كل باطل ألهـَى الانسان عن الخير ، أو عما يعنيه ٠

لـَهْوَ الحديث : إضافة اللهو الى الحديث تحتمل توجيهين :

الأول : أنها إضافة للتبيين، أي التفسير، فهي بمعنى«من» البيانية ، وذلك بأن يضاف الشيء الى الشيء الذي هو منه ، كقوله : جبة صوف أي من صوف ٠

والمعنى : يشترى اللهو الذي هو الحديث ، ويكون المراد بالحديث ، الحديث المنكر لا كل حديث ٠

الثاني : ان الاضافة من اضافة البعض الى الكل ، فهي بمعنى «من» التبعيضية ٠ كما تقول : أ ُعـْطِيكَ خمس ليرات من ثمن الكتاب ٠ أي بعض ثمنه ٠

والمعنى على هذا التوجيه يشتري بعض الحديث الذي هو « أي البعض » اللهو منه،ولفظ الحديث على ذلك مـُسـْتـَعـْمـَل في معناه المطلق الذي يصدق على الباطل وعلى غيره ، وخصصت الاضافة المقصود بكونه بعضاً من هذا المعنى وهو الباطل ٠

وبالتأمل في هذين الوجهين نجد أن الاختلاف بينهما شكلي لفظي ، لا حقيقي يؤدي الى اختلاف المعنى ، بل إن المعنى واحد في نتيجتهما ، لكن الاختلاف في طريق الوصول اليه ٠

لـِيـُضـِلَّ عن سبيل الله : بضم الياء من فعل « يضل » . وهو قراءة أكثر القراء ، والمعنى ليضل غيره عن سبيل الله، أي عن دين الاسلام، أو عن القرآن ، وفي قراءة سبعية متواترة ليضل بفتح الياء ، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو(١) ٠ والمعنى ليضل هو عن سبيل الله بذلك الفعل الشنيع ٠

كـَأ َنَّ في أ ُذ ُنـَيـْه و َقـْراً : أي صمماً مانعاً من السماع ٠

---

(١) تفسير الألوسي ج ٦ ، ص ٤٧٢ ٠

وأصل معنى الوقر : الحمل الثقيل ، استعير للصمم ، ثم غلب استعماله بمعنى الصمم حتى صار حقيقة فيه .

المعنى والأسلوب :

بعد أن بينت الآيات حال المؤمنين مع القرآن من حسن استماعهم له والتقبل لهذه الحكمة والرحمة ، أخذت تصور فريقاً آخر على الضد من المؤمنين ، هذا الفريق وُجِدَ ولا يزال يوجد ، قد غطى الجهل والغرور عقله ، فاذا به « يشتري » يستبدل بالحكمة والهداية الراحمة « لَهَو الحديث » .

أي: سفاسف الامور،وهزل القول، وإثارة الشهوات ومطرب الغناء، ليصد الناس بهذه الاشياء عن سبيل الله ، ويلهيهم بها عما يعنيهم وينفعهم .

وإذا كانت روايات سبب النزول لم تصح من حيث السند فان ما دلت عليه من أساليب خبيثة مسفة لا يتوقف قبوله على صحة الاسناد ، لأنه داخل في مضمون الآية الذي يشمل ما ورد في أسباب النزول ، ويشمل غيره من أساليب تتنوع على مر العصور والأيام .

وقد فسر كثير من السلف « لهو الحديث » في الآية بأنه الغناء :

أخرج ابن جرير[1] عن ابن مسعود أنه سئل عن هذه الآية فقال ابن مسعود :

« الغناء والله الذي لا إله إلا هو ، يرددها ثلاث مرات » .

قال الحافظ ابن كثير[2]:«وكذا قال ابن عباس ، وجابر ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومكحول ، وعمرو بن شعيب ، وعلي بن بذيمة . وقال الحسن البصري : نزلت هذه الآية : « ومن الناس من

---

(1) في تفسيره ج ٢١ ص ٣٩ .
(2) ج ٣ ص ٤٤٢ .

يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم » في الغناء والمزامير » انتهى ·

وورد عن بعض السلف تفسير الآية بما هو أعم من الغناء ، أخرج ابن جرير وابن مَرْدُوَيه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث » قال : باطل الحديث ، وهو الغناء ونحوه ·

وأخرج عن مجاهد قال : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث » قال : هو الغناء وكل لعب لهو ·

وعن عطاء الخراساني رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية ، « ومن الناس من يشتري لهو الحديث » في الغناء والباطل والمزامير ، أخرجه الحاكم عنه في الكنى[1] ·

فكيف نوفق بين أقوالهم في ذلك ؟

الجواب : لا تنافي بين هذه التفاسير على الحقيقة ، لأن من فسر الآية بالغناء لا ينفي دخول غيره في مضمون الآية ؛ لكنه ذكر نوعاً خطيراً من لهو الحديث ، للاهتمام بالتحذير منه ، فتكون الأقوال متفقة في النهاية ، لذلك ورد التفسيران عن بعضهم كما رأيت ، وعليه تدل عبارة الآية ، لأنه أضاف اللهو الى الحديث فيشمل كل ما هو من هذا القبيل ، طبقاً للقاعدة : النكرة المضافة تعم جميع ما أضيفَت اليه ·

فالآية تصور ما درج عليه أعداء القرآن من بعض أساليب الصد عن دين الله الحق من العبث واللهو يغطونها باستغلال الغرائز والشهوات الهابطة يصدون بها عن سبيل الله ، يخدرون يقظة الشعوب ·

ونظراً لغرابة هذا الأمر وكونه مستنكراً لا يليق بالانسان ذكرهم القرآن بقوله : « ومن الناس » فكأنه يقول : على الرغم من هذه الخصال

---

(١) الدر المنثور ج ٥ ص ١٦٠ ·

الباهرة في القرآن فانه يوجد من الناس من يختار لهو الحديث الباطل مكان تلك الآيات،وعَبَّرَ عن هذه المبادلة بالشراء على سبيل الاستعارة(١) تهكماً بهم ، حيث أصبحوا بمثابة من دفع الجوهر النفيس ثمنا اشترى به التافه الخسيس ، لأجل غاية خبيثة خسيسة : « ليُضِلَّ الناسَ عن سبيل الله » ، ليضلهم عن طريق الحق الذي هو طريق الله ٠

وفي هذا التركيب « سبيل الله » ما يدل على عظمة هـذا الطريق وفظاعة جرم المضللين الذين وجهوا سعيهم للصد عنـه ، وليس بـين أيديهم شيء من العلم والبرهان يستندون اليه ، إنما هي أساليب الجهل وسوء الأدب بشعائر الـدين وأهله التي نلحظهـا في أعمالهم على مر العصور ٠٠٠

ويقع قوله تعالى : « بغير علم » موقعاً عظيماً في غرض الآية ، لأنه ليس أحد يصد عن سبيل الله إلا وقد خلع رداء العلم عن نفسه ، لكن شياطين الانس والجن لا يبالون أن يظهروا أفكارهم بطلاء خادع من زعم العلم والفهم ، أو التنطع بما يسمونه حديثاً : النظريات العلمية ، المزعومة ، يجعلونها شَرَكاً أو شِبَاكاًيوقعون بها الناس في الضلالة ، وما هي من العلم في شيء ، انمـا هو استهواء الشهوات لاغراء هـؤلاء المساكين وتزيين الباطل لما اتصف به هؤلاء المضلون من الخبث اتصافاً بالغـاً تميزوا به حتى أصبحوا يشار اليهم ، لـذلك عبر عنهم باسم الاشارة « أولئك » ، أي الـذين اتصفوا بما اتصفوا به من اهانتهم للحق ، وإيثارهم للباطل عليه وترغيب الناس فيه ، وعبر باشارة البعيد لبعد منزلتهم السحيق في الشرارة لذلك قال : « لهم عَذابٌ مُهِـينٌ » أي عذاب عظيم لا يحيط به التعريف ٠

والجزاء من جنس العمل فهو « عذاب مهين » مقابل استهزائهم ،

---

(١) الاستعارة التصريحية كما يسميها علماء البلاغة ٠

لأن من أهان الحكمة وجعلها في موضع الهزء استحق أن يُقابَلَ بالاهانة جزاء وفاقا لما ارتكب من كبير الذنب ·

ثم قال عز وجل :

« وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم » ·

هذه الآية تصور هذا المعاند إذا قرئت عليه آيات القرآن وما في تضاعيفها من مظاهر عظمة الله كما تشير هذه الاضافة « آياتنا » أي : آياتنا الجليلة الشأن، فتوضح إعراضه وحركاته المتكبرة مستخفاً بها، « ولى مستكبرا كأن لم يسمعها » أصبح انتفاخ الكبر مانعاً له من الانتفاع بما سمع. حتى كأنه عديم السمع لها ، « كأن في أذنيه وقرا » أي صمماً مانعاً من السماع ، وهو تعبير مبكت يثير الاحتقار لهذا المتكبر المغرور الذي حجبه الغرور والهوى عن فهم ما يلقى اليه فلا يتأثر بشيء ولا يهش لدعوة الحق وبراهينه ، ولا يقبل عليها ·

« فبشره بعذاب أليم » هكذا بشره ويا لها من بشارة مرة، سماها القرآن بهذا تهكماً واستهزاءاً ، وهو جزاء يليق ويقابل تكبر هذا المتكبر ، وان هذا هو الذي ينجع في المتكبرين المستهزئين ، كما تدل التجارب ، وقد أشارت الآية الى هول العذاب في قوله : « بعذاب » أي ليس له حدود ، يشعرك تنكيره بهوله الذي لا يوصف ، حتى أصبح غير قابل للتعريف ، و«أليم» بلغ الغاية القصوى من الايلام لمن يقع عليه · أعاذنا الله تعالى ·

قال تعالى :

« إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ لهم جناتُ النعيم · خالدينَ فيها ، وَعْدَ اللهِ حقاً وهو العزيزُ الحكيم » ·

سورة لقمان (٨ ـ ٩)

بعد أن ذكر القرآن الكريم عقاب الكافرين المستكبرين عقَّب بثواب المؤمنين العاملين ، وهو أسلوب تربوي حكيم درج عليه القرآن . يذكر البشارة ثم النذارة ، والعقاب يردفه بالثواب ، ليكون الأثر أنجع وأبلغ في النفوس ، فمن لم يخفه الترهيب اجتذبه الترغيب ، ومن لم يجتذبه الترغيب زجره الترهيب ، إلا أن يكون فاقداً للحس لا ينفع فيه ترغيب ولا ترهيب .

وقد قرنت الآية بين الايمان وعمل الصالحات ، وهذه سنة القرآن ، أن يقرن الايمان في مقام المدح بالعمل الصالح ، لأن الله تعالى لا يرضى أن يكون جوهر الايمان النفيس مجرد فكرة أو عقيدة جامدة سكنت النفس ، بل يفرض على عباده أن يترجموا هذا الايمان بسلوكهم ويعبروا عنه ، فالايمان حق الله تعالى على عباده ، وهو دعامة الحياة يعمرها بالروح الكريمة الخيرة .

وقد وعد الله هؤلاء المؤمنين أجزل الثواب « لهم جنات النعيم » ، يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسرات ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

« خالدين فيها » لا يخرجون منها ولا ينقطع نعيمها ، بل هم في رقي وازدياد من النعيم على الدوام كما وردت الدلائل .

ثم أكد الله تعالى هذا الوعد بمؤكِّدَيْنِ في قوله تعالى : وَعْدَ اللهِ حقاً » ، فهذان المصدران « وعد الله » و « حقاً » مفعولا مطلق مؤكدان كما قال النسفي(١): « الأول، مؤكد لنفسه إذ قوله : « لهم جنات النعيم» في معنى الوعد ، فأكد معنى الوعد ب « وعد الله » .

والثاني : وهو « حقا » مؤكد لغيره ، لأن حقاً يدل على معنى الثبات فأكد به الوعد ليستقر المعنى بذلك في ذهن السامع وتزداد رغبته بما أعد الله للمحسنين » .

---

(١) ج ٣ ص ٢٧٩ .

« وهو العزيز » الذي قهر كل شيء ، وذل كل شيء لقدرته •

« الحكيم » في أقواله وأفعاله ، فهو يضع كل شيء في موضعه الملائم •

وهذا يقرر ما سبق به الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين ، حيث إن ذلك مُقْتَضَى العِزَّةِ أي القدرة القاهرة، تُنَفِّذُ ماوعد به المؤمنين وما هدد به الكافرين ، ومقتضى الحكمة كما قال عز وجل : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون » •

قال تعالى :

« خلقَ السموات بغيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ، وألقى في الأرْضِ رَوَاسِيَ أنْ تميدَ بكُمْ ، وبثَّ فيها مِن كل دابّة وأنْزَلنا من السماءِ ماءً فأنبَتْنا فيها مِنْ كلِّ زَوْجٍ كَريمٍ . هذا خَلْقُ اللهِ فَأروني ماذا خلَقَ الذينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلْ الظالمونَ في ضلالٍ مُبين».

سورة لقمان (١٠ ـ ١١)

بحث اللغة :

خلق السموات : الجملة وما عطف عليها خبر آخر لقوله : وهو العزيز الحكيم •

عَمَد : جمع عماد •

ترونها : الضمير للسموات أي ترون السموات ليس لها عمد ، والجملة استئنافية لا محل لها من الاعراب ، وهي استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة ، أي خلق السموات بغير عمد أنتم ترونها ليس لها عمد • كما تقول لصاحبك : « أنا بغير سلاح تراني » •
وقيل: جملة ترونها في محل جر صفة لعَمَدٍ ،وضمير «ترونها»

عائد على قوله « عَمَد » • والمعنى انه عمدها بعمد غير مرئية وهي : إمساكها بقدرته وبهذا التأويل يرجع معنى الجملة الى المعنى السابق •

رواسي : جبالا ثوابت •

أن تميد : أن : أي لئلا بتقدير لام الجر التعليلية ، ولا النافية . أو كراهية أن تميد •

تميد : تضطرب •

بث : نشر ووزع •

زوج : صنف ، أو نوع •

كريم : حسن ، نافع •

بل : حرف اضراب • وتأتي لمعنيين : الاول : ابطال ما قبلها كقوله : جاء علي بل أحمد • الثاني : الانتقال من مسألة ، أو رتبة الى مسألة أخرى، أو رتبة أخرى. وهذا الثاني هو المراد هنا.

المعنى العام :

بعد أن ذكر القرآن أن الله عزيز غالب" على كل شيء حكيم في خلقه ، ذكر هنا دلائل عزته وحكمته في عجائب مخلوقاته ، وذلك لمناسبة وعده سبحانه بالنعيم ، لتأكيد الوعد والوعيد ، وللتمهيد لما يأتي من التوحيد ، وكأنه يقول : وعد الله المؤمنين ذلك النعيم العظيم وعداً قاطعاً ثابتاً يقيناً ، وهو العزيز الذي يغلب كل شيء ولا يحول شيء دون نفاذ إرادته ، الحكيم خالق السموات بغير عمد ترونها •

وقد عرض القرآن في هذه الآية عرضاً واسعاً سريعاً لآيات الله تعالى ، ذكر فيه خمس دلائل من بديع صنعه عز وجل ، يعترف كل أحد أنها من صنعه تعالت عظمته ، ولا ينازع أحد في ذلك ، ولا يدعي أنها صنع غير الله سبحانه :

أولها : « خَلَقَ السموات بغير عَمَدٍ تَرَوْنَها » :

فهذه الجملة وضعت أمام الانسان عالم السموات تلك العوالم العليا وما فيها من الكواكب والنجوم بغير عمد تحملها إنما أمسكها بقدرته وسخرها بعزته ووضعها على نظام دقيق بحكمته حتى انتظم هذا العالم الضخم بأبدع نظام ·

وقد قرر القرآن ذلك ووثقه بأقوى توثيق يلزم المعاند وهو مشاهدة الانسان نفسه « ترونها » فأنتم أيها الناس ترون السماء ومافيها من الكواكب ليس لها عمد ترفعها وتحملها ، على الرغم من أبعادها الفلكية التي تقاس بالسنوات الضوئية ، وعلى الرغم من ضخامة أجرامها ، ولو تبدل شيء منها عن موقعه أو تبدلت طبيعته لاختل نظام الكون ، وانفرط عقده ·

أليس هذا دليلا على القدرة القاهرة والحكمة البالغة التي أحكمت وضع كل شيء في موقعه الذي ينسجم مع تركيب هذا الكون ويتجاوب معه ؟

ثانيها : « وأَلْقَى في الأرْضِ رَوَاسِيَ أنْ تَمِيدَ بكم » :

هذه دلالة من الأرض وإحكام نظامها حتى تصلح للحياة ، وهي مشهد الجبال الراسية الثابتة في مكانها وما لها من أثر في تثبيت الأرض ومنعها من الاضطراب ·

ويصور هذا التعبير مشهد الأرض كأنها سفينة وضع لها ما يثبتها بألطف أسلوب هو قوله : « ألقى في الأرض » ، ثم ذكر لهذه الجبال وظيفة هامة هي تثبيت الارض ومنعها من الاضطراب · وهذا أمر إذا كان العلم الحديث لم يصل الى حقيقته فليس بوسعه أن ينكره ·

ثالثها : « وبث فيها من كل دابة » :

هذه دلالة الحياة بشتى مراتبها وهي صنع إلهي لا يستطيع أن

ينازع أحد فيه • فالكائن الحي في أبسط صوره « الخلية الحية » كائن معقد جداً ، فيه من دلائل الابداع ما يحير العقل ، فكيف بأعلى الكائنات الحية وهو هذا الانسان الذي يتركب من الأجهزة الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى • ثم انتشار هذه الحياة هذا النشر المتناسق فيه دلالة قاطعة على عظمته سبحانه وحكمته •

رابعها : « وأَنْزَلْنا مِنَ السماءِ ماءً » :

هذه دلالة أخرى على عظمته سبحانه وحكمته ، حيث إن إنزال الماء إنما يتم بشروط طبيعية ، يعلم كل انسان أنه لا يقوم بتدبيرها إلا الله ، فهناك كثافة الماء وقابليته للتبخر ، ثم قانون ارتفاع الغاز الأخف من الهواء وهو هنا بخار الماء ، ثم قانون التقطير بعودة البخار الى ماء ، ثم تنظيم الرياح وإيداع الطاقة المختلفة في السحب ، ليتم فيها التلقيح الذي يعمل عملية التقطير • وهذا كله مرتبط بالنظام الكوني العام ، يشهد كل واحد من هذه الأمور بعظمة الخالق المبدع وحكمته سبحانه •

خامسها : « فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ » :

هذه دلالة أخيرة يسردها هنا القرآن ، تبرز عظمة الخالق وحكمته • وهي إنبات أنواع النبات وإخراجها من الأرض ، والعلم يزيدنا اليوم فهماً لما تضمه هذه الجملة من جليل الآيات الالهية :

فهذه الوريقة الخضراء التي نبتت من الأرض نمر بها لا نلقي لها بالاً هي مصنع ضخم يقوم بعمليات معقدة كبيرة ، تعجز عنها مصانع الانسان الضخمة التي يزهو بها ويتكبر ، أين هو المصنع الذي يصنع أبسط هذه المنتجات الزراعية،وكم ذا يكون حجمه لو أُسِّسَ لصنع مادة بدلاً عنشيء منها!؟. فما أعظم القدرةوالحكمة التي أخرجتهذه المصانع تنبثق من الأرض ، لتقدم للحياة بسخاء مادة كثيرة المنافع لنمائها وقوتها وبقائها « من كل زوج كريم » أي من كل صنف مفيد كثير الفوائد والمنافع •

وقد تممت الجملتان الأخيرتان بيان دلائل قدرته تعالى وحكمته ، فقد بينت الجمل الأولى دلائل القدرة الخلاقة ، فهو سبحانه خلق السموات والأرض ، وأصلحها للحياة ، ثم بث فيها تلك الحياة • فبينت الجمل الأولى أنه هو الخالق الحكيم ، فجاءت الجملتان الأخيرتان تكملان بيان تلك القدرة بأنه هو الرازق بعد أن بينت الآية أنه تعالى هو الخالق،فأوضحت الجملتان الأخيرتان دلائل قدرته في الرزق: «وَأَنْزَلْنا مِنَ السماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كريم» •

وقد جاء أسلوب القرآن دقيقاً جداً ، فتجاوب مع المضمون الجديد في هاتين الجملتين ، وعدل بهما عن نسق الجمل السابقة ، لذلك جاءت الجملتان على نسق جديد من التعبير ، هو الالتفات من الغائب الى المتكلم. تناسقاً مع الانتقال الى نوع جديد من الآيات • ثم أشارت الى عظمتها باضافة صنعهما الى نون العظمة : نون المتكلم « نا » لابراز مزيد الاعتناء بأمرهما والتيقظ الى مضمونهما من مشاهد ألفها الناس حتى جعلتهم الإلفة يُحْجَبون عن الاعتبار بما فيها من آياته سبحانه •

« هَذا خَلْقُ اللهِ فأَرُونِي ماذا خَلَقَ الذينَ مِنْ دُونه » ! :

هذا المذكور من الاشياء مخلوق خلقه الله ، لا شك في ذلك عند أحد: المؤمنون والكافرون يقرون بذلك ، حتى الملاحدة الطبيعيون يقرون بذلك اقراراً ضمنياً ، حيث ينسبون ذلك الى الطبيعة ويسبغون عليها صفة ذلك ، وما هو إلا ستر « كفر » منهم للحقيقة الظاهرة ، لذلك وجه اليهم هذا السؤال والتحدي : « فأروني ماذا خلق الذين من دونه » ووجهه اليهم بصيغة الاستفهام تبكيتاً لهم وتهكماً بهم لما اتخذوا من دون الله من أرباب أصنام عبدها الجاهليون والوثنيون قديماً ، أو من طواغيت البشر العالين في الارض يخضع لهم الناس من دون الله في عصورنا الحديثة •

« بَلِ الظالِمونَ في ضَلالٍ مُبين » :

سجل عليهم في هذا أنهم ضالون ضلالاً عظيماً ليس بعده ضلال ، وأتت هذه الجملة الموجزة بألوان من فن التعبير وبلاغته في صورتهم الفظيعة : فجاء بحرف الاضراب الانتقالي « بل » أي انهم ليسوا سفهاء فقط بانحرافهم عن عبادة الله وتوحيده ، بل إنهم ضالون ضلالاً عظيماً. وعبر عنهم بـ « الظالمون » لزيادة فظاعة كفرهم ، إذ تجاوزوا كل الحدود وتعدوها حتى أحاط بهم الضلال إحاطة الظرف بالمظروف ٠

لذلك قال : « في ضلال » أي محدق بهم ، قد غطى عليهم لفظاعته ، « مُبِين » أي مع كونه بيناً واضح البطلان مفضوحاً مكشوفاً ٠

قال تعالى :

« ولقد آتينا لُقمانَ الحِكمَةَ أنْ اشكُرْ لله ومَنْ يَشكُرْ فإنما يشكُرُ لِنَفسِه ومَنْ كَفَر فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَميدٌ ، وإذْ قالَ لُقمانُ لابنِهِ وهو يَعِظُهُ يابُنَيَّ لا تُشْرِكْ باللهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظيمٌ » .

سورة لقمان (١٢ ـ ١٣)

مناسبة الآيات لما قبلها :

لما ان السورة وصفت القرآن بأنه حكيم الآيات فقد ساقت من أخبار الأولين ما يناسب وصف الحكمة هذا ، فجاءت قصة لقمان ترتبط بهذا العنوان الذي عنونت به السورة ، وتناسب ما سبقها مباشرة من الدلائل الدالة على عزته تعالى وحكمته ، مما يوجب توحيده والخضوع له دون سواه والانقياد لتشريعه تعالى ٠

فقد بين في هذه الآيات ومايليها أن توحيد الله تعالى ووجوب طاعته هو ما تتصف به حكمة العقلاء ويدعو بدعوته الحكماء ، وأورد ذلك في ضمن قصة لقمان الحكيم وبيان الحكمة التي علمه الله إياها ، ثم في وصيته لابنه ·

من هو لقمان ؟

كثرت الروايات حول شخصية لقمان واختلفت اختلافاً كثيراً ، فقيل . كان عبداً حبشياً نجاراً ، وقيل : كان من بلاد النوبة بمصر · وروي عن عكرمة أنه كان نبياً ،وعن قَتَادَة : خُيِّرَ بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة [1] · وقيل غير ذلك مما لا نطيل به ·

ومثل هذه المسألة تخضع لقانون أخبار الاسرائيليات ، وحاصله :

١ ـ ان ما ثبت بنص القرآن أو الحديث المرفوع الى النبي صلى الله عليه وسلم بسند مقبول قبلناه وصدقناه ·

٢ ـ ان ما ورد على لسان علمائهم وكان محتملا للصدق لم نصدقه ولم نكذبه ، لكثرة ما وقع من الخلل في نقل علومهم وأخبارهم ، فلا نصدقه خشية أن يكون كذباً ، ولا نكذبه خشية أن يكون صحيحاً فننكر أمراً ثابتاً · وقد ورد في ذلك الحديث الصحيح « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم »[2] ·

٣ ـ لا يمتنع نقل أخبار النوع الثاني للاعتبار والاتعاظ ، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج »[3] ·

وإذا نظرنا الى الأخبار التي نقلت في شأن لقمان الحكيم نجد أنه

---

(١) انظر الروايات في تفسير ابن جرير ج ٢١ ص ٤٣ ـ ٤٤ ، وتفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤ والدر المنثور للسيوطي ج ٥ ص ١٦٠ ـ ١٦٢ ·

(٢) اخرجه البخاري في التفسير ·

(٣) اخرجه البخاري أيضاً ·

لم يأت شيء منها باسناد يقبل عن النبي صلى الله عليه وسلم • ونجد الأقوال المنقولة قد اختلفت فيه اختلافاً كثيراً مما يدل على أن الحدس والظن قد دخل في أخباره ، اللهم سوى اتفاقهم على أنه كان أسود اللون ، كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم(١) عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه « أن لقمان عليه السلام كان أسود من سودان مصر ذا مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة » •

وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء أسود الى سعيد بن المسيب رضي الله عنه يسأله ، فقال له سعيد رضي الله عنه : لا تحزن من أجل أنك أسود فانه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب ، ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً ذا مشافر » •

وأضعف تلك الأقوال قول من زعم أنه كان نبياً ، وقول من قال انه خير بين النبوة والحكمة :

أما القول بنبوة لقمان فانه لم ينقل إلا من رواية جابر عن عكرمة مولى ابن عباس،وجابر هذا هو جابر بن يزيد الجُعْفِيّ ضعيف جداً،حتى قال فيه الامام أبو حنيفة : « لم أر أكذب من جابر الجعفي »(٢) •

وأما رواية أنه «خُيِّرَ بينَ النبوةِ والحِكْمة فاختارَ الحكمة » فهي ضعيفة سنداً ومتناً :

أما السند : فلأنهــا من رواية سعيد بن بشير عن قتادة ، وسعيد ضعيف وقد تكلم فيه بسبب هذا الحديث(٣) •

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٢١ ص ٤٣ ، وانظر الدر المنثور ج ٥ ص ١٦١ •

(٢) انظر ابن جرير وابن كثير ، وجامع الترمذي ج ٥ ص ٧٤١ ، والمغني في الضعفاء بتحقيقنا رقم ١٠٧٩ •

(٣) ابن كثير ، وانظر المغني في الضعفاء رقم ٢٣٥٨ •

وأما المتن : فلأنه من غير المقبول أن يختار أحد الحكمة على النبوة ، فضلا عن أن هـذا ينافي اختيار الله للأنبياء ، وتكليفه إياهم بأعباء النبوة . وقال العلامة أحمد بن المنيِّر السكندري في تعليقه على الكشاف(١) : « وفي هذا بُعْدٌ بَيِّن ، وذلك أن الحكمةَ داخلةٌ في النبوة وقطرة من بحرها ، وأعلى درجات الحكماء تنحط عن أدنى درجات الانبياء بما لا يقدر قدره ، وليس من الحكمة اختيار الحكمة المجردة من النبوة » انتهى .

وإذا كانت الروايات في قصة لقمان على ما عرفنا فقد آل بنا الأمر الى الوقوف عند اخبار القرآن والاقتصار على ما ورد في شأن لقمان من كلام الله تعالى . والقرآن صريح في أن الله آتاه الحكمة فنقف عند ذلك .

وقال الآلوسي(٢) : « ولا وثوق لي بشيء من هذه الاخبار ، وإنما نقلتها تأسياً بمن نقلها من المفسرين الأخيار ، غير أني أختار أنه كان رجلاً صالحاً حكيماً ولم يكن نبياً » .

وتأتي قصة لقمان معبرة عن أسلوب الحكماء في بنيانهم للفروع على أصل تنبثق منه ، لذلك نلحظ بالتأمل فيها أنها تبين نظام الايمان في جملته بياناً يوضح ركيزته التي ينطلق منها ، ثم ما يقتضيه من شعور وُجْدانِيٍّ إيماني وسلوكٍ ديني وخُلُقي .

وركيزة الايمان ونظام الايمان يقوم في حكمة لقمان على قضية يسيرة فسرتها « أنْ » التفسيرية في قوله : « أن اشكر لله » لأن « أنْ » التفسيرية تقع بعد صريح القول أو معناه ، وإيتاء الحكمة تعليمها ، وهذا يتضمن معنى القول .

وفريضة الشكر هذه التي انبثقت منها عقيدة الايمان عند لقمان فريضة يحس بها كل صاحب شعور سليم ، ووجدان إنساني .

---

(١) ج ٣ ص ٣٨٩ .
(٢) ج ٦ ص ٤٧٥ ، وانظر الشوكاني ج ٤ ص ٢٤٠ .

ذلك أن البداهة تفرض عليك إذا أحسن إليك أحد بهدية يسيرة أو احسان أن تحس بميل نفسك اليه وتعبر له عن ذلك بالشكر ، فاذا كان احسانه كبيراً كان الشعور بذلك أعظم والشكر له أكبر ، حتى لا تدري ماذا تقدم لارضائه ، فكيف من يمدك بجميع النعم وأنت مدين له بوجودك وحواسك وسمعك وبصرك وعقلك ، ثم ما سخر لك من الكائنات العلوية والسفلية. إنَّ شُكْرَ هذا المنعم الأعظم المتفضل لهو أكبرُ حق ، وأعظم ما ينفعل به الشعور وتتجه النفس لاداء حق رضوانه بحكم الوجدان الانساني السليم والفطرة البريئة من جحود الطبع الرديء ·

وهذا يدل على عظمة مكانة الشكر ورفيع منزلته في وضع الطبيعة الانسانية كما انه كذلك في حكم الشريعة الربانية وهذا أمر يغفل الناس عنه ولا يرعونه حق رعايته ·

وقد أوضحت الآية أن هذا الشكر وان كان فرضاً يوجبه الشعور بعرفان الجميل فانه مع ذلك كنز يفوز به الشاكر ويحوزه لنفسه :

« وَمَنْ يَشْكُرْ فإنَما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ » :

وذلك لأن الشكر الحقيقي رأس الطاعات وأساسها يستقيم به سلوك الانسان ويصلح ، فيسعد في دنياه ويفوز برضوان الله في آخرته ، لأن كل ما يملكه الانسان من جوارح ومواهب ومتاع دنيوي إنما هو نعمة أعطاه الله إياها ، فالشكر فيها يوجب استقامة التصرف بها وان يتوجه الانسان بها الى الخير ، ويبعدها عن الشر ، فيستقيم بذلك أمره كله ·

وقد أفصح العارفون من قبل عن هذا : قال السري السقطي :

« الشكر أن لا تعصي الله بنعمه » ·

وقال الجنيد : « أن لا ترى معه شريكاً في نعمه » ·

ولخص ذلك بعضهم فقال : « شكر القلب المعرفة ، وشكر اللسان

الحمد ، وشكر الأركان الطاعة ، ورؤية العجز في الكل دليل قبول الكل ٠٠ » ٠

وبالتالي فان الكفر لن يضر إلا شخص الكافر بالذات :

« وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيد » :

لا يضره سبحانه كفر الكافر ، فان الله عز وجل غني بذاته وبعظمته عما سواه ، وهم مفتقرون اليه وهو يمدهم بنعمه ، فهو سبحانه « حميد » ، أي حقيق بالحمد ، مستوجب لأن يُشْكر سواء شكره الخلق أو لم يشكره منهم أحد ٠

فالكافر لا يضر إلا نفسه وكفره لا يغير من حقائق الأمور شيئاً وهكذا تأتي هذه الجملة الكلية « وَمَنْ شَكَرَ فإنما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ومَنْ كَفَرَ فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيد » لتقرر الأمر بالشكر بأسلوب جديد هو أن تغرس في النفس الشعور بضرورة الامتثال لهذا الأمر الكريم بدافع من شعور الانسان بحرصه على مصلحته ، ان لم يستجب لنوازع الفطرة في شكر الله على نعمته ٠

ثم جلت السورة ثمار هذه الحكمة التي أوتيها لقمان وآثارها التطبيقية فذكرت وصيته وموعظته لابنه والوصية للابن خير مظهر للحكمة النافعة لأنها يتوفر فيها للنفس دافع النصح وحب الخير أقوى ما يكون ، حتى ليكون ذلك أقوى من حرص الانسان عليهما لنفسه ، فكيف وهي وصية الأب الرحيم الحكيم الرشيد ٠

وقد قدمت لنا هذه الوصية أصولا جامعة من منهاج الايمان في العقيدة والسلوك ، والأخلاق ، فجات على غاية من الأهمية الى جانب كونها غاية في النصح والتوجيه المحض للخير ٠

وقد أشار القرآن الى فخامة شأن هذه الوصية فصدرها بهذا الظرف « إذ » فقال :

« وإذْ قالَ لُقْمانُ لابنِه وهو يَعِظُه » :

أي اذكر الوقت والزمان الذي صدرت فيه هذه الموعظة الحكيمة ، فان رفعة شأنها بلغت غاية عظيمة حتى سرت الى الوقت الذي قيلت فيه وجعلته يستحق الذكر والتسجيل ، فهي وصية تاريخية يهتم بوقتها فما بالك بأهمية موضوعها ؟ .

« يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بالله » :

هذا أول تفصيل لقاعدة الحكمة التي أوجبت شكر الله سبحانه وتمثلت به يوضح الاساس الاعتقادي لمنهاج الايمان وهو « لا تشرك بالله » وكيف يمكن أن يشكر الله من أشرك معه خلقاً مربوباً لله يسويه بالله تعالى ويعبده معه ولا نعمة لهذه الشركاء إنما النعمة بل النعم كلها من الله عز وجل :

« إنَّ الشِرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم » :

وأيُّ ظلم أكبر من الاشراك في العبادة بين الخالق والمخلوق ، أو التسوية بين الرب الذي منه كل النعم وبين مخلوق لا نعمة له أصلا .

وأي ظلم يظلم الانسان به نفسه ويهينها وهو يُعَبِّدها لخلق مثله يمنحه خضوعه وحبه وانقياده من دون الله الذي كرمه وسخر له ما في السموات والأرض ، لذلك أكد القرآن هذه الجملة بمؤكدَين «ان» في أول الجملة واللام في قوله « لظلم » . وجعل الجملة علة منفصلة اسمية أي مستقلة غير معطوفة على ما قبلها ليكون الأسلوب أقوى وقعاً وأثراً في النفس حيث أتت كل جملة تعطي حكمها بنفسها .

« إن الشرك لظلم عظيم » :

وفي الحديث القدسي عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال : «اني والجن والانس في نبأ عظيم اخلق ويعبد غيري وارزق ويشكر غيري»

أخرجه الحاكم والبيهقي[1] .

وأخرج عبد الله بن الامام أحمد في زوائد الزهد عن الحسن رضي الله عنه قال : قال الله عز وجل : « يا ابن آدم خلقتك وتعبد غيري ، وتدعوني وتفر مني[2] ، وتذكرني وتنسانى[3] ، هذا أظلم ظلم في الأرض » . ثم يتلو الحسن : « ان الشرك لظلم عظيم »[4] .

قال تعالى :

« وَوَصَّيْنَا الإنسانَ بوالِدَيْه حملَتْه أمُّـهُ وَهْناً على وَهْنٍ وفِصالُهُ في عامَيْنِ أنِ اشْكُرْ لي ولوالديكَ إليَّ المَصير . وإنْ جاهَداكَ على أنْ تُشْرِكَ بي ماليْس لكَ بِهِ عِلْمٌ فلا تُطِعْهُما وصاحِبْهُما في الدُّنيا مَعروفاً واتَّبِعْ سَبيلَ من أنابَ إليَّ ثُمَّ إليَّ مَرْجِعُكُمْ فأُنَبِّئُكُمْ بما كُنْتُمْ تعملونَ » .

سورة لقمان (١٤ ـ ١٥)

اللغـــة :

وصينا : أمرنا .

وَهْناً على وهن : أي ذات وهن ، أو تهن وهناً على وهن ، أي تضعف

---

(١) الجامع الصغير للمناوي ج ٤ ، ص ٤٦٩ .

(٢) أي تفر مني بعد إجابتي لدعائك فلا تلبي أوامري ! .

(٣) أي تذكرني في الشدة بالضراعة والرجاء ، وتنساني فلا تتقرب إليَّ في حال السعة والرخاء !! .

(٤) الدر المنثور ج ٥ ، ص ١٦٥ .

ضعفاً فوق ضعف ، فانها لا تزال يتضاعف ضعفها ، والجملة في موضع الحال ·

فِصاله : فِطامه ·

أن اشكر: تفسير لوصينا وقوله « حملته ··· الخ » جملة معترضة بين وصينا وبين الكلام الذي يفسره وهو « أن اشكر » ·

معروفاً : صفة لمفعول مطلق محذوف أي صحاباً معروفاً · ومعنى معروفاً حسناً بخلق جميل واحتمال وبر وصلة ·

مناسبة الآيتين لوصايا لقمان :

أورد القرآن هاتين الآيتين على سبيل الاستطراد بين وصايا لقمان بياناً من الله تعالى لتأكيد وصية لقمان ، بالنهي عن الشرك ، كأنه تعالى قال : وقد وصينا بمثل ما وصى به · وجعل ذلك في موازنة حق الوالدين للمبالغة في النهي عن الشرك ، فانهما يتلوان حق الباري في استحقاق التعظيم والطاعة ، لكن لا يجوز أن يُطاعا في الاشراك أو الكفر بالله ، فما ظنك بغيرهما ، لأن ظلم الشرك عظيم جداً لا يقاومه حق الوالدين في البر والطاعة مهما كان عظيماً ·

وقد ذُكِرَ معنى هذه الآية في موضع آخر من القرآن لتأكيد حق الوالدين ، وان حق الله أوكد منه ، فقال تعالى في مطلع سورة العنكبوت : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » ·

سبب نزول الآيتين :

وأخرج مسلم بلفظه[1] وأصحاب السنن « عدا ابن ماجه » عن سعد بن أبي وقاص أنه نزلت فيه آيات من القرآن · قال : حلفت أم سعد أن

(1) مسلم في الفضائل ج ٧ ص ١٢٥ ـ ١٢٦ من حديث طويل ·

لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ، ولا تأكل ولا تشرب ، قالت : زَعَمْتَ أن الله أوصاك بوالديك ، وأنا أمك وأنا آمرك بهذا ، قال : مكثتْ ثلاثاً حتى غُشِيِ عليها من الجهد . فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها فجعلت تدعو على سعد ، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً » .

قال القرطبي[1] : « والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد ابن أبي وقاص كما تقدم في العنكبوت وعليه جماعة المفسرين » .

ونجد المفسرين يذكرون الحديث في نزول الآيتين من سورة لقمان وفي نزول آية العنكبوت أيضاً . وبناء على ذلك فسر بعضهم قوله : « من أناب إلي » بأنه أبو بكر الصديق لأن سعداً أسلم على يد أبي بكر .

مقاصد الآيتين :

حديث سعد يدل على بعض وسائل الكفار في الصد عن دين الله ، وهي وسيلة التشبث ببعض القيم الفاضلة توصلا الى غرضهم . لكنه تمسك كاذب لأن مَنْ صَدَقَ في رعاية حق الأبوين كان لحق ربه ورب أبويه أشد رعاية .

وقد بين القرآن أن هذا الحق المقدس المؤكد كل التأكيد لا يصح ولا يجوز أن يقدم على فريضة التوحيد الذي هو حق الله على العبيد ، مهما بذل الوالدان من محاولات وجهود : « وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » ، فأشار بقوله « جاهداك » الى أنهما بذلا غاية مافي الوسع ، وهو أمر يؤثر على الانسان كثيراً ، ويزيد وجوب برهما ، لكن لا يسوغ له الشرك بالله أبداً ، أيّ شرك كان ، وهو أمر واضح جداً ، قد بين القرآن سببه في قوله « ما ليس لك به علم » فهو

---

(1) ج ١٤ ص ٦٣ ، وانظر ج ١٣ ص ٣٢٨ .

شيء لا يمكن أن يعرف لأنه لا يوجد ، ولا يمكن أن يوجد حتى يعلم ويدرك ، فهو إذن ليس بشيء ·

ومن ذا الذي يجعل ما ليس بشيء شريكاً لخالق كل شيء ، وأي القيم الفاضلة الصحيحة يحتمل هذا ، فهو أمر لا يقبل الطاعة « فلا تطعهما » لكنه لا يسمح بالاساءة إليهما :

« وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلي ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » ·

هذا هو الخط الاسلامي في وضوحه وسماحته ، إن جريرة الشرك الأكبر كبيرة ، ومجاهدة الابن على اتباعه أكبر وأفظع ، ومع ذلك لاتجيز للابن ترك المصاحبة لأبويه باحسان الى جانب سلوكه سبيل المنيبين الراجعين في أمورهم إلى الله يستعينون به ويحتكمون الى شريعته هذه سبيل الأنبياء والصالحين ، وليصبر الابن وليثبت على محنة أبويه ، فالكل راجع في النهاية الى الله :

« ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » :

وفي هذا التعبير القرآني تهويل لهذا الموقف يثيره الحصر الذي يدل عليه تقديم الخبر « إليَّ مَرْجِعُكُم » والكناية بالإنباء عن المحاسبة والمجازاة : « فأنبئكم بما كنتم تعملون » فانه موقف رهيب جداً ، حسبك منه أن يخبرك الله فيه بأعمالك ، فكيف بما وراء ذلك من حساب ثم من جزاء !! ·

ويستنبط من الآيتين أحكام كثيرة منها :

١ ـ تعظيم حق الوالدين ووجوب برهما ، واحتمال إساءتهما ، والاحسان إليهما على أي دين كانا ·

وقد أكد القرآن الكريم حق الوالدين بعدة وسائل :

فعبر بكلمة « ووصينا » بدلا من أمرنا ، إشعاراً بأن المسألة مفروغ منها تحتاج الى تحريك النفس نحوها · لا إلى الالزام ·

وأكد هـذا الأمر بذكر متاعب الأم أيضاً في قولـه : « حملته أمه وهناً ٠٠٠ » ثم زاد حقهما تأكيداً بقوله : «ان اشكر لي ولوالديك » فقرن شكرهما بشكر اللـه ، فأشعر أنه لعظمته يقـارب حق الله حتى استحق أن يقارن به ، وجعل فعل الشكر متعدياً باللام « اشكر لي » ولم يقل اشكرني ٠

وفي النص دليل عـلى تأكيد حق الأم أكثر من حق الأب ، وعـلى مضاعفة حق الأم ثلاثة أمثال حق الاب ، لأنه زادها خصلتين : « حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله في عامين » ٠ ثم قرر مضمون الآية ورسخه بهذا التذييل : « إليَّ المصير » وهو تذييل كبير الأثر ، يثير في النفس كوامن الرغبة في مثوبة الشكر ، والرهبة من مآل التقصير والاخلال به ٠

٢ ـ ان مدة الرضاع الذي يتعلق به التحريم عامان في أي وقت منها أرضعت المرضعة الصبي صار ابنها من الرضاعة ، ولا يصير ابنها إذا أرضعته بعد أن جاوز سنه عامين وعلى ذلك جمهور العلماء واستنبطوا منه أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لقوله: «وحمله وفصاله ثلاثون شهراً»، فاذا أسقطنا منها عامي الرضاع بقي للحمل ستة أشهر ٠

٣ ـ ان حق الله أعظم الحقوق على الخلق ، لا يتقدم عليه حق ، لذلك قرر العلماء هذه القاعدة « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ولو كانت تلك الطاعة للأبوين ٠

وضابط ذلك ما قاله الامام القرطبي : « طاعة الأبوين لا تراعى في ركوب كبيرة ولا في ترك فريضة عـلى الاعيان ، وتلزم طاعتهما في المباحات ويستحسن في ترك الطاعات الندب ٠ ومنه أمر الجهاد الكفاية ، والاجابة في الصلاة مع إمكان الاعادة ٠٠ » ٠

وإجابة أحد الأبوين في الصلاة إذا كانت نافلة تقدم إجابته إذا لم يعلما أنه في الصلاة ، أما إذا علم وناداه في صلاته فلا يقطـع الصلاة للاجابة إلا لأمر اضطراري ٠

أما إذا كانت فريضةً ، فالصلاةُ الفريضةُ أَولى إذا استغاث به أحدهما لنجدة كانت اجابتها مقدمة ·

وكل هذا يدل على تعظيم حق الوالدين وبرهما حتى لم يبق شيء يقدم عليه ، إلا حق الله رب العالمين ·

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من أحق الناس بحسن صحابتي قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟قال : أمك · قال : ثم من ؟ قال أبوك » ·

وعن أبي العباس عن عبد الله بن عمرو قال : « جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد ؟ فقال : أَحَيٌ والداك ؟ قال : نعم ؟ قال : ففيهما فجاهد » · رواه مسلم ·

ونذكر بحديث أبي هريرة أن جريج كان يتعبد في صومعة فجاءت أمه فدعته وهو في صلاته فاختار الصلاة على إجابة أمه فدعت عليه قالت: اللهم فلا تمته حتى تريه الموسات · قال : ولو دعت عليه أن يفتن لفتن ·· الخ والحديث طويل كما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما ·

قال الله تعالى :

« يا بُنَيَّ إنها إنْ تَكُ مِثقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ في صَخْرةٍ أو في السموات أو في الأرضِ يأتِ بها الله ، إنْ اللهَ لطيفٌ خَبيرٌ. يا بَنَيَّ أقِمِ الصلاةَ وَأْمُرْ بالمعروفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ وَاصبرْ على ما أَصابَكَ إنَّ ذَلكَ مِنْ عَزْمِ الأمور. ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للناس ولا تَمْشِ في الأَرضِ مَرَحاً ، إنَّ اللهَ لايُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ

في مَشْيِكَ وَاغْضُضْ من صوتِك ، إنَّ أنكرَ الأصواتِ لصَوْتُ الحمـــير »

سورة لقمان (١٦ ـ ١٩)

المفردات :

مثقال حبة : أي قدر حبة .

من خردل: نبات معروف له بذور دقيقة جداً .

لطيف : يعلم الخفيات ، أو يحقق ما يريد بأدق الأسباب .

من عزم الأمور: مما عزمه الله وأمر به .

تصعر خدك: الصعر ، داء يصيب البعير فيلوي منه عنقه ثم عبر به عن التكبر لأن المتكبر يعرض بوجهه أي يميله عن الناس ترفعاً عليهم واحتقاراً لهم .

مرحاً : أي فرحاً وتبطراً . قال القرطبي:« وأهل هذا الخلق ملازمون للفخر والخيلاء ، فالمرح مختال في مشيته » .

مختال فخور: الاختيال هو المتكبر بنفسه والفخور : هو الذي يفتخر على الناس . بحظه من المال أو الشرف أو القوة أو غير ذلك .

اقصد في مشيك : توسط فيه .

اغضض من صوتك : « أي انقص منه ، أي لا تتكلف رفع الصوت وخذ منه ما تحتاج اليه فان الجهر بأكثر من الحاجة تكلف يؤذي ، والمراد بذلك كله التواضع » .

المعنى والاسلوب :

يتمم لقمان ما سبق من النهي عن الشرك بتزويد ابنه بأصل جامع

من أصول المعرفة الالهية ، يبين إحاطة علم الله بالخفيات مع القدرة التي لا يفوتها شيء في أي بقعة من العوالم والأكوان مهما كان دقيقاً خفياً ويجعله أيضاً بهذا مستعداً لتلقي الأوامر والنواهي بالامتثال ، فيقول له :

« يا بني إنها ... » :

أي الخصلة والفعلة التي تفعلها من خير أو شر لو بلغت في دقتها أن تكون غاية في الصغر بمثل حبة الخردل في خفة وزنها وصغر حجمها ثم كانت مُحَصَّنة محتجبة في أخفى موضع وأحْرَزِه وهو جوف صخرة صماء ، أو كانت شاردة تائهة في فضاء السماء الفسيح الذي يُقاس سير أبعاده بآلاف الملايين من السنين الضوئية ، أو في أي بقعة من بقاع الأرض لا تبين بين حصاها وثراها ، هذه الخصلة والفعلة اليسيرة التي مثل الذرة البالغة في الصغر الضائعة في ذلك العالم الفسيح الأرجاء لا تغيب عن علم الله تعالى ، ولا تفوت قدرته ، بل سيأتي بها يوم القيامة ويحاسب فاعلها ويجازيه عليها .

فانه سبحانه لطيف يتوصل الى ما يشاء بأدق الوسائل وأخفاها خبير يحيط علمه بأخفى الخفيات ، فمحال أن تفلت فعلة من فعالك أيها الانسان من إحاطة قدرته وعلمه ، ثم من حسابه وجزائه .

« يا بُنَيَّ أقِم الصلاةَ ، وَأْمُرْ بالمعروفِ ، وَانْهَ عن المُنكر ، وَاصبِرْ على ما أصابَكَ ، إنَّ ذلك من عزم الأمور ».

إنها أوامر تُعِدُّ صاحبها لمهمة جليلة تجعله كاملا في نفسه ، بإقام الصلاة، وهو لفظ يدل على معنى كبير، أكبر من مجرد أدائها، بل يعني على وجه الاتقان ومراعاة السنن والآداب والخشوع والحضور ، وهذه هي الصلاة

التي تنهى صاحبهـا عن الفحشاء والمنكر فيصلح بها أن يكون مكملا لغيره كما قال :

« وامر بالمعروف وانه عن المنكر » • وليتسلح لذلك بزاد الدعاة الى الله ودرع الانبياء والمرسلين • « واصبر على ما أصابك » • فالناس أعداء لما جهلوا ، والهوى يعمي ويصم ، حتى يصور المصلح الذي يريد تنقية المجتمع من الرذائل وموبقاتها ، يصوره الهوى لصاحبه بصورة من يحيل الدنيا الى ظلام ، مما يجعل الداعية بأمس الحاجة الى الصبر والمصابرة لتحمل أذى الناس •

وبهـذه الخصلة جمعت الوصية للمؤمن من الخصال ما يكمـله وما يجعله مشعاً بالكمال والخير على غيره فأكدت الأمر بهذا التذييل :

« إنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأُمور » :

لأنها أمور على غاية الأهمية ، عزم الله عـلى عباده أن يفعلوها ، وأكـد الأمر بهـا ، كما يدل حرف التأكيد « إن » ، والتعبير بالمصدر « عزم الأمور » محل اسم المفعول . أي من الأمور المعزوم بها على المكلف . كأنها لشدة تأكيدها أصبحت نفس العزم فقيل : « من عزم الأمور » •

ثم يتجه لقمان الى ابنه يحذره عن خصلتين خبيثتين تفسدان سلوك الانسان وشخصيته وهما : الكبر ، والعجب بالنفس ، فيسوق الكبر في صورة هازئة تليق بقمع هذه النزعة :

« ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للناس » :

صورة داء خبيث يصيب الجمل فيلوي عنقه ، فصور هيئة المتكبر في شموخه بأنفه وكلامه للناس متعالياً مائلا بجانب وجهه بهذه الصورة ، وجعله جملا يعاني مرضاً خبيثاً ، وكذلك المتكبر يعاني شعوراً بالنقص والصَّغار ، يستره بهذه الظاهرة ، ولا يدري أن ذلك يزيده في أعـين الناس صغاراً ومقتاً •

ويعبر عن العجب بقوله :

« ولا تَمْشِ في الأرضِ مَرَحاً » :

أي فرحاً وتبطراً ، وهو خلق ملازم للفخر والخيلاء وقلة المبالاة بالناس ، يفعله مرضى النفوس الذين فقدوا القيم والأعمال النافعة ، فحق لهم أن لا يحبهم الله لأن الله لا يحب كل مختال فخور ، متكبر متعاظم « فخور » يعجب بنفسه يتباهى بما لها من المال أو الشرف أو القوة ويعدد ما أُعْطِيَ ولا يشكر الله المعطي .

وبعد أن نهاه عن الخلق الذميم نهياً يقتلعه من النفس رسم له الخلق الكريم الذي ينبغي أن يتحقق به وهو خلق اللين والسماحة اللذين يبرزان تماماً في هاتين الظاهرتين المشي والكلام :

« وَاقْصِدْ في مَشْيِكَ » :

فالاعتدال في المشية هو ما يكون بين التباطىء والجري ، يدل على طمأنينة النفس وسكونها ، لأن السائر الى مقصده ومهماته لا يتفرغ للتظاهرات الكاذبة من تصعير خد واختيال ، وخفوت الصوت عند الصياح والضجيج لهجة المتأدب الواثق من نفسه المطمئن الى قضيته .

وأكد الأمر بغض الصوت بأسلوب بديع هو تصوير الصياح والصراخ بأقبح صورة :

« إنَّ أَنْكَرَ الأَصْواتِ لصَوْتُ الحَمير » :

صورة منفرة غاية التنفير ، تزيدها بشاعة صيغة الجمع « الحمير » وتوحيد كلمة صوت الذي يدل على صوت هذا الجنس البالغ غاية القبح بسبب ارتفاعه وصخبه .

قال تعالى :

« أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لكُمْ ما في السموات وما في الأَرضِ وَأَسْبَغَ عَليكم نِعَمَهُ ظاهِرةً وباطنةً ، ومن الناس مَنْ يُجادِلُ في اللهِ بغيرِ عِلْمٍ ولا هُدَىً ولا كتابٍ منيرٍ . وإذا قِيلَ لَهمُ اتبعوا ما أُنْزَلَ اللهُ قالوا بَلْ نتبعُ ما وَجدْنا عَليهِ آباءَنا أَوَ لوْ كانَ الشيطانُ يدعوهُمْ إلى عَذَابِ السَّعير ».

سورة لقمان (٢٠ ـ ٢١)

اللغـــة :

ألـم : الهمزة للاستفهام الانكاري ، تفيد النفي ، دخلت على لم النافية فأفادت الاثبات ، لأن نفيَ النفيِ إثباتٌ ، أي قد تحققتْ رُؤْيتكم .

سخر : ذلّل .

أسبغ : أتم .

أَوَلَوْ : فيها محذوف ، أي أيتبعونهم في كل حال من الأحوال ولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير .

مناسبة الآيات لما قبلها .

هذه الآيات رجوع الى سنن ما سلف قبل قصة لقمان من خطاب المشركين وتوبيخ لهم على الاصرار على الشرك مع مشاهدتهم دلائل التوحيد ، هكذا ربط بعض المفسرين بين الآيات وبين ما قبلها . كذا ذكروا .

وفي رأينا أن ثمة مناسبة خاصة أقرب من ذلك هي أن هذه الآيات

تقرير لما اشتملت عليه قصة لقمان من الشكر لله وعدم طاعة الوالدين في معصيته تعالى .

المعنى والأسلوب :

افتتحت الآيتان بذكر نعمه تعالى وأنها شاملة متنوعة ، مما يوجب شكره تعالى وتوحيده ، ثم بينت جمود بعض الناس على تقليد آبائهم في الشرك مما أوضح القرآن في أثناء قصة لقمان أن لايسوغ لأحدٍ أن يتبع فيه أحداً ثم استدل القرآن بالشواهد الكونية على بطلان هذا التقليد ، ووجوب اتباع دعوة التوحيد التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا ما تقصد إليه الآيات من هنا حتى الآيات الخاتمة للسورة :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً ... » .

ونلاحظ في أسلوب القرآن أنه في أثناء عرض هذه الدلائل يُصَرِّفُ الوعد والوعيد، وذلك إلزاماً بالحجة بكل استدلال منها، وتسجيلا على المعاندين مخالفتهم لكل دليل صحيح، من الكون والسماوات والأرض وأنفسهم ، وأن كل دليل منها كاف لوجوب الامتثال ، يستحق مخالفه ومعانده أليم العذاب ، فكيف بمن جحد كل الدلائل ، وكفر بكل تلك النعم .

وهذا لون من طريقة القرآن في تصريف الوعيد والوعد كما قال : « وصرَّفْنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون » .

ومن لم يتنبه لهذا المقصد الفني الجليل لم يفقه موقع عبارات الوعد والوعيد والاشارات التي تخللت الآيات في هذه السورة .

وقد عرضت الآية الأولى لنعمة الله في قاعدة علمية معجزة هي تسخير ما في السموات ومافي الارض ، هكذا بهذا الشمول لآفاق السماء وما فيها ، والأرض وأكنافها ، كل هذا مسخر مُسيَّر على وجه يُحصِّلُ منافعكم أيها الناس ، ويخدمكم بالمجان دون أن يكلفكم شيئاً أو أن تدفعوا له ثمناً أو أجراً .

هذا هو كلام الله يواجه الانسان بهذه الحقيقة في وقت كان هذا الانسان على شتى أديانه ومعتقداته ـ ولا يزال كثير من أبنائه حتى الآن ـ يعتقدون أن الشمس والقمر والنجوم تتصرف في شؤونهم وتؤثر عليهم ، حتى قد وجدت أمم تعبد الأفلاك والكواكب، بل وجدت فلسفات تؤمن بأن العالم تتصرف فيه عقول عشرة متمثلة في أفلاك عشرة ، زعمها اليونان ٠٠!!

إنه إعجاز القرآن كلام الخبير بهذه الأكوان ، يسبق في عصور الوثنية وعبادة النجوم يسبق عصر الفضاء ، حيث لا يقرر إمكان التسلق الى هذه الكائنات العالية في السماء ، بل يقرر أنها مسخرة تجري على وفق منفعة الناس وخدمتهم ، ويأتي تقدم العلم يخضع أمام هذا التعبير الدقيق العميق ، حيث يكشف الكثير من آثار هذا التسخير ٠

لقد عرف العلم أ نالنظام الفلكي كله يقوم على مراعاة أوضاع دقيقة كثيرة جداً لا بد منها لكي يمكن للحياة أن توجد وتستمر على هذه الأرض :

فالشمس في طاقتها الحرارية الضخمة تقع على بعد مناسب جداً لمصلحة الانسان والحياة ، لو تقدمت عليه لاشتد الحر حتى يحرق ما على الارض ولو تباعدت لاشتد البرد حتى يقضي الجمد على الأحياء ٠

والقمر المنير الجميل يدور في فلك معين حول الارض لو اقترب الى النصف مثلا لأدى الجزر والمد أن تغسل مياه البحر أرض المعمورة كل أسبوع مرتين وتغمرها بالمياه ولو تضاعفت مسافته ٠٠٠ أو اختلت نسبة الاكسجين ٠٠ لأدى ذلك الى فناء الحياة وزوال هذا الانسان المتكبر المغرور ٠٠

أكوان عظيمة جعلها الله تعالى مسيرة على وفق مصلحتكم قابلة لاستفادتكم منها تشهد بقدرته العظيمة القهارة وحكمته المدبرة ، شهادة لا مناص من الاذعان لها والاستسلام لها ، ونعم كثيرة متنوعة لا تعد

ولا تحصى ، أفاضها عليكم ، تامة تحيط بكم من جميع الجهات ، ظاهرة تحسونها بالمشاهدة كالسمع والبصر واللسان والاغذية والاكسية ، وباطنة خفية كالمواهب العقلية والعاطفية ، وما في داخل الانسان من أجهزة تعمل دائبة ، وقوى كونية كثيرة ينتفع بها وهو لا يدري من أمرها شيئاً ..

هل يبقى بعد ذلك كله شك لمرتاب في وجوب الاخبات له وحده سبحانه وتوحيده ، وهو رب هذه النعم كلها لا رب سواه .

« ومنَ الناسِ مَنْ يجادِلُ في الله بغير علمٍ » :

لكن مع هذا كله يوجد فريق من الناس لا يذكرون إذا ذُكِّروا بهذه النعم ولا يشكرون إذا عرفوها ، يجادلون بالباطل عناداً محضاً لا مستند لهم ولا حجة ، يجادلون بغير علم . هذا هو وضع كل المجادلين ليس لديهم علم حقيقي ألْبَتَّة ، وإن كانوا قد يزخرفون جهالتهم أو جاهليتهم بألوان من المخادعة والمغالطة يسمونها نظرية ، أو علماً أو تقدماً ، وما هي من العلم في شيء ، ولا من الهدى الالهي المعصوم عن الخطأ والزلل ، ولا تستند الى استنباط من كتاب سماوي صحيح ينير السبيل ويبدد ظلمات الوساوس والأوهام .

غاية ما عندهم إذا دُعوا الى اتباعِ الحق الصريح الصحيح الذي أنزله الله أن يتشبثوا بتقاليد فاسدة وجدوا عليها آباءهم :

« بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عليه آباءَنا » :

هنا يبرز منهج المعاندين ومنهج الاسلام ، فالمعاندون يتحجرون على التقاليد ويستأسرون لها من غير وعي ولا فهم ولا سند سليم . منطق مناقض للعقل ولشواهد الكون الناطقة بعظمة الله ووحدانيته وللنعم السابغة التي تفرض عليهم شكر المنعم بها ، والاسلام يسعى لاعتاقهم من هذا الجمود الى حركة الفكر وانطلاق العقل انطلاقاً يتجاوب مع الحقيقة التي يشهد بها البرهان الكوني ويشكر نعمة الله تعالى .

ومن ثم يلقي عليهم هذا السؤال يبطل به مستندهم هذا إبطالا فيه التخويف من أن يؤدي بهم تلبيس الشيطان الى أعظم المخاطر ، لأن المقلد المتحجر لا يدري الى أين يسير به من يقلده • لذلك قال :

« أَوَلَوْ كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير » :

أي هل يتبعون آباءهم في كل حال من الأحوال ، ولو في حال دعوة الشيطان لهم وقيادته إياهم الى عذاب السعير الملتهب •• ؟ هذا هو مآل خطتهم لو تدبروا وعقلوا ••

قال تعالى :

« وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلى الله وهو مُحْسِن فقد اسْتَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثقى وإلى الله عاقبةُ الأمور ومَنْ كفر فلا يحْزُنْكَ كُفرُه إلينا مَرجِعهُمْ فنُنَبِّئُهُمْ بما عملوا إن الله عليم بذاتِ الصُّدور • نُمتِّعُهُمْ قليلا ثمَّ نضطرُّهم إلى عذابٍ غليظ . »

سورة لقمان (٢٢ ـ ٢٤)

اللغـــة :

يُسْلِمْ وَجْهَهُ الى الله: أي يسلم نفسه اليه، كما يسلم المتاع الى الرجل، والمراد الاستسلام لله تعالى والتفويض الكامل إليه •

العروة : ما يُعَلَّق به الشيء •

الوثقى : تأنيث الأوثق ، على زنة فُعْلَى •

ننبئهم بما عملوا : نخبرهم ، وهو كناية عن مجازاتهم •

غليظ : الغلظ وصف للأجرام ، والمراد هنا عذاب شديد ثقيل على المعذب •

المعنى والأسلوب :

بعد أن بين القرآن فيما سبق ما نطقت به شواهد الكون وسوابغ النعم وسخف موقف الكفرة المستنكر في مقابلتها ، يبين القرآن في هذه الآيات مآل كل فريق من المؤمنين والكافرين ونتيجته ، وقد عبر عن المؤمن بقوله :

وَمَنْ يُسْلِمْ وجْهَهَ الى اللـه » :

فالمؤمن هنا موقن بما أكرمه الله به من تسخير الأكوان وسوابغ النعم ففوض أموره كلها الى الله تفويضاً كاملا يرجع في كل شيء منها الى شريعته يمتثلها ويتمثلها حتى صار في موقفه هذا من ربه موقف من سلّم الشيء لصاحبه يتصرف فيه كيف يشاء ، كذلك المؤمن جعل التصرف في نفسه مرتبطاً بمرضاة الله تعالى ، وهو في ذلك محسن للعمل ليس أمره مجرد فكر نظري ، فالاسلام اعتقاد وعمل يترجم هذا الاعتقاد ويحققه • وبه يفوز هذا المؤمن ويصل الى مطلوبه كما قال :

« فقد استمسك بالعُرْوَةِ الوُثْقَى » :

فهو كمن نزل من جبل شاهق وهو متعلق بحبل متين لا ينقطع ، فهو واصل الى سفح السلامة لا محالة • أو كما قال ابن كثير :

« فقد أخذ من الله موثقاً ألا يعذبه » •

« والى اللـه عاقبة الأمور » :

والى الله وحده لا إلى غيره « عاقبة الأمور » فيثيب الطائعين ويجزل لهم العطاء •

« وَمَنْ كَفَرَ فلا يَحْزُنْكَ كُفْرُه » :

فانه أهون من أن تأسف عليه أو يأسف عليه أحد طالما جحد كل تلك الآيات وتنكر لنعماء الله وكفر بها ، وهو في الآخرة راجع الى الله وحده ، لا رجوع له الى غير ربه ·

« إلينا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بما عملوا » :

نحاسبهم ونجازيهم بسيئات أعمالهم ولن تفوت منهم خفية لا يُجازَون عليها ، لأن الله تعالى عليم بأخفى خفيات الانسان التي أصبحت لشدة خفائها كأنها ذات الصدر ، محال أن تخرج منه فالله يعلمها ، يحاسبه عليها « ان الله عليم بذات الصدور » ·

« نمتعهم قليلاً » :

متاعاً قليلا ، هو انتفاعه التافه في دنياه ، ثم نضطره نلزمه عذاباً شديداً لا ينفك عنه ولا يزول ·

وقد عبرت الآية عن تفاهة ما يغتر به الغافلون من انتفاع وتلذذ بعاجل الدنيا في قوله تعالى « نمتعهم قليلاً » ، وأشارت الى هول مصيرهم الرهيب المحتوم الذي غفلوا عنه بهذا المتاع التافه في قوله: «ثم نضطرهم» أي نلزمه عذاباً شديداً ·

وقد شبه إلزام العذاب وإرهاقهم إياه باضطرار المضطر الى الشيء لا مفر له منه ثم أكد ذلك وضاعف هوله في قوله « عذاب غليظ » أي فظيع صعب مشق على النفوس ، وعبر عنه بقوله « غليظ » تشبيهاً له بالجرم الكثيف لا يطيق صاحبه له رفعاً ولا دفعاً بل هو لازم لا يخرج من تحته ·

قال الله تعالى :

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السموات والأَرْضَ ليقولُنَّ اللهُ قُلْ الْحَمْدُ للهِ بلْ أَكْثَرُهُمْ لايعلمون . للهِ ما في السموات والأَرْضِ إن الله هو الغنيُّ الحميد . ولو أَنَّ ما في الأَرْضِ من شجرةٍ أقلامٌ والبَحْرُ يَمُدُّهُ

مِن بَعْدِهِ سبعةُ أَبْحُرٍ ما نَفِـــدَتْ كَلِماتُ اللهِ إن اللهَ عزيزٌ حكيمٌ .
ماخلقُكمْ ولا بعثُكمْ إلا كنَفسٍ واحدةٍ إنّ اللهَ سميعٌ بَصير » .

سورة لقمان (٢٥ ـ ٢٨)

تبـين هذه الآيات عظمتـه تعالى وعظمـة قدرته وصفاته ، وان المشركين يعترفون بذلك حين يُوَاجَهون بدلائل الكون. فيقول الله تعالى مخبراً نبيه خبراً مؤكداً بالقسم والله ان سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ، ولا يسعهم أمام عظمة هذا الكون ودلالته الباهرة على خالقه أن ينازعوا ويخالفوا ، بل ينطقون بحكم فطرتهم التي تبرز هنا وتغلب نوازع المكابرة فيقولون الله خلق السموات والأرض ، أي وحده لا شريك له في هذا الخلق والابداع والتدبير المحكم ، ثم مع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ٠

وهذا الذي أخبر عنه القرآن هو دأب الكفرة في كل عصر ،فالملاحدة يقرون في الواقع بالخالق المبدع لكنهم يسترون ذلك الـذي تنطق به فطرتهم وترغمهم عليـه ، بمخادعات كلامية فارغـة حيث يسمونـه « الطبيعة » أو « عوامل مؤثرة مصادفة » ٠٠ أوجدت الحياة ٠٠٠؟ وإذا سألتهم عن هذه الطبيعة أو غيرها مما اخترعه باطلهم هـل هي قادرة أم لا ، عليمة أم لا ، متصفة بالحياة بالحكمة بالارادة ٠٠ الخ كان لا بد من الجواب بأنهـا تتصف بكل ذلك وغـيره مما لا بد منه كي يصدر عنها الخلق ٠

وهكـذا هم يعترفون في قرارة نفوسهم بخالقهم سبحانه ، لكنهم يسترون ذلك بالمغالطات ، ومن هنا سمي الكافر كافراً ، لأنه يغطي الحقيقة ويسترها في ضميره ، ويحاول التغطية عليها أمام الناس بجدله الباطل ٠ وان كان ملاحدة العصر أشد كفراً من المشركين ، فان المشركين

قد اعترفوا بالله ، لكنهم أشركوا به ، فكفر هؤلاء الملاحدة وجحدوا ربهم بالمرة ، فكانوا أعمق كفراً وأوغل في الجحود ...

وإزاء هذا الموقف الذي تضيع فيه تُرّهات المبطلين أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعقب على جوابهم هذا بقوله :

« قل الحمد لله » :

أي الحمد لله إذ قامت الحجة عليكم باعترافكم ، أو الحمد لله على وضوح الحق في براهين السموات والأرض واستقراره في طبائع النفوس .

وقال الامام النسفي(١) : « هذا إلزام لهم على إقرارهم بأن الذي خلق السموات والأرض هو الله وحده ، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر ، وأن لا يُعْبَدَ معه غيره » .

وهذا تفسير دقيق يلحظ صلة الآيات بما سبقها من حكمة لقمان التي كان أساسها الشكر لله سبحانه وحده ، إلا أنه جعل الجملة بمعنى الأمر : أي احمدوا الله وحده ، وهو خلاف ظاهر العبارة .

« بل أكثرهم لا يعلمون » :

هذا الاضراب اضراب انتقالي قصد به الانتقال عن مجادلتهم وإعلان انتصار الحق عليهم انتصاراً باهراً كما ينبىء عنه هذا التعقيب « الحمد لله » . الى تعقيب آخر يحكم على وضع هؤلاء الكفرة بأن « أكثرهم لا يعلمون » .

أي لا ينظرون و لايتدبرون حتى يعلموا أن خالق هذه الاشياء تجب له العبادة « دون غيره »(٢) .

ومن هنا كانت دعوة الاسلا محريصة على توسيع آفاق هذا الانسان

---

(١) ج ٣ ص ٢٨٣ .
(٢) بتصرف يسير عن الشوكاني ج ٤ ص ٢٤٢ .

وذخر القرآن بدلائل الكون الفسيح في سبيل تمكين هذه الأصول الاعتقادية في القلوب ٠

وهكذا يأتي القرآن في دعوته مستنداً الى العلم متحالفاً معه مبنياً عليه ٠

ثم قال سبحانه :

« لله مافي السموات والأرض » :

فقرر بهذا انه وحده يملك العوالم كلها العلوية المعبر عنها بالسموات والسفلية المعبر عنها بالأرض فهو يملكها وحده « أي فيجب أن يعبده وحده دون سواه». وهذا يوجب أن يحمد ويشكر وحده دون سواه. وهذه حقيقة ثابتة له سبحانه لا يغيرها شيء لذلك عبر بالجملة الاسمية التي تفيد الدوام والثبات ٠

ثم ذيل بقوله :

« إن الله هو الغني الحميد » :

هكذا على سبيل الحصر والتأكيد ، أي هو وحده الغني عما سواه ، وكل شيء فقير إليه سبحانه ، الحميد المحمود في جميع ما خلق وما شرع ، وهو وحدَه المحمودُ في الأمور كلها ٠

قال تعالى :

« وَلَوْ أَنَّ مافي الأرْض مِنْ شجرةٍ أَقْلام" والبحرُ يَمُدُّه مِنْ بَعْدِهِ سبعةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ إن اللهَ عزيز" حكيم » ٠

سبب نزول الآية :

روي في سبب نزول الآية(١) ان المشركين قالوا ان هذا القرآن سينفد فأنزل الله تعالى الآية ٠

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٥١ ٠

وروي أن أحبار اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة « يا محمد أرأيت قولك « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » إيانا تريد أو قومك ؟ فقال : كلاكما ، فقالوا : ألست تتلو فيما جاءك انا قد أوتينا التوراة » ٠

أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم ٠ وسنده ضعيف ٠

وهو مشكل أيضاً لأنه يقتضي أن الآية مدنية ٠ قال ابن كثير(١) : « والمشهور أنها مكية » ٠

اللغـــة :

والبحر : المقصود به البحر المحيط لأنــه المراد عنــد الاطلاق والواو للحال ٠ وجملة يمده في محل رفع خبر للبحر ، وجملة البحر يمده في محل نصب حال ٠ هذا على قراءة رفع البحر ٠

وقرىء « البحر » بالنصب ، عطفاً على محــل ما في «انما » وهو اسم أن ، وجملة « يمده » في محل رفع خبرها ٠

سبعة أبحر: المقصود بالسبعة هنا الكثرة لا الحصر بهذا العدد،ولا أن هناك سبعة أبحر محيطة بالعالم كما يقول من تلقى عن الاسرائيليات.

ولو كانت هــذه الأبحر مقصودة كان الظاهر تعريف « سبعة أبحر » لأن هذا ما يعبر به عن الشيء المعلوم أو المعهود.

كلمات الله: الكلمة في اللغة معروفة مفرد الكلام ٠ أما المقصود بها هنا فقد اختلفت آراء المفسرين فذهب جماعة منهم النسفي وغيره الى أنها عبارة عن معلوماته ، لأن الكلمات تعبر عن العلم ٠

وقال ابن كثير : « كلمات اللـــه الدالة عــلى عظمته وصفاته وجلاله » ٠

---

(١) تفسير ابن كثير الموضع السابق ٠

واختار القرطبي وتابعه الشوكاني أن يكون المراد بالكلمات هنا كلام الله الذي هو صفته سبحانه أخذاً بظاهر العبارة وتوافقاً مع سبب النزول ٠

ونختار في هذا والله أعلم قول النسفي وابن كثير وهما في الحقيقة قول واحد ، لأن علم الله تعالى داخل في قول ابن كثير في صفاته تعالى وقول ابن كثير داخل أيضاً في علم الله تعالى وقول ابن كثير أكثر تفصيلا في بيان المعنى ٠

أما اختيار القرطبي فانه وان كان موافقاً لسبب النزول لكنه لا يصلح الاعتماد على هـذا السبب هنا لما وقـع فيه من ضعف الأسانيد واضطراب الروايات وظاهر الكلمة وان كان ما ذكره لكنه لما أوقعه جمعاً كان الأظهر انه لم يرد به صفة الكلام ، بل كان المعنى ما تدل عليه الكلمات من علمه تعالى وعظمته وصفاته وجلاله »(١) ٠

المعنى والأسلوب :

لما ذكر سبحانه أن له مافي السموات والأرض وانه وحده الغني الحميد أتبعـه بما يدل عـلى غاية عظمتـه وصفاته العلية وأسمائه الحسنى وعلمه العظيم سبحانه فقال :

« ولو أنَّ مافي الأرضِ مِنْ شَجَرةٍ أقلامٌ ٠٠» :

فعرض أمام الانسان مشهداً كونياً واسعاً يقرب للانسان المحدود سبيل معرفة مالا حد له ولا نهاية ٠ فعرض الدنيا وكأنها قد تحولت كلها الى أدوات للكتابة والى كُتَّاب ، فالشجر قد بُرِيَ أقلاماً ، والبحر أصبح مداداً ، يمده من ورائه أبحر كثيرة ، وهذا يعني أن الخلق كلهم

---

(١) ولا يدفع هذا ما ناقشه الشوكاني في تفسيره لان الجمع وإن أريد به المفرد كما ذكر ، لكنه يظل خلاف الظاهر ، ولا حاجة بنا هنا الى ذلك ٠

أصبحوا كتبة يكتبون كلماته الدالة على علمه وعظمته وصفاته وجلاله، ومع ذلك فلو تحقق ذلك كله لما نفدت كلمات الله تعالى ولنفد المداد وذابت الأقلام ٠

وقد عرض القرآن هذا المثل في تصوير بديع ، فعبر بقوله :

« مافي الأرض من شجرة » :

لتفيد كلمة « ما » عموم كل الأشجار التي في الأرض ، وقال : « من شجرة » على توحيد شجرة ، لأنه أريد تفصيل الشجر شجرة شجرة حتى لا يبقى من الشجر ولا شجرة واحدة إلا وقد بُرِيَتْ أقلاماً ٠

وعبر بقوله:«وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ».

مع أنه كان المتوقع أن يقول « البحر مداد » كما قال : « مافي الأرض من شجرة أقلام » لكن استغنى بقوله « يمده » عن ذكر المداد ، الى جانب ما أفاده الفعل « يمده » من تصوير الامداد واستمراره بأسلوب أعطى الصورة حركة مناسبة لعملية الكتابة الضخمة المستمرة ٠٠

ثم عبر في النتيجة بقوله « ما نفدت كلمات الله » فأوثرت «كلمات» وهي جمع قلة بدلا من أن يقول « كلم الله » وهي جمع كثرة ، إشارة الى معنى جليل ، هو أن القليل من كلامه تعالى لا تفي بِكِتَابَتِهِ البحار فكيف بِكَلِمِهِ كُلِّهِ٠ وأنى لهذا العالم المخلوق الفاني أن يحيط بشيء من حقائق صفاته تعالى وكمالاته ٠

« إن الله عزيز » :

غالب على كل شيء لا يعجزه سبحانه شيء « حكيم » لا يخرج عن علمه وحكمته شيء فلا تنفد كلماته وحكمه ٠٠

وهذا كله كما سبق في آخر سورة الكهف من قوله تعالى « قل لو كان البحرُ مداداً لكلماتِ ربي لَنَفِدَ البحرُ قبل أن تَنْفَدَ كلماتُ ربي ولو جِئْنا بمثله مَدَداً » ٠

غير أن في آية لقمان مزيد تفصيل وتصوير لعملية الكتابة . وفي سورة الكهف زيادة فائدة كثرة المداد بقوله « ولو جئنا بمثله مددا » أي كلما نفد جئنا بمثله وهكذا ..

ثم بين القرآن أثراً من آثار تلك العظمة التي تحيط بها كلمات يستغرق مدادها البحار فقال سبحانه :

« ما خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكُمْ إلا كَنَفْسٍ واحِدةٍ إنَّ اللهَ سميعٌ بَصيرٌ » .

أي ما خَلْقُ جميعِ الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة الى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة الجميع هين عليه ، وفي هذا الكلام على وضوحه إيجاز كثير ، وأصلُه : إلا كخلق نفس واحدة وبعث نفس واحدة ، فحُذِفَ المضافان واجتزيء عن التكرار .

وفي هذا إشارة الى فرط يسر المسألة عليه ، لأن من بلغ من عظمته ما وصفته الآية السابقة لا يشكل عليه خلق الخلائق وبعثهم ، كيف وكل ذلك عنده بمثابة خلق نفس واحدة وبعثها ، وهذا يفيدنا زيادة معرفة لعظمته سبحانه إذ يستوي في قدرته القليل والكثير ، لأنه لايحتاج في إيجاد شيء إلا توجيه الارادة له : « إنما أمرُه إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له كُنْ فيكون» . ولايأمر بالشيء إلا مرة واحدة قليلا أو كثيراً : « وما أمرُنا إلا واحدةٌ كلمحٍ بالبصر » ، فيكون ذلك الشيء ، لا يحتاج الى تكرر الأمر وتوكيده .

وهنا تبرز مناسبة قوله :

« إن الله سميع بصير » :

قال ابن كثير : « أي كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم ، كسمعه وبصره بالنسبة الى نفس واحدة ، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة » .

قال تعالى :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ في النهارِ ويولِجُ النهارَ في اللَّيْلِ وسخَّرَ الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجري إلى أجلٍ مُسَمّىً وأَنَّ اللهَ بما تعملونَ خبير . ذلكَ بأنَّ اللهَ هو الحقُّ وأنَّ مايدعونَ من دونه الباطلُ وأنَّ اللهَ هو العليُّ الكَبيرُ ».

(سورة لقمان (٢٩ ـ ٣٠)

المفردات :

يولج : يدخل .

كل : أي من الشمس والقمر .

مسمى : معين معلوم .

المعنى والأسلوب :

يستشهد القرآن بمشهد كوني لنعمة عظيمة من نعم الله : هي تبادل الليل والنهار ودخول أحدهما في الآخر ، كلما أقبل المساء وأقبل الصباح . مشهد عجيب يتكرر دائماً على غير اختلال واضطرابْ ، لكن الالفة والتكرار حجبت الناس عن الاعتبار ، فعرضته الآية بأسلوب تصويري فيه حركة التجديد والابداع في هذا التعبير «يولج» و «يولج» ثم ذكر القرآن ظاهرة أخرى يرى الناس آثارها :

« وسخر الشمس والقمر كل يجري الى أجل مسمى » :

وهي آية كبيرة تدل على عظمة الله تعالى وعلمه ، حيث قدر لهما الفلك الذي يناسب دورة كل واحد ، فهو يجري الى أجل مسمى ، الى

الوقت المعلوم عنده سبحانه ، وهو يوم القيامة أو الى الوقت الذي تنتهي فيه دورة كل واحد منهما ليبدأ دورة أخرى : الشمس الى آخر السنة ، والقمـر الى آخر الشهر • وهـذا هو الأقوى هنا ، لمناسبة الاستشهاد ولقوله تعالى : « ألم تر » •

« وأن الله بما تعلمون خبير » :

هذا كقوله: « ألمْ تعلمْ أنَّ اللهَ يعلمُ مافي السماواتِ والأرضِ »، فهو الخالقُ المدبرُ العالم سبحانـه • وتبرز هـذه الحقيقة الى جانب الحقيقتين السابقتين حقيقة مسلمة ، لأن مَنْ قَدَّر ذلك التقدير لليل والنهار ودورة الشمس والقمر كان ولا شك عالماً بخفيات الأمور محيطاً بها علماً ، فأصبحت حقيقة ثابتة لا تحتاج الى برهان لذلك قال :

« وأن الله بما تعملون خبير » •

« ذلك بأنَّ اللهَ هو الحق » :

ذلك النظام الكوني البديع في إيلاج الليل في النهار وتسخير الشمس والقمر قائم بسبب القيوم الذي قامت به العوالم ، فالله هو الغني عمن سواه وكل شيء في العالم مفتقر إليه ، قائم باقامة الله إياه ، فهو الذي يقيم الكـون وهو الـذي يحفظـه لا غـيره سبحانـه ، وكـل محتاج إليه :

« وأنَّ ما يدعونَ من دونه الباطلُ » :

وليس شيئاً غير الباطل :

« وأن الله هو العلي » :

الذي لا نهاية لعلو عظمته سبحانه فهو وحده العلي « الكبير » الذي هو أكبر من كل شيء ، فكل شيء حقير خاضع له سبحانه •

قال تعالى :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تجري في البحرِ بنعمةِ الله لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إنَّ في ذلك لآياتٍ لكلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ . وإذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مخلصينَ له الدينَ فلما نَجَّاهُمْ إلى البَرِّ فمنهم مُقْتَصِدٌ وما يَجْحَدُ بآياتِنا إلا كُلُّ خَتَّارٍ كفورٍ » .

سورة لقمان (٣١ ـ ٣٢)

المفردات :

الفلك : بضم الفاء وسكون اللام وفي قراءة بضم اللام أيضاً وهو السفينة يطلق على الواحدة فيذكر ويكون جمعاً فيؤنث .

بنعمة الله : باحسانه ورحمته . وقيل بالريح لأن الريح من نعم الله . وهو تفسير ضعيف لأنه تفسير للفظ العام بشيء خاص .

آياته : دلائل قدرته البالغة ونعمته .

صبار : كثير الصبر على البلاء .

شكور : كثير الشكر على النعم .

مقتصد : أصل الكلمة « قصد » بمعنى توسط ، طلب الأسَدَّ ولم يجاوز الحَدَّ ، وهذا يناسب ما عليه أكثر المفسرين من تفسير المقتصد هنا بأنه مُوفٍ بما عاهد عليه الله في البحر من إخلاص الدين ، باق على ذلك بعد أن نجاه الله من هول البحر ، وأخرجه الى البر سالماً . قال الحسن : معنى مقتصد مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة .

وقال بعض المفسرين : المقتصد هنا هو الكافر · قال مجاهد : مقتصد في القول مضمر للكفر · وهذا القول يوافق القول الأول في نتيجة بحث الآية حيث ان في الأول تقديراً دل عليه الكلام ، والمعنى : فمنهم مقتصد ، ومنهم كافر · دل عليه قوله : « فمنهم » وقوله « وما يجحد » ·

ختار : كثير الختر وهو أقبح الغدر ·

قال عمرو بن معد يكرب :

وانك لو رأيت أبا عُمَيرٍ مَلأْتَ يديكَ من غَدْرٍ وخَتْر

كَفور : أي جَحود للنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها ·

المعنى والأسلوب :

في هاتين الآيتين يعرض القرآن لآية عظيمة من آيات الله تعالى فيها نعمته السابغة وقدرته الباهرة ، هي السفن تطفو على وجه الماء محملة بأنواع الخيرات ، تمخر عباب البحر بفضل تسخير الله تعالى ·

إنها آية تشمل آيات من آيات النعمة والقدرة ، فلولا كثافة الماء المعلومة التي تجعله قادراً على حمل الأجسام وفق القانون المعروف « أرخميدس » ، ولولا قابلية جرم السفينة للعوم ، ثم لولا ما هنالك من قوانين كونية أخرى من ضغط الهواء ودرجة الحرارة والتيارات المائية والهوائية ··

·· أنظمة وأنظمة تعمل كلها في هذا الكون المتناسق لينعم الانسان بهذه الوسيلة من وسائط السفر والنقل التي يسرت من مضائق الحياة مالا يتسهل إلا بها ·

إن مشهد هذه السفن لآيات إلهية كثيرة من دلائل النعم ودلائل القدرة بعيدُ الأثر في النفوس المتكملة بمكارم الأخلاق والعقل الراجح، فهي تقف من كل حال من أحوال الدنيا موقفاً سديداً حكيماً تصبر في

الضراء صبراً كثيراً لا يفتر ، وتشكر في السراء شكراً كثيراً لا ينقطع ، وهما الحالان اللذان لا بد من أحدهما للانسان · لا كما يفعل أكثر الناس من تصرف انفعالي طائش ، يجأرون بالشكوى في الضراء ، ويتضجرون ويتململون ، ثم إذا أنعم الله عليهم بالفرج والسرّاء فهم يبطرون ويتكبرون ولا يشكرون ·

فالناس إذا ركبوا البحر وثارت عليهم أمواجه بأهوالها تغطيهم كالجبال والسحب تظلهم لشدة ارتفاعها وظلمة هولها ، هنالك يتجردون من الهالات الكاذبة والقوة المغرورة وتبقى الفطرة بكل قوتها وصراحتها تلجأ الى الله وتعترف له · هناك يوحد المشرك ويتيقظ الغافل ويتوب العاصي ويؤمن الملحد ويخلص الجميع الدين : أي الخضوع والايمان والاذعان لله ·

« فلما نجاهم الى البر » :

خلصهم من الأهوال التي أيقنوا ألا قدرة لمخلوق على تخطيها أصبحوا قسمين : « فمنهم مقتصد » وهو القليل يوفي بعهده ويبقى على إخلاص الدين لله ، لا يغتر بالأمن والرخاء عن شكر النعماء ·

والقسم الآخر : الذي نكث العهد ولم يبق على إخلاص الدين لله ، لم تذكرهم الآية صراحة اكتفاء بمعرفة حالهم من السياق في هذا التنديد:

« وما يَجْحدُ بآياتِنا إلا كلُّ ختّار كَفور » :

وهو تعبير قوي يبين سبب انقلاب هؤلاء عن عهد الايمان واخلاص الدين لله ، وهو خبث نفوسهم وانحطاط طبائعهم الخلقية اللئيمة ، التي درجت على الغدر أقبح الغدر والكفر أفظع الكفر ، فلا تفي عهدها مع الله مهما أكدته ووثقته ومهما أعطاها من العطايا ، ولا تشكر له نعمة مهما والى نعمه ومنحها ·

ويقع هذا الختام : « وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » في آخر آيات التذكير بنعمة الله السابغة ودلائل قدرته وعظمته موقعاً عظيماً

جداً من البلاغة والمناسبة ، حيث إن تلك الدلائل موجبة الشكر لله وحده وإخلاص العبادة والطاعة له ، بما فيها من رخاء وما يشعر به الانسان عند فقدها من ضراء ، فلا يخل بمقتضى ذلك إلا فاسد الطبع والسجية أفسد ما يكون عليه ، وذلك بمقابلة العهد الموثق بأقبح الغدر والنعم السابغة العظمى بأفظع الكفر ، فأنى لمثل هذا أن يؤمن .

قال تعالى :

« يا أيُّها الناسُ اتقوا ربَّكم واخشَوْا يوماً لا يجزي والِدٌ عن ولَدِه ولا مَوْلودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً إنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌ فلا تغُرَّنكُمُ الحياةُ الدنيا ولا يغرنكم بالله الغَرُور ».

« إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ الساعةِ ويُنَزِّلُ الغَيْثَ ويَعْلَمُ ما في الأرْحامِ وما تَدْرِي نَفسٌ ماذا تَكْسِبُ غداً ، وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت ، إن الله عليم خبير » .

سورة لقمان (٣٣ ـ ٣٤)

المعنى والأسلوب :

بعد أن عرَضت السورة ما يوجب الايمان بالله وتوحيده سبحانه من قصة لقمان التي أوجبت الايمان وأقامت نظامه على أساس شكر نعمة الله ، ومن دلائل الكون التي تصور إنعام الله الذي امتدت أبعاده الى آفاق السموات ، وشملت جوانب الأرض ، كل ذلك مما يوجب الشكر للمنعم والاتعاظ بقدرته وعظمته ، اتجهت في الختام بخطاب قوي الى الناس ، تأمر بالتقوى وتحذِّر من أهوال القيامة تأكيداً لما طالبت به

السورة من شكر نعم الله تعالى بعبادته وطاعته وحده دون سواه ، وتحذيراً من جحود نعمته ومن معصيته ·

ويقع هذا الاختتام على غاية المناسبة لما سبق من مضمون السورة العام ، ثم يأتي على غاية المناسبة الدقيقة أيضاً للآية الأخيرة قبله التي ذكرت هول البحر ذلك الهول المخيف يقتلع من أشد الناس عناداً وكفراً عنادهم وكفرهم وإلحادهم ، فاذا هم يدعون الله مخلصين له الدين ، فكأنه يقول لهم إذا كان هذا حالكم في مثل هذا الخوف الصغير فاحسبوا حساب الخوف الكبير : الهول الأعظم الذي لا يُعَدُّ هولُ البحر شيئاً مذكوراً معه ·

وقد أشارت الآية الى هوله بايراده منكراً « يوماً » اشارة الى أنه لهوله لا يحاط بوصفه ومعرفته ، فلا يُعَرَّفُ ، ثم وصفت هول ذلك اليوم بأثر من آثاره المروعة ، وهو انقطاع أوثق الصلات التي من شأنها أن تقوى في الملمات ويُلْجَأ إليها في المضائق ، لكنها لا تنفع في ذلك الوقت ولا تفيد :

« لا يَجْزِي والدٌ عن وَلَدِه » :

فالوالد الشفيق الذي يحمي ولده بنفسه ويؤثره بها لا يغني عن ولده ولا يحمل عنه من العذاب والأوزار شيئاً ·

« ولا مَوْلودٌ هو جازٍ عنْ والِدِهِ شيئاً » :

والولد البار لا يغني شيئاً عن والده ، ولا يحمل عنه من ذنوبه وأوزاره ، لشدة الأهوال ودقة الحساب ·

وقد جاءت الجملة الثانية مشتملة على لون جديد من التعبير البليغ فعبر بقوله :

« هو جاز » باثبات الضمير « هو » لتأكيد النفي ، كما عبر بالجملة الاسمية التي تفيدُ رُسوخاً وثباتاً أكثر ، مما يدل عليه الفعل ، وذلك

ليتجاوب وضع النص مع وضع الانسان • فان الابن أقل غَناء عن الأب من غَناء الأب عن ابنه ، لذلك جاء نفيه بأسلوب أقوى ، وقطعت الآية الآمال عن أيّ مَفَرٍّ من أهوال ذلك اليوم ومن عقاب الله تعالى •

ثم أكد هذا الانذار بقوله :

« انّ وعد اللهِ حقٌّ » :

ثابت لا يتأخر ، بل هو مؤكد غاية التأكيد ، لأنه وعد الله ، وأردف بما يزيح الآمال الفارغة التي تغري هذا الانسان بالاهمال والقعود عن واجبه الكبير نحو ربه بقوله :

« فلا تغرنكم الحياة الدنيا » :

بمتاعها ولذاتها وزخارفها عن الآخرة :

« ولا يَغُرَّنَّكُمْ بالله الغَرور » :

أي الشيطان ، كما فسره ابن عباس وغيره ، فان الشيطان يدأَبُ على مخادعة هذا الانسان بالآمال الفارغة والتمنيات الكاذبة ، كما قال تعالى : « يَعِدُهُمْ ويمنيهم وما يَعِدُهُم الشيطانُ إلا غُرورا » •

ثم قرر هذا النهي عن الاغترار بتقرير حقيقة جوهرية من ضعف هذا الانسان هي قصوره وضعفه عن معرفة أي شيء مغيب وان الله تعالى هو يعلم ذلك :

« إن الله عنده عِلْمُ الساعة ، ويُنَزِّلُ الغيثَ ويعلمُ مافي الأرحامِ وما تدري نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت » :

فهذا الانسان لا يعلم عن تحديد مصيره النهائي ، ومصير عالمه النهائي أي شيء • والله هو الذي ينزل المطر يغيث الأرض ، لا يعلم أحد غيره متى ينزل المطر ، وهو يعلم ما في الأرحام من ولد ذكر أو أنثى، لا يعلمه الرجل الذي أودع ماءه ولا المرأة التي تحمله • ويعلم سبحانه

أطوار تخلق الولد في الرحم وزيادة الدم ونقصه ، واكتمال الجنين أو عدم اكتماله ، الى آخر ما هنالك ... ولا تدري النفس أخص شيء بها وهو ماذا تفعله غداً ، والمكان الذي تموت فيه ، فكيف يغتر هذا الانسان ، وهو ضعيف الى هـذه الدرجـة ؟! وكيف ينخدع بالآمال والوساوس ؟! والآيـة تذكر بجهـل الانسان وضعفه بما سجلته من هذه الظواهر وأشارت الى أنها لا يعلمها إلا الله .

قال عبد الله بن مسعود : « أوتِيَ نبيكم صلى الله عليه وسلم مفاتيح كل شيء غير خمس « إن الله عنده علم الساعة ... الى آخر الآية » أخرجه أحمد(١) .

ووردت أحاديث كثيرة جداً في الصحيحين وغيرهما تذكر هـذه الخمس مغيبات عن الناس لا يعلمهن إلا الله .

وصح أنه صلى الله عليه وسلم سماها مفاتيح الغيب :

أخرج البخاري(٢) عن عبد الله بن عمر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مفاتيح الغيب خمس لا يَعلَمُهُنَّ إلا الله : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلمُ مافي الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير » .

وهذا يبين لك مجافاة الصواب لموقف بعض العصريين حيث قال : « فاختصاص الله في الغيث هو اختصاص القـدرة كما هو ظاهر من النص وقد وهم الذين عدوه في الغيبيات المختصة بعلم الله . وان كان علم الله وحده هو العلم في كل أمر وشأن » .

فقد بين لك من نزل على قلبه القرآن أن الاختصاص الالهي في

---

(١) المسند ج ١ ، ص ٣٨٦ .

(٢) في آخر كتاب الاستسقاء (باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله) ج ٢ ، ص ٣٣ ، وانظر للمزيد تفسير ابن كثير فقد أورد جملة كبيرة من الأحاديث في ذلك .

الغيث ليس هو اختصاص القدرة فقط ، بل هو أيضاً اختصاص العلم الغيبي المحيط بمواقيت نزوله،مما لايصلح معه التشبث بشيء إطلاقاً ·

وقد يشكل هذا بما أصبح شائعاً من أخبار الأرصاد الجوية أو ما توصل اليه الطب بناء على بعض الفحوص للحامل من الاخبار بنوع الولد في بطن أمه أذ َكر" هو أم أنثى !!

والجواب على هذا الاستشكال : بأنه ناشيء عن الخلط بين علم الغيب الثابت لله تعالى وبين العلم الكسبي الذي يتوصل اليه الانسان ، فان بينهما فروقاً جوهرية نذكر منها :

١ ــ ان علم الله تعالى بهذه الأشياء علم أزلي قديم وليس كذلك علم الانسان بل هو كسب طارىء · وقد أشار القرآن الى إمكان هــذه المعرفة ، كما في قوله تعالى :

« وهو الذي يرسل الرياح بُشْراً بين يدي رحمته » :

فلا تسمى هذه المعرفة معرفة للغيب ، بل هي معرفة قائمة على دراسة الظروف والأحوال المشاهدة لا الغائبة ·

٢ ــ ان علم الله تعالى بالغيوب علم يقيني قاطع ، لا يقبل التبديل والتغيير أبداً ، أما علم الانسان بها فعبارة عن ترجيح وغلبة ظن ، كثيراً ما يخطىء ويخيب ·

٣ ــ ان إحاطة علم الله تعالى بالغيوب إحاطة مبتدأة ، أما إحاطة علم الانسان فناشئة من المعاينة والبحث في مقدمات وعلامات تدل على تلك الأشياء ، وهذا ليس علماً بالغيب ، بل هو نوع من علم المعاينة مَثَلُه كمَثَلِ رجل رأى على البعد دخاناً فقال : يوجد خلف هذا الجبل حريق ، أو سمع دوياً فأخبر عن انفجار ما ، فليس هــذا من علــم الغيب في شيء ، لأنه علم ناشيء عن الاستدلال بالعلامات الدالة على ما سيقع ، فلا وجه للاستشكال ولا لتأويل الآية بما يخرجها عن المعنى الذي ثبت في تفسيرها به ، بما لا يدع مجالا لبحث باحث ، ونظر ناظر ·

وهكذا سجلت الآية ضعف الانسان العلمي وقصور معرفته عن أي شيء مغيب مما يتصل به وبمصيره من بعيد أو قريب ، فهو لا يعلم متى ينتهي عالمه الذي يعيش فيه ، و لاموعد نزول الغيث الذي هو ضروري لحياته ، ولا يعلم أحد نوع ما تحمله الأرحام أَذَكَرٌ هو أم أنثى ، ولو كان هو الرجل الذي أودع ماءه ، والمرأة التي تحمله في بطنها ، ولا تدري النفس أخص شيء بها ، وهو ما تفعله غداً ، وما يحدث لها ، ولا المكان الذي تموت فيه ، وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها « مساميرها » فيها ، وقالت لا أبرحها . فترمي بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها .

لكن عظمة الله تعالى وعلمه الواسع أحاط بذلك علماً دقيقاً لأنه سبحانه « عليم » بالغ العلم لا نهاية لعلمه ، « خبير » به يعلم الخفيات المستترة ، لا يَعزُبُ عنه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض .

وقد راعى القرآن غاية الدقة في الاداء الفني في هذه العبارات الخمس :

فجعل العلم لله لأنه أكمل الاحاطات ، وهو وصف ثابت له سبحانه وتعالى ، وعبر عن اطلاع نفس الانسان بالدراية ، لما في الدراية من معنى الاجتهاد والحيلة كما قال النسفي : « والمعنى هنا أنها لا تعرف وإن أعملت حِيَلَهَا ما يختصُّ بها ، ولا شيءَ أخَصُّ بالانسان من كسبه وعاقبته ، فاذا لم يكن له طريق الى معرفتها كان معرفته ما عداها أبعد ... » .

وبهذا الاختتام البليغ قررت الآية ما سبق من النهي عن الغرور بآمال الدنيا ، فما حق من جهل من أمر نفسه وعالمه ومصيره ، هذا الجهل أن يغتر بسرابِ الأمانِيِّ والأوهام ، وأحاطت الانسان علماً بعظمة خالقه سبحانه ، الذي أحاط علمه بالغيوب كلها ، وأرسلت فكر الانسان يسبح الى مالا نهاية له في علم الله العظيم ، وفي جهل المخلوق

المسكين ، لينتهي به هذا الفكر الى تلقي آيات الله الحكيم ، حيث شعر في نهاية المطاف أنه يجب أن يلوذ في العلم والعقيدة ونظام التدبير بعلم العليم الخبير ، فلا يجد مناصاً ولا سبيلا إلا العودة إليه ، الى آيات كتابه الحكيم ، يهتدي بهداها ، ويسلك سبيل مَنْ نزلت من أجلهم :

« هُدَىً ورحمةً للمحسنين » .

• • •

تفسير سورة تبارك الملك

تعريف عام بالسورة :

سورة « الملك » وتسمى « سورة تبارك الذي بيده الملك » ، وسورة « المانعة » و « المنجية » كما سنذكر من الأحاديث في ختام تفسيرها إن شاء الله تعالى ·

وهي سورة مكية كلها باتفاق العلماء ، تبلغ عدة آياتها ثلاثين آية ، كما نص عليه الحديث الشريف ·

وموضوع السورة الذي تدور حوله معاني آياتها وفقراتها هو بيان أن تدبير العالم وسلطة التصرف فيه هي لله وحده سبحانه · وهي تقرر بذلك عقيدة هامة في حياة الانسان ، وركناً من أركان الدين ، هو توحيد الأفعال · إذ توضح أن كل العوالم في الأرض والجو والسماء، وفي الدنيا والآخرة هي بيد قدرته وقهره سبحانه · ومن أجل هذا الغرض تعرض السورة أمام الانسان جوانب الدنيا من الحياة والموت ، والسماء والأرض والعيش والرزق لتري هذا الانسان آثار قدرة الله تعالى في هذا العالم مدبرة له متصرفة فيه على أحسن وجه وأبدع نظام ، وتبين له أن قدرة الله وسلطانه هو المتفرد في هذا التصرف والتدبير ·

مناسبة السورة لما قبلها :

ترتبط سورة « الملك » بالسورة التي قبلها وهي سورة « التحريم » بعدة أوجه من المناسبات ، نذكر منها :

١ ـ مناسبة عامة بين سورة الملك بصفة عامة وسورة التحريم : هي أن سورة التحريم قررت وجوب التزام طاعة الله واتباع شرعه فلا يحرم الانسان شيئاً أحله الله ، ولا يتبع غير شرع الله مهما كانت الظروف ، كما يشير إليه المثل الذي ضربته السورة للذين كفروا وللذين آمنوا . فجاءت سورة الملك تقرر توحيد الأفعال الذي من جملته التشريع ، وهذا يوجب أن لا يدين الانسان ديناً غير دين الله تباركت أسماؤه .

٢ ـ مناسبة خاصة بين آخر سورة التحريم وأول سورة تبارك . وقد أوضحها الآلوسي في تفسيره فقال(١) :

« إنه تعالى لما ضرب مثلا للكفار بتينك المرأتين المحتوم لهما بالشقاوة وإن كانتا تحت نبيين عظيمين ، ومثلا للمؤمنين بآسية ومريم وهما محتوم لهما بالسعادة وإن أكثر قومهما كفار ، افتتح هذه السورة بما يدل على إحاطته عز وجل وقهره وتصرفه في ملكه على ما سبق به قضاؤه .

بسم الله الرحمن الرحيم

« تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ المُلْكُ وهُوَ على كلِّ شيْءٍ قَديرٌ . الذي خَلَقَ الموتَ والحياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أحسَنُ عَمَلاً وهُوَ العزيزُ الغَفُورُ الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِباقاً ماترَى في خَلْقِ الرَّحمنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطور ، ثم ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إليْكَ البَصَرُ خاسئاً وهو حسير » .

سورة تبارك (١ ــ ٤)

اللغــة :

تبارك : أصل هــذا الفعل من البركة • وهي النماء والزيادة حسية كانت أو معنويــة وتطلق أيضاً بمعــنى ثبوت الخــير الالهي في الشيء • ومن هنا ذكر المفسرون لقوله : « تبارك » معنيين :

الأول : تعالى وتعاظم : أي اتصف بغايــة العلو والعظمــة • وتقدس عن صفات المخلوقين •

الثاني : تكاثر إنعامه وخيراته على عباده ، حتى بلغت حــداً

لا يحيط به عَدٌ ، ولا إحصاء[1] ·

على كل شيء قدير : قال صاحب الكشاف : « بيده الملك على كل موجود وهو على كل ما لم يوجد من الممكنات قدير » · وهذا ذهاب منه الى أن المراد بالمُلْك السلطان على الموجودات ، وأن المراد بقوله « كل شيء » من المعدومات الممكنة الوجود · وأقر ذلك الرازي وكثير من المفسرين ·

وذهب بعض المحققين[2] الى أن قوله « كل شيء » عام يشمل كل ما تدل عليه كلمة « شيء » من موجود أو معدوم صفة أو ذاتاً · ويؤيده ظاهر العبارة « كل شيء » فانه يفيد العموم ·

يَبْلُوَكُم: يختبركم ·

الذي خلق سبع سموات : قيل اسم الموصول نعت للعزيز ، أو بيان أو بدل ·

طِباقاً : صفة لسبع · أي مطابقة ، أي بعضها فوق بعض · عبر بالمصدر وأريد به اسم الفاعل ، أي ذات طباق ، على حذف مضاف ·

تفاوت : أي اختلاف ، وعدم تناسب · وأصله من الفوت · وهو ـ كما في المفردات ـ[3] بعد الشيء عن الانسان بحيث يتعذر ادراكه · قال الراغب : « والتفاوت : الاختلاف في الأوصاف كأنه يفوت وصف أحدهما الآخر · أو وصف كل واحد منهما

---

(١) واعتمده الراغب في المفردات · مادة (برك) وانظر للتوسع روح المعاني ج ٩ ص ١٢٠ ، وتفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٢٣ ·

(٢) كما ذكره الآلوسي ·

(٣) مفردات القرآن للراغب مادة « فوت » ·

الآخر · قال : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » أي ليس فيها ما يخرج عن مقتضى الحكمة » ·

ارجعالبصر: أي اردُدْ بصرك الى السماء ، ويقال : قَلِّبْ البصر في السماء ، ويقال : اجهد بالنظر الى السماء ، والمعنى متقارب كما قال القرطبي[1] ·

فُطُور : شقوق وصدوع · وقال قتادة : خلل · وقال السدي: خروق · وهما تفسير بما يستلزم المعنى الأصلي لا ينافيه ·

خاسِئاً : بعيداً محروماً من وجدان ما بحث عنه من التفاوت · وأصله من الطرد بذلة · يقال : خسأ الكلبَ طرده مستهيناً به · والخاسيء المبعد المطرود · وخسأ البصر انقبض عن مهانة ·

حسير : حسر حسراً : تعب وأعيا· فهو حسير· أي كليل معيى متعب ·

المعنى والأسلوب :

افتتحت السورة بهذا الثناء الجامع المعبر :

« تَبارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك » :

لتقرر به أصلا اعتقادياً عظيماً يتفرع منه سائر ما يأتي في السورة من المعاني والصور ، فكان في هذا الافتتاح تهيئة وإعداد للذهن لتقبل ما سيلقى عليه من التفصيل فيما بعد · وهو ما يسميه علماء البلاغة « براعة الاستهلال » · ومن القرآن العظيم أُخِذَ هـذا الفن ، كما أخذت منه سائر فنون البلاغة والبيان · وقد بين هذا الافتتاح تمجيد ذات الله تعالى وتعظيمه وزيادة خيراته وأفضاله على الملك الذي بيده ، ودوامها عليه ·

وعبر القرآن بهذه الصيغة « تبارك » لأن هذه الصيغة « على زنة

(١) في تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » ج ١٨ ص ٢٠٩ ·

تفاعل » تختص بمعنى جليـل ، هو الدلالة عـلى غاية الكمال ونهاية التعظيم ، لذلك لم يجز استعمال الوصف بها للمدح إلا لله سبحانه · فـلا يجوز أن تقول : « تبـارك » أو « تعاظـم » أو « تعـالى » إلا للـه عز وجل(١) ·

« الذي بيده المُلْك » :

أي السلطان النافذ في كل شيء : مُلك السموات والأرض، والدنيا والآخرة · يفعـل ما يشاء في العوالم كلهـا إيجاداً أو إعداماً ، تغييراً وتبديـلا ، ويُعِزُّ من يشاء ، ويُذِلُّ من يشاء ، كـل ذلك في قبضة قدرته سبحانه ومشيئته مقهور صاغر لعظمته ·

« وهو على كل شيء قدير » :

أي انه تعالى بليغ القدرة يتصرف كيف يريد من انعام وانتقام ، ورفع ووضع ، وإيجاد وإعدام · لا يعجزه سبحانه شيء من الأشياء ·

وقد أضفت عبارة الجملة « كل شيء » مزيداً من القوة على معنى الجملة السابقة ، لأنها صرحت بشمول قدرته شمولا لا يخرج منه شيء من الأشياء القليلة أو الكثيرة ، ولا يُستثنى منه أمر من جلائل الأمور أو دقائقها · فكانت تكميلا لما سبق من هذه الناحية في نظرنا ·

ثم شرع في تفصيل هـذا الافتتـاح الجليـل الـذي افتتحت به السورة فقال :

« الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » :

وقد بينت هـذه الآية مثالين عظيمـين من آثار السلطان الالهي والقدرة الالهية · هما : الموت والحياة ، وأنهما مبنيان عـلى قوانين الحكم وغاياتها الجليلة ، وهي اختبار الناس ، ليظهر أيهم أحسن عملا ·

---

(١) « إرشاد العقـل السليم الى مزايا القرآن الكريـم » المعروف بتفسير أبي السعود ج ٥ ص ١٧٧ ·

والموت ورد في الآية مطلقاً ، فيشمل الموت السابق على الحياة والموت اللاحق بعدها ، كذلك الحياة مطلقة تشمل ما قبل الموت وما بعده . فكل هذه الأحوال للموت والحياة مخلوقة لله شاهدة بعظمته وقدرته ، خلقها الله لحكمة جليلة تسمو بالحياة :

« ليبلُوَكم أيُّكُمْ أحسنُ عملا » :

وبهذا ارتفع شأن الحياة عن كونها مجرد متاع لا غاية بعده ، كما يتوهم الغافلون ، الى أرفع مستوى ، هو ابتلاء الله لخلقه ، أي اختبارهم وامتحانهم ...

وقد عبرت الآية بلفظ « يبلوكم » لاستمرار الاختبار طالما أن الانسان على هذه المعمورة . لما قرر اللغويون في أصل الكلمة واشتقاقها من البِلى ، فكأنهم ابتلوا حتى بَلُوا أي خَلِقوا[1] .

وقد بينت الآية غاية هذا الاختبار وهي أن يظهر منكم أيها الناس « أيُّكُمْ أحسنُ عملا » فهو اختبار يتطلب من الانسان أن يكون على أعلى مستوى في أي عمل في أعمال المادة والمعنى ، في الدين والدنيا ، في القلب والقالب ، لأن لفظ « عمل » ورد في الآية مطلقاً فيتناول جميع الأعمال : أعمال الجوارح وأعمال القلوب .

وقد رُوِيَ في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية : « أيكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله تعالى ، وأسرع في طاعة الله عز وجل »[2] ...

وعن السدي في الآية : « أيكم أحسن عملا » قال : « أيكم أحسن

---

(1) انظر مفردات القرآن مادة (بلي) .

(2) أورده الآلوسي في تفسيره روح المعاني ج ٩ ص ١٢١ . ومعنى « أيكم أحسن عقلا » أي أيكم أتمّ فهماً لما يصدر عن جناب الله ، وأكمل ضبطاً لما يؤخذ من خطابه سبحانه .

للموت ذكراً ، وله استعداداً ومنه خوفاً وحذراً »(1) ·

ثم انتقلت السورة الى بيان مظاهر أخرى للملك والقدرة النافذة في هذه الآية :

« الذي خلقَ سبعَ سموات ٍ طِباقا ما تَرى في خَلْقِ الرحمنِ مِن تفاوت ٍ فارجعِ البصرَ هلْ ترى مِنْ فُطور » :

فالله الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير هو الذي خلق سبع سموات ، فربطت العقيدة اليقينية بسلطان الله وقدرته ووصلتها بهذا الخلق العظيم خلق سبع سموات ·

وقد لفت القرآن بأسلوب عجيب نظر كل إنسان يبصر ويعقل الى دقة خلق السموات وإحكامها على الرغم من ضخامة أبعادها ضخامة لا يحيط بها الخيال ، فليس فيها أيُ خلل أو اضطراب ، فعبَّر عن ذلك تعبيراً بليغاً غاية البلاغة في قوله :

« ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » :

فقد وجه الخطاب الى كل إنسان له عقل وبصر يقول له : « ما ترى » في هذا الخلق الضخم أي خلل أو نقص ·

وقد قرر القرآن هذه الحقيقة تقريراً في غاية القوة ، بأن وجَّه الخطابَ بالأمر للتحدي الى كل من يتأتى منه الخطاب ويعقل الجواب « فارجع البصر هل ترى من فطور » ، فهذا الأمر يتحدى كل من يعقل الكلام بأن « يرجع » أي يردد بصره في السماء يفتشها هل يرى فيها من فطور ، أي أدنى وأقل فطور ٍ تشقق ٍ وصدوع ·

« ينقلبْ إليكَ البصرُ خاسئاً » :

---

(1) أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الايمان · انظر الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي ج ٦ ص ٢٤٧ ·

أي يرجع اليك بصرك مطروداً محروماً من أن يشاهد أي خلل أو صدوع في السماء •

وقد أفاد هذا التعبير « خاسئاً » قوة في المعنى المراد ، لما في اللفظ من دلالة على معنى الطرد مع الذلة ، وأبرزت الآية إحكام عالم السموات إبرازاً عظيماً بهذه العبارة أيضاً ، حيث صورتها لشدة إحكامها كأنها كائن حي يحس بالبصر يتجسس عليه بحثاً عن خلل فيه ، فيطرده شر طردة ، كما يطرد الكلب بقماءة وذلة،فيرجع البصر من محاولته العنيدة: « وهو حسير » •

قال ابن عباس : « يعني وهو كليل » • وقال مجاهد وقتادة والسدي : « الحسير: المنقطع من الاعياء -أي التعب الشديد- ولا يرى نقصاً »[1] •

الفوائد العلمية :

في هـذه الآيات أبحاث ودلالة على فوائد علمية هامة ، نستعرض منها ما يلي :

١ ـ وقع في الآية الأولى نسبة اليد الى الله تعالت أسماؤه وصفاته في قوله تبارك وتعالى :

« تبارك الذي بيده الملك » :

وهذه النسبة ونحوها في القرآن الكريم من المتشابهات التي اشتهر كلام العلماء واختلافهم في شأنها، وترجع الآراء المقبولة كلها في الحقيقة الى مذهبين شهيرين : مذهب السلف ومذهب الخلف :

فمذهب السلف : اعتقاد أن الله تعالى منزه عن مشابهة الخلق في أي صفة من صفاته ، وأن حقيقة معنى اليد وما شاكلها غير مراد قطعاً إنما المراد معنى يليق بكماله وتقدسه سبحانه ، الله أعلم بحقيقته •

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ص ٣٩٦ •

ومذهب الخلف : أن المعنى الظاهر غير مراد لاستحالته في حق الله تعالى وبالتالي قالوا إن المراد هو معنى مجازي ، وفسروا اليد بالقدرة ، و « الرحمن على العرش استوى » بمعنى استولى ودبر العالم ٠ وقوله : « ولتصنع على عيني » أي عنايتي ٠٠٠

والحقيقة أن المذهبين متفقان في الأصل وهو تنزيه الله تعالى عن أن يوصف بصفة تشبه صفة أحد من خلقه،وإبعاد الكلام عن أن يقصد به شيء يتصل بذلك ٠ وهو تطبيق لقوله تعالى : « ليس كمثله شيء » ٠ وقوله : « ولم يكن له كُفُواً أحد » ٠ وغير ذلك من النصوص المحكمة ٠

كما أن مواقع بعض هذه العبارات واضح في الاتجاه نحو تأويلها :

فاليد مثلا ذكرت مفردة كما هنا ، وذكرت في القرآن مثناة كما في قوله تعالى مخاطباً إبليس حين أبى أن يسجد لآدم : « ما منعك أن تسجد لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ » ٠ ووردت بصيغة الجمع كقوله تعالى : « والسماءَ بنيناها بأيْدٍ وإنا لَمُوسِعون » ، مما يدل على استحالة المعنى الظاهري ٠

وقد أساء قوم فهم مذهب السلف وأتوا فيه بعبارات موهمة : حيث قالوا : إن المراد بمثل هذه العبارات معناها حقيقة على وجه يليق به تعالى ٠ وهو تعبير خاطيء من حيث اللفظ والمعنى ٠

أما من حيث اللفظ فلأن السلف لم يأتوا بكلمة « حقيقة » وهذا باب دقيق يجب التقيد فيه بالعبارات المنقولة تماماً ٠

وأما من حيث المعنى فلأن قولهم : « حقيقة » يفيد التشبيه ، تعالى الله عن ذلك ٠ وقولهم على وجه يليق بذاته ينافي ذلك ٠ فصارت العبارة متناقضة موهمة ٠ حتى وجدنا كثيراً ممن نظر في كلام أصحاب هذا الرأي يتجه فهمه الى التشبيه من حيث لا يشعر ٠

٢ ـ قوله تعالى : « سَبْعَ سموات ٍ طِباقاً » :

دل على أن السموات سبع · وأنها طبقات بعضُها فوق بعض ·

وفي تفسير قوله تعالى هنا « طباقا » رأيان :

قال ابن كثير: « طباقاً » أي طبقة بعد طبقة، وهل هُنّ متواصلات، بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض ، أو متفاصلات بينهن ؟ فيه قولان : أصحهما الثاني كما دل على ذلك حديث الاسراء وغيره ·

وقد كثرت الأقاويل في حقائق السماوات ، وحاول بعضهم إخضاع تفسيرها لبعض نظريات علم الفلك ، حتى وجد من يزعم أن السموات السبع هي الكواكب السيارة السبع · وهو مسلك مجاف للصواب في تفسير القرآن ، حيث جعل أصحابه النظرية الفلكية أصلا والقرآن تابعاً · وهذا خطأ في العلم وفي التفسير أيضاً · بيان ذلك :

أ ـ ان نظريات عالم الفلك متغيرة تتدرج يوماً بعد يوم ، وأكثرها ليس يقيناً ثابتاً ، فلا يجوز أن نفسر بها القرآن لأن القرآن لا يقبل التغيير والتبديل · إلا ما ثبت منها حقيقة يقينية ·

ب ـ ان نصوص القرآن جاءت بلسان عربي مبين ، فتفسيرها بأي معنى لا يوافق لسان العرب غير مقبول ·

ج ـ ان تفسير السموات السبع بالكواكب السيارة السبع هو أضعف تلك الأقاويل في تفسير السماوات ، وذلك لأنه مخالف لقوله هنا « سبع سموات طباقا » ، والسيارات ليست طبقات بعضها فوق بعض · وهو مخالف أيضاً لآية « الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء »... وأيضاً فقد ظهر أن النجوم السيارة أكثر من سبع بعد ما توسعت الكشوف العلمية الفلكية ، فكيف نفسر بها القرآن ··· ؟! ·

الى غير ذلك من نصوص ودلائل تأبى هذا التفسير ·

٣ ـ قوله « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » وقوله « فارجع البصر » الى آخره ٠

الخطاب فيه هل هو للرسول عليه الصلاة والسلام ، أو هو موجه لكل أحد ممن يصلح للخطاب (١)؟

الراجح أنه خطاب لكل أحد يصلح للخطاب ، كما هو ظاهر من سياق الكلام ٠ والآية تأتينا بأسلوب من أساليب القرآن يسجل إعجازاً علمياً كبيراً يقدم فيه برهاناً قاطعاً من براهين الايمان بالله وعظمته ووحدانيته وسلطانه بطريق يفهمه كل الناس ٠

ذلك أن نظام السماء البديع وإحكامه المتقن يراه الناس جميعاً ، كل واحد على حسب علمه وفهمه ، العامي وابن البادية وساكن المدن والغابات وعالم الفلك كلهم يرون ذلك ويشعرون به ويستمتعون بجماله ، لكن القرآن يقرر أن التعمق في فحص السماء وكثرة التنقيب والبحث تزيد ذلك رسوخاً وتأكيداً في هذا التعبير المتحدي المؤكد « ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » ٠ وذلك ما حققه تقدم العلم وما يزال يؤكده كلما تقدم ٠ فقد جاء تقدم علم الفلك بمعلومات عن السماء ودقة نظامها وحركة الأفلاك فيها يندهش لها الخيال ويكاد يطيش الانسان ، وهو ما قرره القرآن فان العالم بعد تجواله الكبير المتكرر رجع وقد ازداد إيماناً بدقة صنع السماء وإتقان وضعها إتقاناً بالغاً غاية الغايات وآية الآيات ٠ حتى أصبح في علماء الفلك أقوى دعائم الايمان بالله والشهادة بعظمته تبارك وتعالى ٠

---

(١) قولان ذكرهما أبو السعود : ٥ : ١٧٨ ، وهما واردان في كل خطاب بصيغة الافراد في القرآن ٠ ويذكر المفسرون فيها هذين القولين فتنبه للاختيار فيها إذا لم يوجد دليل يرجح ارادة أحد المعنيين ٠

قال تعالى :

« وَلقَدْ زَيَّنّا السماءَ الدُّنيا بِمَصابِيحَ وجعلْناها رُجوماً للشَّياطِين . وأعتَدْنا لَهُمْ عذابَ السعيرِ . ولِلذينَ كفروا بِرَبِّهِمْ عذابُ جهنَّمَ وبئسَ المصير إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور ، تكادُ تَمَيَّزُ من الغيظ كُلّما أُلقِيَ فيها فَوْجٌ سألَهُمْ خزَنَتُها أَلَمْ يأْتِكُمْ نذيرٌ . قالوا بلى قدْ جاءَنا نذيرٌ فكذَّبنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إنْ أَنْتُمْ إلا في ضلالٍ كبير . وقالوا لَوْ كُنَّا نسمَعُ أو نعْقِلُ ما كُنّا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأصحاب السعير ».

سورة الملك (٥ ــ ١٠)

اللغـــة :

مصابيح : جمع مِصباح ، وهو السراج ، والمراد هنا الكواكب ٠ سميت مصابيح لاضاءتها ٠

جعلناها رجوماً : أي جعلنا شهبها ٠

رجوماً : جمع رَجْم بسكون الجيم ، مصدر ، معناه الرمي ٠ والمقصود ما يرمى به ٠

أعتدنا : هَيَّأْنا ٠

السعير : أشد الحريق ٠

شهيقاً : أي صوتاً ، ويطلق على صوت الحمار ، أي صوتاً كصوت الحمير ٠

تفـور : أي تغلي بهم كغلي المرجل بما فيه ·

تَـمَيَّزُ : أصله تتميز ، حُذِفَتِ التاءُ الأولى تخفيفاً ، ومعناه تتقطع وينفصل بعضها عن بعض ·

الغيظ : قال الراغب : أشد الغضب ·

سُحْقاً : مفعول مطلق منصوب بفعل محذوف ، والتقدير : أسحقهم الله سحقاً ، أي باعدهم بعداً ·

المعاني والأسلوب :

بعد أن بين الله تعالى في الآيات السابقة إعجاز السماء ودلالتها على عظمة الله وسلطانه لما فيها من دقة الصنع وإتقانه البالغ غاية الغايات . بيَّن في هذه الآيات دلالتها على عظمته سبحانه من جهة أخرى هي كونها في غاية الجمال فقال : « ولقد زينا السماءَ الدنيا » أي القُرْبَى منكم « بمصابيح » ، وهي الكواكب بأنواعها الثوابت والسيارات ، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بالمصابيح المضيئة ، ولقد زينا سقف الدار الدنيا التي اجتمعتم فيها بمصابيح وأي مصابيح ، هي عظيمة جداً . وهي آية جمالية في غاية الحسن لا يمل منها القلب كيفما قلَّب نظره فيها ، ولذلك صدَّر الآية بالقسَم : « ولقد » ، أي وبالله لقد ، لاظهار كمال الاعتناء بمضمون الآية ، ثم عبَّر بنون المتكلم المعظم « نا » في قوله « زينا » و « جعلناها » دلالة على عظمة الله تعالى وقدسيته ·

وهكذا جمع القرآن في هذا السياق بين دلالة الكمال والجمال : دلالة الكمال في قوله : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » ، ودلالة الجمال في هذه الآية ، وبذلك أصبح البرهان شاملا للناس كافة . سواء كان أحدهم يميل الى الكمال أو يتعشق الجمال ·

ثم ذكر لهذه المصابيح منافع أخرى :

« وجعلناها رُجوماً للشياطين » :

ترميهم بشُهُبٍ تنفصل عنها ، لتدحرهم عما أرادوه من تطلع أخبار السماء ·

« وَأَعْتَدْنا لهم » :

هيأنا للشياطين العذاب المحرق البالغ أشد الاحراق ·

« وللذين كفروا بربهم عذابُ جهنمَ وبئسَ المصير » :

بيَّن هنا أن العذابَ مستحق لكل من كفر بالله عز وجل(١) ·

ثم ذكر ما يلقون فيها من شديد العذاب في تصوير مروع مخيف :

« إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور » :

فأول ما يُحِسّون منها فظاعة صوتها الذي سماه « شهيقاً » ، وهو صوت الحمير أنكرُ الأصوات ، وهو حَسِيسُها المنكر الفظيع الذي ذكره القرآن في وصف المؤمنين « لا يسمعون حَسِيسَها » ·

« وهي تفور » :

قال ابن عباس : « تغلي بهم غَلْيَ المِرْجل » · وهذا من شدة لهب النار من شدة الغضب ، كما تقول : « فلان يفور غيظاً » · وقال مجاهد : « تفور بهم كما يفور الحب القليل في الماء الكثير »(٢) ·

« تكادُ تَمَيَّزُ من الغيظ » :

أي توشك جهنم أن تتقطع وتنفصل عن بعضها البعض لما بها من أشد الغضب على هؤلاء الذين كفروا بربهم(٣) · وفي هذا العذاب المروع:

---

(١) قوله تعالى : « وللذين كفروا ··· » ليس معطوفاً على مفعول « أعتدنا » بل هو مستأنف · فقول ابن كثير في تفسيره ج ٤ ص ٣٩٧ : « وأعتدنا للذين كفروا » غير ظاهر ، إلا على قراءة من قرأ « عذابَ جهنم » بالنصب ، وهي غير قراءة الجمهور·

(٢) أخرجه هناد وعبد بن حميد ، كما في الدر المنثور ج ٦ ص ٢٤٨ ·

(٣) ذكر الآلوسي ج ٩ ص ١٢٦ أقوالا في هذه العبارة « تكاد تميز من الغيظ أنها ←

« كلما أُلقيَ فيها فوجٌ سألَهُمْ خزَنَتُها » :

وهم حراس النار والقائمون بعقاب أهلها :

« ألم يأتكم نذير » :

ويعلمُ الخزنة أنَّ الرسلَ جاءتهم وأنذرتهم هول العذاب ، لكنه سؤال التوبيخ واللوم يضاعف عليهم ما يلقون من العذاب ·

« قالوا : بَلى قَدْ جاءَنا نذير » :

« قالوا » اعترافاً بأنه عز وجل قد أزاح عللهم بالكلية : « بلى قد جاءنا نذير » وجمعوا بين حرف الجواب « بلى » ونفي الجملة المجاب بها « قد جاءنا ·· » مبالغة في الاعتراف بمجيء النذير وتحسرا على ما فاتهم من السعادة في تصديقهم ، وتمهيداً لما وقع منهم من التفريط تندماً واغتماماً على ذلك[1] ·

هكذا بالتأكيد والتحقيق « قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير » ·

ثم عادوا على أنفسهم باللوم :

« وقالوا : لو كُنَّا نسمعُ أو نعقلُ ما كُنا في أصحاب السعير » :

فقد أقروا أن الدعوةَ كانت في غاية الوضوح والقوة ، يدركها كل ذي سمع وكل ذي عقل ، لكن الآفة منهم ، حيث غلبهم الهوى حتى

على سبيل الاستعارة التصريحية من تشبيه اشتعال النار بهم باغتياظ المغتاظ · أو أنها مجاز عقلي والمراد تكاد خزنتها · أو أن الله يخلق فيها إدراكاً فتغتاظ عليهم · فاجتزأنا من ذلك كله بالغاية التي تتفق عليها الأقوال وهي تصوير هول عذاب جهنم ··

(١) انظر هذا في الالوسي و « السراج المنير في الاعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير » · للخطيب الشربيني ، وحاشية الجمل على الجلالين ، وقد أخذ عن الخطيب الشربيني ·

عطلوا أسماعهم وأبطلوا عقولهم ، لأنهم لم ينتفعوا بأهمّ ما خُلِقَتْ له هذه المواهب ·

وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة ، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » ، أي لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق لما كنا على ما كنا عليه من الكفر والاغترار به ، ولكن لم يكن لنا فَهْمٌ نعي به ما جاءت به الرسل ، وما كان لنا عقل يرشدنا الى اتباعهم ·

قال الله تعالى : « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » :

فذكر الله تعالى عدله في خلقه ، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، كما قال : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ·

وأخرج الامام أحمد في المسند(١) عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم » ·

يتعلق بهذا النص مسألة علمية ، نبحثها فيما يلي وهي :

وظائف النجوم :

ذكرت الآية وظيفتين من وظائف النجوم هما : زينة السماء ، ورمي الشياطين ·

وفي معناها قوله تعالى : « إنا زينا السماءَ الدنيا بزينةٍ الكواكبِ · وحِفْظاً مِنْ كلِّ شيطانٍ مارد »(٢) ·

وذكر القرآن للنجوم وظيفة ثالثة هي الاهتداء بها الى طرق السفر كقوله تعالى في سورة الأنعام(٣) : « وهو الذي جعل لكُمُ النجومَ لِتهتدوا بها في ظلمات البَرِّ والبحر » ·

---

(١) المسند ج ٤ ص ٢٦٠ ، وانظر ج ٥ ص ٣٩٣ ·
(٢) الآيتان ٦ و ٧ من سورة الصافات ·
(٣) الآية ٩٧ ·

وذكر في مواطن أخرى أن النجومَ مسخرات بأمر الله تعالى لمصلحة الانسان ، نحو قوله تعالى : « وسخر لكم مافي السموات والأرض جميعاً منه »(١) ٠

وهذا دليل على إعجاز هذا القرآن ، فقد كان الناس في عصر نزول القرآن على اختلاف أديانهم وأفكارهم يعتقدون أن النجوم تتصرف في الانسان وأن كل إنسان يرتبط قدره بنجم معين ، أو أنه يمكن منها أن نعرف مغيبات الأحداث ، فجاء القرآن وأبطل ذلك ليقرر فيها أصولا علمية هي غاية ما وصل اليه العلم ٠ وهي أنها مخلوقات عظيمة مُسَيَّرَة" بأمر بارئها ، لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ، فضلا عن أن تؤثر في غيرها ، بل قرر أنها مسخرة لهذا الانسان ٠

قال تعالى :

« إنَّ الذينَ يَخشَونَ ربَّهمْ بالغيبِ لهمْ مَغفِرَةٌ وأجرٌ كبير ٠ وأسِرُّوا قولَكُمْ أو اجهروا به إنه عليمٌ بذات الصدور . ألا يعلمُ مَنْ خَلَقَ وهو اللطيف الخبير » ٠

سورة تبارك (١٢ ـ ١٤)

اللغـة :

بالغيب : الجار والمجرور « بالغيب » متعلق بمحذوف حال من الفاعل ، والمعنى يخشون عذابَ ربهم حال كونهم غائبين عنه ٠ أو حال من المفعول به ، أي حال كون العذاب غائباً عنهم ٠ والمعنى في المآل واحد على أي وجه ٠

---

(١) سورة الجاثية الآية ١٣ ٠

ذات الصدور: الأسـرار المستكنة في صدور الناس بحيث لا تكـــاد تفارقها أبداً ٠

ألا : «ألا » هذه ليست حرف الاستفتاح للتنبيه كما في قول الشاعر: « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » ٠

لكن « ألا » هنا مكونة من أداتين : الهمزة للاستفهام ، وهو هنا استفهام إنكاري للنفي ، ولا النافية ٠ والمعنى حقاً يعلم من خلق ٠ نظيره ما سبق في سورة لقمـــان في قوله تعـــالى : « ألم تروا أن الله سخر لكم ٠٠٠ » ٠

مَنْ خَلَقَ: « مَنْ » : فاعل يعلم ، ومفعول خلق محذوف تقديره جميع الأشياء ، والمعنى ألا يعلم السر والجهر من خلق جميع الأشياء ، ومنها السر والجهر ٠

ويجوز أن تجعل « مَنْ » مفعول «يعلم» والفاعل محذوف تقديره هو ، أي ألا يعلمُ الله الشيءَ الذي خلقه ٠ والمقصود في الحالين واحد وهو : ألا يعلم السر من خلق السر ٠

الخبـير : أصله من الخَبَر ، والله خبير : أي عالم بأخبار أعمالكم ، وقيل عالم ببواطن أموركم وعليه عملُ المفسرين ٠

المعنى والأسلوب :

بعـد أن ذكر القرآن هول عـذاب الكافرين ذكر نعيم المؤمنـين الصالحين تكميلا لما أشار إليه في صدر السورة بقوله « ليبلوكم أيكم أحسن عملا ٠٠٠ » ٠

وقد عبر القرآن عن المؤمنين بهذا الوصف :

« إن الذين يخشون ربهم بالغيب » :

وهو وصف جليل يصف المؤمنين بغاية الصدق في إيمانهم بالله

وتعظيمهم لربهم ، فخافوا عذابه وإن لم يروه ، وذلك يجعلهم يجتنبون معصية الله من غير أن يحتاجوا الى رقيب عليهم من سوى أنفسهم لأنهم يخشون عقاب ربهم بالغيب ٠

ثم بعد أن بين فضل خشية الله بالغيب نبه على كمال علم الله وإحاطته بالضمائر والأسرار الخفية فقال :

« وأَسِرُّوا قولكم أو اجهروا به » :

وهو تقرير لوجوب خشية الله وترسيخ لها في القلب ، وأنه لا بد من حصول الثواب والعقاب ٠

وقد نبهت الآية على كمال علم الله تعالى بالسر والجهر بأسلوب بليغ جداً في قوله تعالى :

« وأسروا قولكم أو اجهروا به » ، وظاهر هذا التعبير الأمرُ بأحد الأمرين : الإسرار والإجهار ، لكن المراد هو التسوية بينهما ، والمعنى ليستو عندكم إسراركم وإجهارُكم في علم الله بهما غاية التساوي ٠

ولتأكيد هذا المعنى وترسيخه في القلب ، نلاحظ في الآية تقديم السر على الجهر ٠

وفي هذا يقول الآلوسي(١) :

« وتقديم السر على الجهر للايذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر ،والمبالغة في شمول علمه عز وجل المحيط بجميع المعلومات، كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدم منه بما يجهرون به ، مع كونهما في الحقيقة على السوية ٠

أو لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر ، إذ ما من شيء

---

(١) ج ٩ ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ٠ وهذه فائدة هامة يجب أن تحفظ ، لتستحضر في المواضع المماثلة في القرآن وهي كثيرة ٠

يُجْهَرُ به إلا وهو أو مباديه مضمر في القلب غالباً ، فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على حالته الثانية » ٠

« إنه عليم بذاتِ الصدور » :

هذه جملة مستأنفة تأكيد لما سبق في صدر الآية ، أكد فيها علمه البالغ بصيغة فعيل « عليم » وعبر بصيغة الجمع مع « أل » الاستغراق « الصدور » ، ووصف الأسرار المضمرة بصاحبيتها للصدور ، فكان في غاية القوة ، وكأنه يقول : إنه عالم غاية العلم بمضمرات صدور الناس وأسرارهم الخفية المستقرة في صدورهم لا تفارقها ، فكيف يخفى عليه شيء مما تسرون به أو تجهرون ٠

« ألا يَعْلمُ مَنْ خلقَ وهو اللطيفُ الخبير » :

هذا تقرير أيضاً لاحاطة علمه تعالى بسرائر الناس بأسلوب برهاني استدلالي بارع ، أي ألا يعلم السر والجهر مَنْ خلق جميع الأشياء ، ومن بينها السر والجهر ، وقد صدّر الجملة بهمزة الاستفهام المقصود بها النفي ، وأدخلها على « لا » النافية ليدل على تأكيد علمه وثبوته ثبوتاً لا يقبل أي شك أو بحث ، لأن نفي النفي إثبات ٠ فهو سبحانه خالق الأسرار والضمائر ، وخالق كل شيء فكيف لا يعلمها ٠ وهو سبحانه « اللطيف الخبير » ، اللطيف الذي يتوصل الى ما يريد بأدق الوسائل وأخفاها وأنفذها ، فهو يعلم خفايا الصدور ، وهو سبحانه « الخبير »المتوصل علمه الى دقائق الأمور وخفاياها ، لاشك أنه يعلم ذلك غاية العلم وأعظمه ٠

قال الله تعالى :

« هُوَ الذي جعَلَ لكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فامْشُوا في مَناكِبها وكُلُوا مِنْ رِزْقه وإليه النُّشُور .

أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور . أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير . ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير . أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير».

سورة تبارك (١٥ ــ ١٩)

اللغــة :

ذلولا : من الذل ، وهو اللين والانقياد .

مناكبها: جمع منكب وهو ــ كما في المفردات ــ مجتمع ما بين عظمي العضد والكتف ، ومنه استعير للأرض قال : « فامشوا في مناكبها » انتهى . والمعنى امشوا في جوانبها وأطرافها .

النشور: الحشر يوم القيامة .

تمور : من المور ، وهو الاضطراب بالذهاب والمجيء. قال الراغب: « المور الجريان السريع » .

حاصبا : حجارة من السماء . وقيل : ريح فيها حجارة وحصباء . وقيل : سحاب فيه حجارة !

نذير : أصله نذيري ، حذفت منه ياء المتكلم . أي إنذاري .

نكير : بحذف ياء المتكلم ، أي إنكاري .

صافات : باسطات أجنحتها في الجو .

يقبضن : يضربن جنوبهن بأجنحتهن .

المعنى والأسلوب :

بعد أن بين القرآن في الآية السابقة أن الله تعالى هو الخالق وأنه يعلم سرائر الناس وعلانيتهم بين هنا سوابغ نعم الله عليهم بياناً فيه اظهار قدرته تقوية لدعوتهم الى توحيد الله وطاعته فقال :

« هو الذي جَعَلَ لكُمُ الأرضَ ذَلولا » :

أي إنه تعالى جعل الأرض منقادة مُسَهَّلةً لكم :

« فامشوا في مَناكِبِها » :

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : « أطرافها وفجاجها ونواحيها » .

وقد عرض القرآن هذا المعنى عرضاً فيه قوة وحياة بتصوير الأرض بصورة دابة مسخّرة للانسان ، والمعنى في تأكيد هذا الأسلوب والتفنن فيه في قوله : « ذلولا » والذل لا يوصف به إلا الأحياء ، ثم في قوله « فامشوا في مناكبها » . وأصل المنكب مجتمع ما بين العضد والكتف.

قال الزمخشري : « المشي في مناكبها مَثَل لفرط التذليل ومجاوزته الغايه ، لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرقُّ شيء من البعير وأنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه ، فاذا جُعلا في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم يترك بقية من التذليل » انتهى .

فما على الانسان إلا أن يثير هذه المنافع كما أمر الله وقال له :

« وكلوا من رزقه » :

أي التمسوا من نعمه على شتى أنواعها ، وليس المقصود خصوص الأكل فقط كما يتوهم ، لكنه ذكر الأكل لأنه الأهم الأعم .

وهذا كله قد جاء بصيغة الأمر « فامشوا » و « كلوا » لاظهار المنة والرحمة الالهية بهذا الانسان ، حتى يشكر نعمة ربه ، لذلك عقبت الآية سياق هذه النعمة بهذا التذكير :

« وإليه النشور » :

فذكرهم بأنه إليه وحده سبحانه المرجع لا إلى غيره ، فبالِغوا في شكر هذه النعم ولا تقصروا ٠

« أَأَمِنْتُمْ مَنْ في السماءِ أن يَخْسِفَ بكمُ الأرضَ فاذا هي تَمور » :

بعد أن بيّن أنه تعالى إليه النشور عقّبَ ذلك بقوارع من التذكير حتى ينتبه الناس من غفلة الطمأنينة على هذه الأرض المستقرة المذللة ، ويرجعوا الى الله تعالى ٠ وقد خاطبهم بقوله : « أأمنتم » يستنكر عليهم هذه الغفلة ، هل أمنوا أن يبدل الله حال الأرض الذلول فيخسفها أي يقلبها بهم فيغيبوا في جوفها فتضطرب وتذهب وتجيء !!

وهذه أحداث الزلازل والبراكين يعرفها الناس ويسمعون أخبارها ويعلمون ماذا تفعل من الأفاعيل في دقائق يسيرة بل في ثوان ، ويعلمون كيف يصبح هذا الانسان المتغطرس وماذا يغني عن نفسه منها ٠

ثم ينتقل الى تهديد آخر :

« أم أمنتم » ؟ : أي بل أأمنتم ٠

« من في السماء أنْ يرسل عليكم حاصبا » :

حجارة من السماء تحملها الأعاصير أو غيرها مما يرسله الله بالعذاب:

فستعلمون عند مشاهدتها كيف انذاري لكم وتوقنون به ، لكن حيث لا ينفع العلم شيئاً ، وهو تهديد قوي جداً يشير الى وشك نزول العذاب بالمعاندين ٠

ومن ثم أكد هذا التخويف بالتذكير بما سبق من عقاب السابقين ليكون التخويف بمثال يعتبر به :

« ولَقدْ كذَّبَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِم فكيفَ كانَ نَكيرِ » :

وهو تذكير مخيف تأكد بالقسم « ولقد » ثم ختم بهذا الاستفهام

للتعجيب « فكيف كان نكيرِ » أي انكاري عليهم بانزال العذاب !! أي إنه كان على غاية الهول والشدة والفظاعة ·

وهـذا التعبير المهول هو المقصود بالقسم لتتحرك القلوب فتتعظ وتتذكر · وفي الكلام من البلاغة في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتشديد التهديد للكفرة مالا يخفى ·

« أَوَلَمْ يَرَوْا الى الطيرِ فوقَهُمْ صافَّاتٍ ويَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إلا الرحمنُ إنه بكل شيءٍ بصير » :

بعد أن ذكَّر الله عباده أنه قادر على أخذهم بالعقاب بمثال ضربه لهم انتقل الى تخويفهم بالبرهان على ذلك ، وهو البرهان على كمال قدرته ، ومتى ثبت ذلك ثبت كونه تعالى قادراً على إيصال جميع أنواع العذاب اليهم ·· »[1] ·

وقد أقام هذا البرهان بأن أثار تأملهم وتفكرهم في هذا الشيء الذي يذكرهم به ، وهو مشهد يرونه كثيراً ، لكنهم لا يعتبرون بما فيه من دلائل القدرة وخوارقها ·

وقد بدأ التذكير بهذا الاستفهام الانكاري : « أولم » ، أي أغفلوا « ولم يروا الى الطير فوقهم صافات » باسطات أجنحتها ، « ويقبضن » أي تضرب جنوبها بأجنحتها في الطيران ، إنه مشهد يدعو الى التفكر والتأمل في هذه الظاهرة الخارقة التي جعلت منها الالفة والتكرار شيئاً لا يهتم له الغافلون ، فلفت القرآن الأنظار إليها ، ثم ذيلت الآية بقوله :

« إنه بكل شيء بصير » :

والمعنى أنه لكونه اتصف بتلك القدرة والابداع والرحمة والصفات التي ظهرت آثارها في خلق الطير فهو سبحانه يعلم كيفية

---

(١) مفاتيح الغيب ج ٣٠ ، ص ٧١ ·

إبداع المُبْدَعات ، وتدبير المصنوعات ، ومنها خلقه للطير على وجه يتأتّى به جريه في جو السماء .

استنباط وفوائد علمية :

١ ـ قوله تعالى : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا » :

في هذه الآية مع وضوح المعنى المراد منها ، عمق عظيم يجعل العبارة ذات دلالة بعيدة لمن تأمل ودرس تقدم العلم .

فهذا المعنى فهمه الأقدمون بمعنى بسيط ، هو أنه جعلها سهلة لينة ، ليستقر عليها ويتمتعون بزرعها ومرافقها . ثم جاء العلم يوسع هذا المعنى ويزيد هذا الدليل الكوني عظمة ودلالة على قدرته تعالى وسلطانه ، فالأرض التي نعيش عليها ليست ساكنة بل هي متحركة تدور بسرعة عظيمة جداً ، والله ذللها مع هذا الدوران بحيث لا يتطاير ما عليها ، أو يقلقهم تحركها ، بل ان دورانها يأتي منظماً لها ولفصولها وليلها ونهارها ، كذلك جعل الله سطحها كالبساط تعلوه التربة اللينة ، ولم يكن صخوراً صلبة كما كان ينبغي أن يكون حسب تقدير العلم ، وجعلها ذلولا أيضاً بحفظ نسبة الهواء والغازات التي يتكون منها على هيئة موافقة لمصلحة الانسان ورفاهيته .

وهكذا ، مرافق ومرافق تبلغ الآلاف تمتد ارتباطاتها بالعالم الكبير ، توضح في هذا العصر بتقدم العلم هذه البدهية التي غفل عنها الناس بسبب اعتيادهم وهي آية إلهية عظيمة جاء بها القرآن بهذا التعبير الذي يزيده تقدم الزمان قوة في البرهان على عظمة الله وسلطانه ، في حين جاء تقدم الزمان والعلم معفياً على تراث الفكر الأرضي البشري ، ومبطلا العقائد الدينية التي بنيت عليه عند أمم كتابية أخرى . فكان ذلك برهاناً واضحاً ساطعاً يدل على إعجاز القرآن وحقية رسالته .

٢ ـ قوله تعالى : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » .

هذه الآية دليل على فضل الكسب وشرفه ، حيث أمر الله تعالى به عباده في هـذه الآية ، والنصوص في ذلك كثيرة جداً منها قوله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

وأخرج الطبراني وابن عدي والبيهقي في شعب الايمان عن ابن عمر رضي اللـه عنهما قال : قال رسول الله صلى اللـه عليه وسلم : « إن الله يحب المؤمن المحترف »(١) .

٣ ـ قوله تعـالى في وصف طـيران الطيور في الهواء : « صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن » .

فيه إعجاز علمي في تصوير القرآن لمشهد الطيران ، حيث عبر عن بسط الجناح في الطيران باسم الفاعل « صافات » وعن القبض بالفعل «يقبضن » ليأتي التعبير على غاية الدقة في موافقة قانون الطيران حيث ان الأصل فيه بسط أطراف الجسم الطائر في الهواء ، وهو القانون الذي بنيت عليه الطائرات الحـديثة بأنواعها ووجـدت به رياضة الطيران الشراعي . وقد عرف المسلمون هذا القانون ، لكن لم تتوفر لديهم وسائل الافادة منه في زمنهم .

وهذه عبارة الامام النسفي في تفسيره القيم «مدارك التنزيل» جلية في ذلك وفي بيان عظمة التعبير القرآني . يقول الامام عبد الله بن أحمد النسفي في تفسيره ما نصه :

« واختيار هذا التركيب ـ يعني صافات ويقبضن ـ باعتبار أن أصل الطيران هو صف الأجنحة ، لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والهواء للطائر كالمـاء للسابح ، والأصل في السباحـة مـدّ الأطراف وبسطها ، وأما القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك ، فجيء بما هو طارىء بلفظ الفعل ـ يعني لأن الفعل يدل على التجدد ـ على

---

(١) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ . وانظر جمـلة أحاديث في فضـل الكسب في كتاب الترغيب والترهيب للمنذري .

معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح » ٠

قال الله تعالى :

« أَمَّنْ هذَا الذي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إنِ الكافرونَ إلا في غُرور . أمَّنْ هذا الذي يَرْزُقُكُمْ إنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ، بلْ لَجُّوا في عُتُوٍّ ونُفُور ».

سورة الملك (٢٠ ـ ٢١)

اللغــة :

أمَّنْ : مركبة من كلمتين : « أم » و « مَنْ » ، أدغمت الميم في الميم فصارت « أمَّنْ » ٠ « أم » هنا منقطعة ٠ وأم المنقطعة تفسر بكلمتي« بل» وهمزة الاستفهام ٠ وبل هنا للاضراب الانتقالي. أما همزة الاستفهام فلا مجال لتقديرها هنا ، لأن بعدها « مَنْ» وهي للاستفهام٠ والاستفهام لايدخل على الاستفهام في المعروف عندهم(١) ٠

غُرور : خداع ٠

أمسكرزقه: أي منعه ، والفاعل ضمير مستتر يرجع الى الله ٠ أي إن منع اللـه الرزق عنكم ٠

لَجُّوا : اللجاج التمادي والعناد في تعاطي الفعل المزجور عنه ، لجوا . أي تمادوا وأصروا معاندين ٠

عُتُوٌّ : طغيان ٠

(١) انظر روح المعاني للآلوسي ج ٩ ص ١٣٢ ٠

بعد ما أوضح القرآن معجزة الطيران التي صدّرها بالاستفهام التوبيخي على ترك التأمل فيما يشاهدونه منها بقوله : « أولم يروا... »، انتقل الى تبكيت الكافرين بلجوئهم الى مَنْ لا حولَ له ولا قوة فقال : « أمَّن » فاستعمل « أم » المنقطعة بمعنى بل فقال :

« أمَّنْ هذا الذي هُو جُنْدٌ لكم ... » :

وكأنه يقول : كفى ما بينا من دلائل قدرة اللـه تعالى وسلطانه ، ننتقل بكم الى أمر آخر ننظر حالكم : أرونا هذا السند « الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن » أي يمنعكم من عذاب الله تعالى ، وهذا الأسلوب فيه توبيخ لهم بالاستفهام الذي يفيد النفي ، أي لا أحد ينصركم من دونه تعالى ، كما أنه تسفيه لهم لاستنادهم الى مخلوق لا حول له ولا طول .

وكان أصل العبارة « من ينصركم من دون الرحمن » ، لكن عدل الى هذا الأسلوب « أمن هذا الذي ... » ليشير الى تحقيره في قوله « هذا الذي ... » والمعنى من هذا الحقير الذي هو في زعمكم جند لكم ينصركم من دون الرحمن »[1] .

ومن ثم سَجَّل عليهم الحماقة في صنيعهم هذا فقال :

« إن الكافرون إلا في غرور » :

فجاء تسجيلاً في غاية القوة والتأكيد في هذا الحصر :

« إن الكافرون إلا في غرور » :

أي ما هم إلا في غرور ، ثم بالتعبير بقوله «في غرور » ، فقد أشار

---

(١) أخذنا في هذا العرض مما حققه في تفسير الآية العلامة أبو السعود ، فارجع إليه للاستزادة ، ومعرفة رأيه في نقد الآراء الأخرى .

بذلك إلى إحاطة الغرور بهم إحاطة الظرف بالمظروف ، فهم غارقون في الضلال والتعلل بالأوهام ·

ومن ثم انتقل بهم الى ناحية أشد التصاقاً باحساسهم لاضطرارهم اليها كل وقت اضطراراً أظهر ، وهي الرزق ليسألهم على نفس الأسلوب :

« أمَّنْ هذا الذي يَرْزُقُكُمْ إنْ أمْسَكَ رِزْقَه » :

أيْ بل من هذا الحقير الذي يرزقكم إن أمسك الله عز وجل رزقه عنكم · فالرزق إنما يأتي بارادة الله عز وجل وحده ، من أول مباديه الى أن يجنيه هـذا الانسان الكفور ، فالأسباب الأولى في نظـام العالم وتركيب الأرض والهواء وطبيعة العناصر الأرضية والترابية والزراعية والحيوانية كلها كانت بخلق الله قبل أن يوجد الانسان وفوق قدرة هذا الانسان ·

أما ما يتوهمه الانسان من جهده وعمله فليس إلا جنياً لحصاد قدرة الله يجنيه أيضاً بما أعطاه الله من القدرة والعلم وغير ذلك ···

وهكذا كل ذرة رزق هي من صنع الله وبامداده ، فماذا يصد هذا الانسان بعد ذلك عن عبادة الله والانقياد له إلا العناد والتجبر ، لذلك ذيل الآية بقوله :

« بَلْ لَجُّوا في عُتُوٍّ ونفور » :

أي دعهم إنهم متمادون في عصيان وطغيان ، وفي نفور فظيع من الحق ، تَلَبَّسَ بهم حتى ظلوا في هـذا الإعراض المتمـرد النافر . فأضرَبَ بحرف « بل » عن خطابهم ، والتفت عنهم ، ليسجل عليهم مافي نفوسهم من الوصف الذميم·

قال الله تعالى :

« أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِباً على وَجْهِهِ أَهْــدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً على صراطٍ مستقيم ، قُلْ هُوَ الذي أنشأَكُمْ وجعلَ لكُمُ السمعَ والأَبصارَ والأَفئِدَةَ قليلاً ماتشكُرون. قل هُوَ الذي ذَرَأَكُمْ في الأَرضِ وإليهِ تُحشَرون . ويقولُونَ متى هذا الوعدُ إنْ كنتُمْ صادقين . قل إنما العلمُ عند الله وإنما أنا نذيرٌ مبــين . فلما رأَوه زُلْفَةً سِيئَتْ وُجوهُ الذين كفروا وَقِيلَ هذا الذي كُنتُمْ به تَدَّعُون . قُلْ أَرَأَيتُمْ إنْ أَهلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْرَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الكافرينَ مِنْ عذابٍ أَليم. قُلْ هُوَ الرحمنُ آمنـا به وعليه توكلنا فَسَتَعْلَمونَ مَنْ هُوَ في ضلالٍ مبين . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إن أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْرا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بماءٍ مَعين »

سورة الملك (٢٢ ــ ٣٠)

اللغــة :

مُكِبّاً على وجهه: الكَبُّ إسقاط الشيء عـلى وجهـه . مُكِبّاً ساقطاً على وجهه .

وقيل : منكساً رأسه . والأول أولى ، لأن أصل الفعل كَبَّ معناه إسقاط الشيء على وجهه كما في المفردات . وأكب خرَّ على وجهه .

سَوِيّاً : معتدلا قائماً .

الأَفئِدَة: آلات التفكير والتعقل ٠

ذَرَأَكُمْ: فُسِّر بمعنى : نشركم في الأرض وفرقكم على ظهرها وهو رأي ٠

زُلْفَةً : قريباً ، وقال الحسن : عيانا ، وهو قريب من الأول لأن القريب يُرَى عِيانا ٠

سيئت : أصل السوء القبح ٠ والسيئة ضد الحسنة ، يقال : ساء الشيء يسوء فهو سيء إذا قَبُح ٠ وسيءَ يُساءُ إذا قُبِّح ، وهو فعل لازم ومتعد ٠

تَدَّعُون: من الدعاء : أي تطلبونه وتستعجلون به الدنيا ٠

غَوْراً : غائراً في الأرض ، ذاهبا في بطنها ٠

مَعِين : من قولهم : مَعَنَ الماءُ : جرى ، مَعِين جار ٠ وقيل : ظاهر تراه العيون سهل المأخذ ٠ مأخوذ من العين ، والميم زائدة

المعنى والأسلوب :

بعد أن بيّن في الآيتين السابقتين عناد الكافرين واستكبارهم وانخراطهم في مهاوي الغرور العمياء ضرب في مطلع هذا النص مثلا للكافر والمؤمن الموحد ، تنبيهاً على قبح ما وصف به الكافر وفظاعة أثر ذلك الوصفعليه ، وتبياناً لحال الفريقين في وضوح الرؤية عند المؤمن وظلمة القضية التي في قلب الكافر والملحد ، لذلك عطف بحرف الفاء فقال :

« أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى » :

فالقرآن ضرب في هذه الآية للكافر والملحد مثلا بالذي يمشي وهو مُكِبٌّ أي ساقط على وجهه ، لأنه يعثر فيكل ساعة ، ويسقط على وجهه في كل خطوة ، لتوعر طريقه واختلال قواه ٠

وهذا مَثَل" مادي يبين حقيقة حال الكافر والملحد وأنه ليس على بصيرة ولا يقين له بعقيدته • فصورت الآية الحقيقة النفسية لهؤلاء بأنهم لا براهين عندهم تثبت معتقدهم اثباتاً صحيحاً وتنير طريقهم ، ولا ميزان عندهم يزنون به الأمور والقضايا ، وإنما يعيشون على أحلام وأوهام ، لذلك فان الكافر والملحد قلق دائماً من براهين الايمان والتوحيد ، لايريح بالتسليم لأهلها ، ولا يستريح بالاذعان لها والاهتداء بضيائها ، فهل هذا أهدى :

« أمن يمشي سَوِيّاً على صراط مستقيم » :

إن المؤمن « يمشي سوياً » معتدلا مستقيم القامة يرى كل شيء أمامه ، وهو في طريق مستقيم لا عِوَجَ فيه ، ولا خفاء لشيء منه ، فكل ما يعرض له من الأمور والقضايا يسلك فيه الطريق السويّ الذي هداه الله إليه « اهدنا الصراط المستقيم » •

ثم قرر وضوح هذه الرؤية الايمانية بأنها على غاية الجلاء تشهد بها على الانسان نفسه فقال :

« قُلْ هُو الذي أنْشَأَكُم وجعل لكُمُ السمعَ والأبصار والأفئِدَةَ قليلاً ما تشكرون » :

ذكر أولا في هذه الآية خلق أنفسهم ، فهذا الخلق العظيم المحكم الذي عليه الانسان لا بد له من خالق ، وليس من المعقول أن عدماً يخلق موجوداً ، فان هذا من أوضح المستحيلات ، ثم ذكر جل شأنه جعل السمع والأبصار والأفئدة ، أي العقول للناس ، وكل واحد فيه الآيات الكثيرة على عظمة الخالق وتوحيده سبحانه يزيد العلم الحديث استدلال القرآن بها قوة ويقيناً •

لذلك ذكّرهم بحقيقة الحشر التي تنتظرهم لتظهر فيها نتيجة الابتلاء الذي ذكر في أول السورة :

« قُلْ هو الذي ذَرَأَكُم في الأرض وإليه تُحْشَرون » :

فبين اختصاصه بخلق الناس واظهارهم في هذه الدنيا بقوله : « هو الذي خلقكم » بتعريف طرفي الجملة الاسمية « هو » و « الذي » وهو من أدوات الحصر أي ان الله تعالى هو وحده لا غيره خلق هذا الانسان على ظهر الأرض لحكمة عظيمة هي الابتلاء ، كما ذكرت السورة في أولها وهو سيحشرهم :

« وإليه تُحْشَرون » :

أفاد أن الحشر مختص بكونه الى الله لا إلى غيره بتقديم الجار والمجرور « إليه » على فعل « تحشرون » الذي يتعلق به الجار والمجرور. أي إليه وحده دون غيره تحشرون . تُجمعون بالبعث بعد الموت ، ومن قدر وفعل الخلق الأول قادر على الاعادة في الحشر ، فهو دليل ضمني احتوت عليه الآية .

« ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » :

إنه مجرد سؤال للشغب والتشكيك في أدلة الحشر القطعية ، سؤال لا جدوى منه ، لأن هذا اليوم آت لا ريب فيه ، والاستعداد له هو المطلوب ، قَرُبَ ذلك اليوم أم بعد ، وقد اقتضت حكمته تعالى إخفاء موعده عن الناس ، لذلك جاء الجواب :

« قُلْ إنما العلمُ عِندَ اللهِ وإنما أنا نذيرٌ مبين » :

هذا وعد لا يعلمه أحد إلا الله ، وليست وظيفة النبيّ أكثر من الانذار ، أي إعلام الناس بمخاطر مخالفاتهم وأعمالهم ، وسؤالكم هذا سؤال العناد والتكبر ، الذي لا ينفع مع صاحبه حجة ، ولا برهان ، لذلك عقب بقوله :

« فلما رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجوهُ الذينَ كفروا » :

هددهم بما يلقون من هذا اليوم ، وعطف الكلام بحرف الفاء « فلما رأوه زلفة » أي قريباً منهم .

وأكثر المفسرين على أن المراد بقوله «رأوه» معناه العذاب الموعود وهو عذاب الآخرة الذي دل عليه قوله « تحشرون » .

وقال بعضهم : المراد الحشر ، وهو الظاهر بحسب عود الضمير للأقرب المذكور قبلُ في قوله « تحشرون » .

والراجح ـ والله أعلم ـ ا نالمراد رؤية العَذاب ، لأنه المتبادر ، أي أنهم لما رأوا العذاب قريباً :

« سِيئَتْ وُجوهُ الذين كفروا » :

أي ظهرت عليهم المساءة بأن غشيتها الكآبة ورهقها القتر والذلة .

وكان الظاهر أن يقول « سيئت وجوههم »كما قال في الأول «رأوه»، لكن عبر عنهم باسم الموصول « سيئت وجوه الذين كفروا » فوضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بالكفر ، ولبيان أنه هو السبب والعلة في حلول المساءة بهم وبأكرم شيء منهم وهو « وجوه الذين كفروا » .

قال ابن عباس : « اسودت وعلتها الكآبة والقترة » .

ووجهوا بهذا القول :

« هذا الذي كُنْتُمْ به تَدَّعون » :

أي تطلبونه في الدنيا ، استعجالا واستهزاء .

وقال ابن عباس « تكذِبون » وهو تفسير لقوله « تَدَّعون » من الادّعاء قال القرطبي : « وتأويله هذا الذي كنتم من أجله تدعون الأباطيل والأحاديث » .

ويؤيد الأول قراءة « تدعون » بتخفيف الدال الساكنة .

وبعد أن بين تحَقُّقَ العذاب في هذه الصورة المعبرة رجع بالخطاب للكافرين يقول لهم :

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِي أو رَحِمنا » :

والرؤية هنا مجاز عن الإخبار ، لأنها سبب للإخبار ، وفيها تَحَدٍ لهم أن يأتوا بخبر يقيني أنه ان افترض أن الله أهلك النبي والمؤمنين ووقع ما يتمنى أعداؤهم بهم من الهلاك أو رحمنا فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم جزاء على كفركم • فمن يجيركم من عذاب الله ؟! أي لا يخلصكم أحد ، فخلصوا أنفسكم بالتوبة والانابة والرجوع الى دينه •

قال الآلوسي : « وأقيم الظاهر مقام المضمر المخاطب دلالة على أن موجب البوار محقق ، فأنى لهم الإجارة !! •

والظاهر أن جواب الشرط والمعطوف عليه شيء واحد ، وحاصل المعنى : لا مجير لكم من عذاب النار لكفركم الموجب له ، سواء انقلبنا الى رحمة الله تعالى بالهلاك كما تتمنون ، لأن فيه الفوز بنعيم الآخرة ، أو بالنصرة عليكم ، كما نرجو ، لأن في ذلك الظفر بالبغيتين •

ويتضمن ذلك حثهم على طلب الخلاص بالايمان ، وان فيما هم فيه شغلا شاغلا عن تمني هلاك النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين • وهذا أَوْجَهُ أوْجُهٍ ثلاثة ذكرها الزمخشري »(١) •

وفي هذه الآية استدلال بديع يزحزح المعاندين عن جمودهم ، حيث يقرر لهم أن المؤمنين على أي حال ليسوا بخاسرين ، بل هم في جناب رحمته تعالى ينتظرون إحدى الحسنيين • أما الكافرون فليس لهم إلا الهلاك ، ولا نجاة لهم من العذاب ، لا ينجيهم منه أحد ألبتة • وهذا

---

(١) عن روح المعاني وراجع ، الكشاف للزمخشري •

يشير الى أن العاقل يجب عليه أن يلتزم جانب الايمان ، لأنه سيؤدي به الى النجاة على كل حال .

وقد استدل بعض الفلاسفة والحكماء على وجوب الايمان بقريب من هذا ، وذلك اننا إذا آمنا بالله عز وجل إيماناً حقاً ضمنا حياة أبدية ونعيما باقياً لا ينفد ، أما الكافر فهو خاسر على أي حال . وقد عبر المعري عن ذلك بقوله :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لابعث بعد الموت، قلت : إليكما

إنْ صحّ قولكمافلست بخاسر أو صحّ قوليفالخسَار عليكما

وأيضاً فان مصير المؤمن التمسك بالفضائل والأعمال الخيرة البارة واجتناب الرذائل والمفاسد ، وهو سلوك يصلح به نفسه ومجتمعه ، أما الكافر فانه يتفلت من الفضائل ومما فرض الله عليه ، فهو خاسر على أي حال ، وذلك ما أشارت اليه الآية في هذه العبارة :

« فمن يجير الكافرين من عذاب أليم » :

فان الكلام كان موجهاً اليهم بصيغة الخطاب ، فذكرتهم بهذا الأسلوب الغائب على سبيل الالتفات لتشير لهم أنكم موسومون بسمة العذاب ، وهي الكفر الذي لا ينجو صاحبه لفظاعة جريرته .

ثم يخاطبهم القرآن خطاباً ثانياً يترقى فيه من التهديد السابق الى الجزم باطمئنان النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين :

« قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا » :

فالله عز وجل من أعظم صفاته الرحمة،ومن أعظم أسمائه الحسنى الرحمن ، أي البالغ الرحمة في حق عباده ، وقد آمنا به واعتمدنا عليه دون غيره في أمورنا ومصيرنا ، ومَنْ كان كذلك فهو ناج لا محالة ، ومضاده هالك لا محالة ، وقد ألْمَحَ الى ذلك تلميح الواثق في هذه الجملة:

« فستعلمون من هو في ضلال مبين » ·

وأخيراً يوجه القرآن إليهم في ختام السورة هذا الخطاب الذي يهز النفس من الأعماق :

« قُــلْ أرَأيْتُــمْ إنْ أصْبَحَ ماؤُكم غَوْراً فَمَنْ يَأتِيكُمْ بماءٍ معينٍ » :

وهذا إلزام لهم بالضعف الانساني عن أبسط شيء من ضروريات الحياة ، وهو الماء الذي جادت به العناية الإلهية على الناس ، حتى ظنوا أن أمره سهل ·

وترتبط الآية بما قبلها بارتباط قوي حيث أشار في الآية السابقة الى أنه يجب أن يتوكـل عليه لا عـلى غـيره ، وذكر الدليل عليه هنا فقال تعالى :

« قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين » :

فوجه إليهم هذا السؤال ، وهو استفهام انكاري : « إن أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْرا » : أي ذاهباً في أعماق الأرض :

« فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعين » :

أي عَذْبٍ كثيرٍ سهل المأخذ ·

والمقصود أن يجعلهم مقرين ببعض نعمه ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر · أي أخبروني إن صار ماؤكم ذاهباً في الأرض « فمن يأتيكم بماء معين ؟ » ، فلا بد وأن يقولوا الله ، فيقال لهم حينئذ : فلم تجعلون من لا يقدر على شيء أصلا شريكاً له في العبودية ؟ !!! وهو سؤال يحمل في طياته الجواب لينطق به كل من يسمع هذا السؤال بلسان الفطرة وبلسان العقل السليم وهو يستشعر يد الله عليه في كل شؤونه ويحسُّ افتقاره إليه ، ليقر ويعتقد ما صُدِّرَت به السورة فيقول : لا أحد يأتي به إلا « الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » ·

تلخيص أهداف السورة :

بهـذه المعاني التي انتهت بها سورة الملك تقرر السورة تقريراً مؤكداً عقيدة مهمة في الدين الاسلامي : هي توحيد اللـه عز وجل في أفعاله ، أي اعتقاد أنه الفاعل المطلق بيده السلطان القاهر والتصرف النافذ في كل شيء ، ورسخت السورة ذلك بما عرضت من دلائل الآفاق والأنفس القاطعة الشاهدة بعظمته تعالى ونفاذ قدرته وإرادته ، مـع ما أشارت إليه من حقائق الكون إشارات تفتح القلب ، وتوسع آفاق الانسان توسعاً تزيده الأيام عمقاً وإعجازاً لهذا القرآن ·

والسورة بهذا علاج للانسان من وهدة المادية التي تغره بظواهر الحياة الدنيا فيغلو فيها ويهبط في أهدافه وَيَذِلُّ لاعتبارات المادة ومتعتها وقشورها ·

تعالج السورة تلك الآفات في النفس الانسانية لتسمو بالانسان الى الحقيقة العظمى التي تسعى المادية الغافلة الجاهلة لتغطية عين الانسان عنها ، عن حقيقة السلطة الالهية التي تدبر كل شيء في العالم · وتغرس السورة ذلك غرساً عميقاً في تفكير الانسان وفهمه للكون ، وفي شعوره وتقـديره لأموره ، وفي عواطفـه وانفعالاته ، ليتحول ذلك الى سلوك عملي يترجم العقيدة ويعبر عنها باتباع النهج الرباني والتمسك به ·

فضل سورة تبارك :

وقد وردت الأحاديث في فضل سورة تبـارك وما أُعِـدَّ لقارئها بتـدبر وتمعُّنٍ من الأجر العظيم والمنزلة الكبـيرة ، وذلك لعظمـة مضمونها في الأثر الاعتقادي والسلوكي على الانسان ·

عن أبي هريرة عن رسول اللـه صلى الله عليه وسلم قال : « إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غُفِرَ له : تبارك الذي بيده الملك » · أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذي ·

وعن أنس رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة : تبارك الذي بيده الملك » أخرجه الطبراني والضياء .

وعن عبد الله بن عباس في قصة رجل من الصحابة قال : يا رسول الله ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر ، فاذا قبر انسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فقال صلى الله عليه وسلم « هي المانعة هي المنجية من عذاب القبر » أخرجه الترمذي(١) .

• • •

(١) انظر هذه الأحاديث وغيرها في تفسير ابن كثير والدر المنثور ، وغيرهما .

تفسير سورة القلم

تعريف عام بالسورة :

سورة « ن والقلم » سورة مكية كلها ، نزلت في الفترة التي اشتدت فيها حملة قريش ضد النبي صلى الله عليه وسلم ، وراحت تثير الاشاعات المختلفة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وتلفق الأكاذيب ٠

فنزلت السورة تكذب اتهامهم إياه صلى الله عليه وسلم بأنه مجنون ، وتبين عظمته صلى الله عليه وسلم وفضله الذي لا يقاس بشيء « إنك لعلى خلق عظيم » ٠ ثم تبين دخيلة هذه النفوس التي اختلقت هذا البهتان ، وذلك لما مردت عليه من مساوىء الأخلاق ٠

ثم حذرت السورة أهل مكة أن تزول عنهم هذه النعم التي يرفلون فيها ، بِمَثَل واقعي يعرفونه ، هو قصة أصحاب الجنة الذين بدلوا ما كان عليه أبوهم من التصدق على الفقراء وإعطائهم من خيرات الجنة . فبدل الله عليهم النعمة والجنة فأصبحت كالصريم ٠

ثم تكشف السورة إفلاس المشركين من كل مستند ، بأسلوب الاستفهام الانكاري « أم لكم كتاب فيه تدرسون ٠٠٠ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة ٠٠ » ٠

ومن ثم اتجهت السورة بالتحذير والوعيد ، لقوم لا ينفع فيهم برهان ، وختمت ببيان مزيد حقد كفرة مكة على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إنهم ليكادون يزلقونه بأبصارهم لما سمعوا هذا القرآن ، حسداً ، وعداء ، والحال ان هذا القرآن « ما هو إلا ذكر للعالمين » ليهتدوا به ، وبالتالي فان هذا الرسول هو رسول الله الى العالمين ، وهو على غاية العظمة والفضائل التي لا تضاهى ، حيث اصطفاه الله تعالى لهذا المنصب العظيم ·

مناسبة السورة لما قبلها :

ترتبط سورة « ن » بسورة الملك التي قبلها بأكثر من وجه من وجوه المناسبات ، نذكر منها :

١ ـ إن سورة الملك تقرر التوحيد ، وهذه تقرر النبوة ، فهي تكمل سورة الملك ، بتقرير الشطر الثاني من كلمة التوحيد : لا إله إلا الله محمد رسول الله ·

٢ ـ تبرز سورة الملك توحيد الأفعال ، وأنه سبحانه هو الفعال صاحب السلطان المطلق النافذ في كل العوالم · ومن ذلك بعثه للنبي صلى الله عليه وسلم الذي تحدثت عنه سورة القلم ·

٣ ـ في آخر سورة الملك : « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين » :

اشهاد لكل معاند أن الذي يأتي بالماء هو رب السماء · والماء أساس للحياة ، للأبدان ، فكذلك أيضاً هو ينزل الوحي الذي هو أساس حياة الأرواح والقلوب ، فما الاستغراب من تنزيل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم ، إلا من جهل المنكرين وعنادهم ·

بسم الله الرحمن الرحيم

« ن · والقلم وما يسطرون · ما أنتَ بنعمةِ ربكَ بمجنون ، وإنَّ لكَ لأجراً غيرَ ممنون ، وإنكَ لعلى خُلُقٍ عظيم » ·

(سورة ن : ١ ـ ٤)

المفردات واللغة :

ن : يجري في هـذا الحرف « ن » ما هو معروف في اختـلاف آراء العلماء في الأحرف المقطعة ، في فواتح السور ، وأن رأي المحققين فيها أنها إشارة الى إعجاز القرآن ·

لكن ورد في خصوص هـذا الحرف « ن » ههنا روايات عن بعض الصحابة والتابعين اشتهر منها ماروي عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما أخرجه ابن جرير الطبري[١] وغيره عن ابن عباس قال : « أول ما خلق الله القلم ، قال : اكتب · قال : وما أكتب قال : اكتب القدر فجرى بما يكون من ذلك اليوم الى يوم قيام الساعة ·

ثم خلق « النون » ورفع بُخار الماء ، ففتقت منه السماء ، وبسطت الأرض على ظهر النون ، فاضطرب النون فمادَتِ الأرضُ ، فأُثْبِتَت بالجبال ، فانها لَتَفْخَرُ على الأرض » ·

(١) ج ٢٩ ص ٩ ـ ١٠ وانظر تفسير ابن كثير ·

وفي رواية أخرى : « ثم قرأ : « ن والقلم وما يسطرون » ٠

فقد فسر ابن عباس النون هنا بأنه « الحوت » ٠ وأنه حوت عظيم حامل للأرض !!

وهو تفسير بعيد نشك في صحة نسبته الى هذا الحبر ، ونجد من الصعوبة اعتباره تفسيراً لهذا الحرف « ن » وذلك لأسباب تقدح في السند والمتن ، منها :

١ ـ ان الرواية عن ابن عباس لا يخلو شيء من اسنادها من الضعف القادح فيها ٠

٢ ـ ان الروايات مضطربة في تفسير هذا الحرف ٠ روي عنه «ن» الحوت كما سبق ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : « ان الله خلق النون وهي الدواة ، وخلق القلم فقال اكتبْ ٠ قال : وما أكتبُ ؟ قال : اكتب ما هو كائن الى يوم القيامة » ٠

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : « ن الدواة » (١) ٠

وروي عن ابن عباس ان « ن » آخر حرف من حروف الرحمن (٢) ٠

وهذا يدل على أن ابن عباس يفسر هذه الحروف بما ارتآه المحققون، وهو أنها حروف مسرودة من حروف المعجم وذكر هذه الحروف ليبين أنها منها يتكون كلام العرب ، كما تتكون الرحمن من الر ٠ وحم ٠ ون ٠

وهكذا اختلفت الرواية عن ابن عباس ، مما يجعل قبول تفسير « ن » بالحوت أو الدواة أمراً صعباً ٠

والقلم : الواو للقسم ، والمراد بالقلم : كل قلم مما يكتب به من في السماء ومن في الأرض ٠

---

(١) راجع المطالب العالية ٠
(٢) تفسير القرطبي ج ١٨ ص ٢٢٤ ٠

ومايسطرون: وما يكتبون ·

بنعمةربك: أي برحمة ربك وفضله عليك ·

والباء للملابسة ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف حال من الضمير في الخبر ، والعامل فيها معنى النفي · والمعنى انتفى عنك الجنون في حال كونك متلبساً بنعمة ربك، أي منعماً عليك بما أنعم من حصافة الرأي والنبوّة والشهامة ·

ممنون : مقطوع ، يقال : مننت الحبل إذا قطعته ·

المعنى والأسلوب :

بهذا الحرف « ن » افتتحت السورة ، وهو افتتاح عظيم المناسبة لغرضها العام الذي يهدف الى بيان رفعة شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودَحْضِ تُرّهات أعدائه ، حيث أشار بهذا الحرف الى إعجاز القرآن ، ودلالة هذا الاعجاز على حقيقة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبطلان دعوى أعدائه المكذبين ، وأنه بما أنعم الله عليه من النبوة والفضائل وأيد من المعجزات هو أعقل الناس وأكمل الناس وأحكمهم ·

ثم تلاه بهذا القسم « والقلم وما يسطرون » واطلاق الكلام في قوله « والقلم » يتناول بظاهره كل قلم ، مما يكتب به أهل السماء وأهل الأرض،فأقسم الله تعالى به لعظمة شأنه، لما فيه من البيان، كاللسان بل ان القلم قد يبلغ مالا يبلغه اللسان، فانه ينزل الغائب منزلة المخاطب فيخاطب البعيد كما يخاطب القريب ، ويخاطب المتفرقين كما يخاطب المجتمعين ·

«ومايسطرون» أي مايكتبه الكاتبون، من أهل السموات والأرضين.

وفسر بعض العلماء القلم بالقلم الذي كتب به اللوح المحفوظ ، وهو عالم عظيم لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى ، وفسر « وما يسطرون »

بما تكتبه الحفظة من أعمال بني آدم ، وكل هذا داخل في الآية ، ويمكن أن نعتبر تفسيرهم هذا بياناً لبعض مدلولها ، وليس تخصيصاً للآية ؛ لأنه لا يصلح تخصيص الآية إلا بدليل ٠

والقلم الذي نكتب به والكتابة التي نتعاطاها نعمة عظيمة من الله على عباده ، حفظت بها مصالح الناس الدينية والدنيوية ، وضبطوا بها أمورهم ، ودونت معارف الانسان وحفظت من الضياع والنسيان ؛ وكان بذلك تقدم العلوم والمعارف والحضارات ، ولولا ذلك لظلت الانسانية في البدائية والسذاجة ٠

وهذا القسم يتجاوب مع إعجاز القرآن ويدل على اعتناء هذا الكتاب الكريم بالعلم اهتماماً عظيماً ، يزيد من إعجاز هذا القرآن الذي نزل على هذا الرسول الأمي في قوم أميين ، وإذا كان القرآن يعطي العلم هذه المنزلة فهو بذلك يكرم العقل كل التكريم لأنه آلة العلم ، وذلك لا يأتي إلا من داعية سما الى أعلى آفاق العقل والحكمة ٠

« وإنَّ لكَ لأَجْراً غيرَ مَمْنون » :

أي بل لك يا رسول الله الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد على ابلاغك لرسالة ربك الى الخلق وصبرك على أذاهم ٠ وهذا كقوله تعالى « عَطاءً غيرَ مجذوذ » ٠ وقوله « فلهم أَجْرٌ غيرُ ممنون » أي غير مقطوع عنهم ٠

وقال مجاهد : « غير ممنون » ، أي غير محسوب . قال ابن كثير « وهو يرجع الى ما قلنا » ٠

وقد دلت الآية على فخامة ما أعد الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بأساليب متعددة اشتملت عليها الآية على وجازتها ٠ نذكر منها :

التأكيد بان ، واللام في قوله : « لأجراً » ٠

ومنها التنكير في قوله « أجراً » فانه هنا يفيد التعظيم ، أي ثواباً عظيماً لا يُقَادَرُ قَدْرُه ، ولا تحد حدوده ٠

ومنها : وصفه بالدوام في قوله « غير ممنون » فوصفت ثوابه بأنه مع كونه عظيماً لا يحاط به ، فانه دائم لا ينقطع ، وذلك غاية ما يكون عليه الثواب الجزيل والاكرام ٠

وهذا يدل بالتضمن واللزوم على فخامة شأنه صلى الله عليه وسلم وعظمته ، وهو ما جاءت الآية التالية تقرره وتؤكده بأبلغ البيان :

« وإنك لعلى خلق عظيم » :

يثني الله تعالى في هذه الآية الكريمة على نبيه ثناء عظيماً ، يصفه بغاية الفضائل والكمالات في صفات الانسانية وآدابها وسجاياها ٠ وقال الرازي : « اعلم أن هذا كالتفسير لما تقدم من قوله « بنعمة ربك ». وتعريف لمن رماه بالجنون بأن ذلك كَذب ، وذلك لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرة منه ، ومن كان موصوفاً بتلك الأخلاق والأفعال لم يجز إضافة الجنون إليه ٠٠٠ » ونقول بل انه يكون أعقل العالم وأكمل الخلق صلى الله عليه وسلم ٠

وقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت : « كان خلقه القرآن » أخرجه مسلم(١) وغيره ٠

وقال ابن عباس المعنى « وانك لعلى خلق عظيم » يعني الاسلام ، وكذا قال مجاهد وجماعة من التابعين(٢) ٠

وهذا الثناء هنا جاء في غاية المناسبة لأنه بعد أن نفى عنه ما قاله الآفكون ، أثبتت له غاية الفضل والكمال ، وذلك يدل على أنه صلى الله

---

(١) مسلم في المسافرين « باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض » ج ٢ ص ١٦٨ ـ ١٧٠ وأبو داوود في التطوع وباب في صلاة الليل ٠

(٢) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٢١٤ طبع الشعب والطبري ج ٢٩ ص ١٢ ـ ١٣

عليه وسلم كان على أعلى مراتب العقل ورجاحة الحكمة ، لأن عظمة الخلق لا يمكن أن تأتي إلا من إنسان في غاية قوة الارادة وغاية النبل حتى يستطيع أن يتحلى بمكارم الأخلاق ·

وفي هذا أيضاً تثبيت قلبه عليه السلام لأن وصفه بذلك يعلن كرامته وعلو مرتبته ، مُقابل صبره وتحمله لذلك الأذى الشديد ، وأنه ازداد بذلك عظمة وقدراً فيجعله ذلك أشد تحملاً وصبراً ·

استنباط الفوائد :

١ ـ ابطال ما افتراه الكافرون في حقه صلى الله عليه وسلم في قولهم «مجنون» وقد أوردت الآيات هذا الإبطال على أبلغ وجه وآكده ، حيث أقسمت عليه بأدوات العلم والكتابة « والقلم وما يسطرون » وأشارت الى ما هو معروف من كماله صلى الله عليه وسلم في قوله « بنعمة ربك » ·

٢ ـ أنه صلى الله عليه وسلم كان في الذروة العليا من الفضائل النفسية والكمالات الخلقية لقوله « وإنك لعلى خلق عظيم » فقد بينت الآية أنه صلى الله عليه وسلم ، في غاية الذروة العليا والفضل من مكارم الأخلاق ، بوسائل تعبيرية بليغة كثيرة ·

فقد جاءت الآية بهذا التأكيد « إنك » وحرف اللام « لعلى » الذي يزيد التأكيد قوة وعبرت بالجملة الاسمية التي تفيد ثبوت هذه الصفة له ثبوتاً راسخاً على وجه الثبات والدوام الذي لا ينفك عنه أبداً صلى الله عليه وسلم ·

قال تعالى :

« فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ، بِأَيِّكُمُ المَفْتُونُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ، فلا تطع المكذبين ، ودُّوا

لو تُدْهِنُ فَيُدْهِنون ، ولا تُطِعْ كُلَّ حلاَّفٍ مَهِين ، هَمّازٍ مشّاءٍ بِنميم ، مَنَّاعٍ للخير مُعْتَدٍ أثيم ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلك زَنيم ، أَنْ كانَ ذامالٍ وبَنين إذا تُتْلَى عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأولين ، سَنَسِمُه على الْخُرطوم ».

(سورة ن : ٥ ـ ١٦)

اللغـــة :

بأيكم : الباء في قوله « بأيكم » زائدة على ما اختاره كثير من المفسرين. والمعنى فستبصر ويبصرون أيكم المفتون • ويؤيد ذلك أن المراد بالبصر هنا البصر القلبي الذي هو العلم •

المفتون : المجنون الذي فتنه الشيطان •

تُدْهِنُ : الادهان التليين ، ويستعمل فيما لا ينبغي له التليين •

فيدهنون: هكذا باثبات النون • وهو يدل على أن « يدهنون » ليس جواباً لقوله « ودوا لو تدهن » إنما هو كلام مستقل • والمعنى فهم يدهنون حينئذ ، أو فَهُمْ الآن يدهنون طمعا في أن تدهن لهم •

حلاّف : على زنة فعّال ، صيغة مبالغة من حلف فهو حالف ، أي كثير الحلف •

همّاز : مبالغة من الهمز ، أي كثير الطعن في الناس والقدح عليهم في غيابهم •

مشاءٍبنميم: كثير المشي بالنميمة بين الناس ، وهي نقل الكلام على على جهة الافساد •

عُتُلٌّ : الجافي الغليظ في أخلاقه وأموره •

زَنيم : أصل هذه الكلمة من الزَّنَمَةِ وهي جلدة زائدة تخرج من عنق الشاة وتتدلى منهـا ، فتكون بها منفردة عن مثيلاتها . ويطلق الزنيم على الـدعي ، أي الـذي يلصق نسبه بالقوم وليس منهم .

ويطلق الزنيم على المشتهر بالشر والفساد ، من اشتهار الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها . وبهذا التفسير قال سعيد ابن جبير وابن عباس وعكرمة . واختاره ابن كثير وهو الأولى بمقتضى سياق الكلام هنا .

أن كان ذا مال: قيل إنه متعلق بقوله « لا تطع » . أي لا تطع من كانت هذه مثالبه لأن كان ذا مال كثير وبنين يتقوى بهم . وقوله :

إذا تتلى عليه ....: الجملة من الشرط وجوابه مستأنفة لتبيين سبب النهي عن طاعة هذا الكافر المذكور . أي ننهاك عن طاعته لأنه إذا تتلى عليه آياتنا كفر بها .

وقيـل : « أن كان ذا مال » تعليـل للتكذيب المذكور في الجملة الثانية . والمعنى قال أساطير الأولين لأن كان ذا مال وبنين . والمراد وصفه بأنه كفور الطبـع . ويؤيد ذلك أن الظاهر من السياق بيان نقائصه وشروره للتنفير عنه ، ولبيان وجوب معاداته وعدم طاعته .

سنسمه على الخرطوم : السمة العلامة ، وسمه جعل له علامة . والميسم آلة تحمى بالنار ثم توضع على الجلد حتى يُعَلَّم بها .

الخرطوم: من الانسان هو الأنف .

والمعنى الظاهري للجملة سنضع له علامـة على أنفـه . وهو مروي عن ابن عباس .

وقال ابن قتيبة : « تقول العرب للرجل يُسَبُّ سُبَّةً قبيحةً باقية

وَسَمَهُ ميسم سوء ، أي ألصق به عار لايفارقه ، كما أن السمة لا ينمحى أثرها » ٠

وهذا هو الراجح في رأينا لأنه أليق بمقاصد السياق ، من إعلاء شأن القيم الفاضلة التي مُدِحَ بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وخِذْلانِ ضدها ، ومجازاة الباغي الذي شتم النبي صلى الله عليه وسلم بأن تفضح خلائقه السفيهة المنحطة ٠

وقال الآلوسي[1] : « ومن القائلين بأنه يكون في الدنيا من قال هو وعيد بما أصابه يوم بدر ، فاز خطم فيه بالسيف ، فبقيت سمة على خرطومه وروي هذا عن ابن عباس ٠

والمعروف في كتب السير والأحاديث أن أبا جهل قتل يوم بدر ، والباقين ما عدا الحكم ماتوا قبله ، فلم يُسَم أحد منهم بذلك الوَسْم وكذا الحكم لم يعلم بأنه وسم بذلك ، وإن كان لم يمت قبله » ٠

المعنى والأسلوب :

بعد أن أبطلت الآيات السابقة ما افتراه الأعداء على النبي صلى الله عليه وسلم ، وبينت أبلغ بيان أنه على أعلى درجات الكمال والفضل والعقل ، قررت ذلك ووجهت الخطاب الى النبي صلى الله عليه وسلم : « فستبصر » أي فستعلم يا محمد وسوف يعلم أعداؤك من هو المفتون الذي فتنه الشيطان عن الهداية والحق ، وعن استواء التفكير والعقل ٠ وهذا رد على عدو الداعية الى الحق ، مليء بالثقة والقوة في الحكم عليه بأنه هو الضال الذي فتنه الشيطان ، حتى طاش عقله وفقد رشده ٠ وقد أكدت الآيات ذلك في هذه الآية « إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » هكذا بهذا التأكيد في إثبات علمه عز وجل ، وبأنه

---

(1) ج ٩ ص ١٤١ ٠

سيظهر حقيقة ذلك ، طالما أنه أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ·

قال الآلوسي[1] في هذه الآية « إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » ؛ « استئناف لبيان ما قبله ، وتأكيد لما تضمنه من الوعد والوعيد » ·

أي هو سبحانه أعلم بمن ضل عن سبيله المؤدي الى سعادة الدارين ، وهام في تيه الضلال متوجهاً الى ما يقتضيه من الشقاوة الأبدية ومزيد النكال ، وهذا هو المجنون الذي لا يفرق بين النفع والضر ، بل يحسب الضرر نفعاً فيؤثره ، والنفع ضراً فيهجره · وهو عز وجل أعلم بالمهتدين الى سبيله الفائزين بكل مطلوب الناجين من كل محذور وهم العقلاء المراجيح،فيجزي كلا من الفريقين حسبما يستحقه من العقاب والثواب...

وكأن تقديم الوعيد ليتصل بما أشعر به أولا ·

والتعبير في جانب الضلال بالفعل للايحاء بأنه خلاف ما تقتضيه الفطرة ، وزيادة « هو أعلم » · لزيادة التقرير مع الايذان باختلاف الجزاء » · انتهى ·

« ولا تطع كل حلاف مهين · هماز مشاء بنميم ···· » ·

قال الامام الرازي[2] : واعلم أنه تعالى لما نهاه عن طاعة المكذبين وهذا يتناول النهي عن طاعة جميع الكفار ، إلا أنه أعاد النهي عن طاعة من كان من الكفار موصوفا بصفات مذمومة وراء الكفر ، وتلك الصفات هي ··· الخ ··· » ·

وقد جعل بعض المفسرين هذه الآيات خاصة ببعض المشركين ، فمنهم من قال : هو الأخنس بن شريق ، ومنهم من قال : الأسود بن

---

(١) ج ٩ ص ١٣٩ ·

(٢) ج ٣٠ ص ٨٣ ·

عبد يغوث ، وقيل : الوليد بن المغيرة .... لكن نص الآيات فيما يظهر لنا يأبى التخصيص بشخص ما ، لأنها لم تقل « الحلاف المهين .. » أو « حلافاً مهيناً ... » مثلا ، بل عممت وقالت : « كل حلاّف ... » مما يدل على أنها جاءت لتفصيل ما سبق في قوله « فلا تطع المكذبين .. » . وأنها قصدت بالتضمن بيان علة ذلك ، وقد عبرت الآيات عن سقوط القيم لدى هؤلاء الناس بذكر مظاهر فاسدة ، تدل على حقائق نفسية خبيثة تستتر وراء هذه الظواهر ، وتمليها على سلوك الانسان :

« ولا تطع كل حلاف مهين » :

أي كثير الحلف ، مهين كاذب . لأن الكاذب يكون ضعيفاً جبانا فيهان عند الناس ويستذل ، فيتقي بالأيمان كثيراً ويستعين بها حتى يوثق به ويقبل قوله .

« هماز » : كثير الاغتياب للناس والطعن عليهم في غيابهم . وذلك لحقده واحتقاره على الآخرين .

« مشاءٍ بنميم » :

كثير السعي بالنميمة ينقل الكلام من هذا الى ذاك للافساد بين الناس ، فهو عدو لهم ، فاسد ، مفسد لأمورهم .

« منّاع للخير معتد » :

على الناس بالظلم وأكل أموالهم ، وانتهاك مالا يحل منهم .

« أثيم » :

في نفسه ، كثير الآثام والذنوب .

« عتلّ » :

جافي الطبع غليظ في أموره . قال الكلبي : « الشديد الخصومة في الباطل » . وقيل الشديد في الكفر وقيل : « الذي يعتل الناس » أي

يجرهم الى حبس أو عذاب . وقال علي بن أبي طالب والحسن البصري : « العتل الفاحش السيء الخلق » وقال معمر : « هو الفاحش اللئيم » .

وكل هذه المعاني داخل في مدلول العتل ، موضح لمعناه العام في اللغة في الغلظة والجفاء ، وبذاك ورد الحديث المرفوع عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن العتل الزنيم فقال :

« هو الشديد الخلق ، المُصِحُّ ، الأكول الشروب ، الواجد للطعام والشراب ، الظلوم للناس ، رحيب الجوف[1] » .

« زنيم » مريب ، يعرف بالفساد واللؤم والشر ، اشتهر بذلك حتى تميز به كما تتميز الشاة عن غيرها من الشياه بالزنمة أي زائدة الجلدة العالقة بها ... ، وحسبه ذلك شناعة والعياذ بالله أنه تخلق بهذه الأخلاق الرديئة ، والتزم بها حتى أصبحت علامة مميزة له ، ليس له شيء من خصال الخير ، أخذه الغرور بما آتاه الله من المال والولد ، فقابل نعمته تعالى عليه بالكفر ، «إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين»: فهو كفور للنعمة جحود لها كما قال في سورة المدثر : « ذرني ومن خلقت وحيدا ... ثم يطمع أن أزيد ، كلا ، إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعوداً » وهذا غاية الشر والفساد لما اجتمع فيه من المساوىء .

وهكذا رسمت الآيات معالم الدعوتين وأشخاصهما ، دعوة قيم وأخلاق ، داعيتها صاحب الخلق العظيم ، ودعوة كفر وسفاهة أصحابها تحللوا من القيم والفضائل ، فاجتمعت فيهم الخساسات والرذائل ، يتفاخرون بوجاهات أو أموال أو ظواهر لا تغني عن قيم الانسان شيئاً ، فاستحقوا الفضيحة ، وسجلوا على أنفسهم العار ، وقد توعدهم الله تعالى بأن يفضحهم ويكشف حالهم : قال :

---

(١) اخرجه أحمد بسنده عن شَهْرِ بن حَوْشَبٍ عن عبد الرحمن بن غنمٍ قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العتل الزنيم..» وهو مرسل ، وشَهْرٌ تُكُلِّمَ فيه.
وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ما يشهد له وهي مرسلة أيضاً .

« سنسمه على الخرطوم » :

أي سنبين أمر هـذا ومن عـلى شاكلته بياناً واضحاً حتى يُعرَّفَ ويلصق به عاره إلصاقاً واضحاً لا يفارقه ، كالسمة أي العلامة بالميسم على الخرطوم أي الأنف ٠

الاستنباط :

تدل الآيات على خطة خطيرة حاول أعداء الاسلام بواسطتها صرف الدعوة وتحويلها عن طريقها ، وذلك بالدعوة الى مسايرتهم في بعض ما هم عليه مما يخالف الاسلام الحنيف ، وهي خطـة يسلكها أعـداء الاسلام في كل زمان ، وقد نجا المسلمون في أول عهدهم باجتنابها والحذر منها ، وهكذا في آخر عصرهم هذا باتباعها والانخداع بها ٠

وقد لفَّقَ الغربيون وغيرهم لهذا التخطيط الخبيث أساليب منوعة وشعارات متعددة ، مثل « الحل الوسط » أو « التقريب بين الأديان » أو « محاربـة التعصب » وما يشابه ذلك من شعارات وأساليب ، حتى جرى عـلى أقـلام بعضهم الـدعوة الى الاعتنـاء بالنهضة المـدنية والصناعية و ٠٠٠

وأنه لا مانع في هذه الفترة من تأخير الاعتناء ببعض جوانب أخرى بما لا يخـل حسبما يدعي بالاسلام مما لا ندري ما تكون نتيجتـه لو أخذناه على عواهنه ٠٠ !!٠

هذه كلها أساليب وشعارات لخطة يُسْتَجَرُ بها الضعيف حتى لا يقوى ، أو يستغفل بها القويُّ حتى يَضْعُفُ وينهار ، لأن أي تقريب من غير الحق لا بد أن يكون على حساب الحق وسبباً لضياعه في النهاية ، ولهذا حذرت الآية من هذا المسلك تحذيراً قوياً ، فيه إلهاب التصميم على مخالفة المبطلين ، ومعاصاتهم في محاولاتهم هذه ٠

★ ★ ★

قال تعالى :

« إنا بَلوْناهُمْ كما بَلوْنا أصحابَ الجنـةِ إذْ أقْسَموا لَيَصْرِ مُنَّهـا مُصْبحين ، ولا يَسْتَثْنُون ، فطافَ عليها طائفٌ من ربكَ وَهُمْ نائمون ، فأصبحتْ كالصريم ، فتَنادَوْا مُصْبِحين أن اغْدُوا على حَرْثِكُمْ إنْ كُنْتُمْ صارِمين ، فانطلقوا وهُمْ يتخافَتون ، ألا يَدْخُلَنَّها اليومَ عليكُمْ مِسكين ، وغَدَوْا على حَرْدٍ قادرين فلما رأوْها قالوا إنا لضَالونَ ، بلْ نحنُ محرومون ،قالَ أوْسَطُهُمْ ألَمْ أقُلْ لكمْ لولا تُسَبِّحون،قالوا سبحانَ رَبِّنا إنا كُنّا ظالمين ، فأقبـــل بَعضُهُمْ على بعضٍ يتلاوَمُون ، قالوا يا وَيْلنا إنا كُنّا طاغين ، عسى رَبُّنـا أنْ يُبْدِلَنَا خيراً منها إنا إلى رَبِّنـا راغبُون ، كذلك العذابُ ولعذابُ الآخرةِ أكبرُ لوكانوا يعلمون ».

سورة (ن)

اللغـــة :

يصرمنها مصبحين: يقطعون ثمارها في الصباح الباكر ٠

ولايستثنون: أي لا يتركون شيئاً للفقراء ٠

وقال كثير من المفسرين : « لم يقولوا إن شاء الله » وهو غـير ظاهر لأنه لو أراد هـذا لقال : « ولم يستثنوا » ، ولأن العذاب نزل بثمارهم لمنع حق المساكين ، لا لأنهم تركوا قولة : إن شاء الله ٠٠٠ فقط ٠

طاف عليها طائف: نزل بها البلاء ٠

كالصريم: كالحقل المقطوع ثماره ٠

حرد : قصد وتصميم ٠

أوسطهم : أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم

المعنى والأسلوب :

بعد أن صورت السورة فيما سبق سقوط القيم عند أعداء النبي صلى الله عليه وسلم الذين يصدون عن الاسلام وتوعدتهم بالعار الذي سيلحقهم ولا يُفارقهم أبداً ، ضربت لهم مثلاً يوضح أن ما اغتروا به من المال والقوة والنعم التي أنعم الله بها عليهم ، إنما هو ابتلاء أي اختبار لهم ليشكروا ، لا ليبطروا ، فاذا لم يتوبوا الى الله من كفرهم وبطرهم ، أزال عنهم النعمة وعاقبهم ٠

« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » :

هذا المثل الذي ضربه الله تعالى لهم هو قصة قصيرة واقعة حدثت لأصحاب جنة أي بستان فيه أنواع الثمار والفواكه والزرع ٠

وقد ذكر غير واحد من السلف أنهم كانوا من أهل اليمن حيث كانت لقريش رحلة سنوية من أجل التجارة ، وكانت الجنة على مقربة من صنعاء ، وكان والد أصحاب الجنة يسير فيها سيرة حسنة ، ويتصدق على الفقراء والمساكين ٠ فلما مات وورثه بنوه قالوا قولة المغرور : « لقد كان أبونا أحمق إذ كان يصرف من هذه الجنة للفقراء » وتعاهدوا فيما بينهم عهداً أيدوه بالحلف .

« إذ أقسموا ليصرمنَّها مصبحين » :

أي يقطفون ثمارها مصبحين : منذ دخول وقت الصبح ، حيث لا يكون الناس خرجوا من بيوتهم ، فلا يعلم بهم فقير ولا سائل ،

ولا يقصدهم للتصدق عليه أحد ، « ولا يستثنون » من ثمارها شيئاً يتركونه للمساكين أو يعطونهم إياه ·

هنا جاء العقاب الالهي عاجلاً في وقت وطريقة لا يمكن دفعها كما تعبر الآية :

« فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون » :

قد اطمأنوا على خطتهم ، فنزل البلاء على الحديقة في هذه الحال ، وقد عبرت الآية عن هذا البلاء طاف عليها طائف فأسبغت عليه صفة كائن حي يطوف ويتقصّى ، وأفادت بذلك شموله كل محصولهم ، حيث صورته عبارتها متجولاً في أنحاء الجنة لا يترك منها شيئاً ، وأوردت لفظ « طائف » منكراً والتنكير يفيد إبهامه ، تعظيماً وتهويلاً لما أصاب الجنة(١) ·

« فأصبحت كالصريم » :

مادة الصرم في أصلها تدل على القطع · وأطلقت الصريم في اللغة على عدة معان ، فُسّرت بها الآية :

وهذه الأقوال تتلاقى أخيراً في المقصود الذي ذكرناه ، واللغة تحتمله ولا تأباه ·

« فتنادوا مصبحين · أن اغدُوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وغدَوا على حرد قادرين ··· » ·

تصور هذه الآيات هؤلاء المانعين للخير كيف يتقلبون فرحاً بتدبيرهم، ويتنافسون في تنفيذه ، وإنما كان تدميرهم في تدبيرهم ، وقد ذهب به من أيديهم كل شيء ، جزاء كفرانهم ومنعهم حق المساكين ، وتأتي الصورة تدعو للسخرية حيث تعرضهم في جدهم بهذا الأمر يراهم الناظر

(١) حاشية السكندري على تفسير الكشاف ج ٤ ص ٤٧٢ ·

وقد علم من حال جنتهم ما لم يعلموا هم ، فهاهم ينادي بعضهم لبعض منذ انبلاج ضوء الصبح على السير الباكر بأسلوب محرض قوي « إن كنتم صارمين » أي تريدون قطع الثمار وحيازتها ، كما يقول الرجل لصاحبه وعلم عزمه على بيع شيء « إن كنْت بياعاً فانزل » السوق !!٠٠

وصاروا يتكلمون بصوت خافت : يَتخافتون أي يتهامسون لشدة حرصهم حتى لا يسمعهم أحد ، مع أنهم خرجوا في وقت لا يخرج فيه أحد، لكنه الحرص تظهره الآيات من خلال تصوير حركاتهم وكأنما يخشون الجدران أن تسمع قول بعضهم لبعض : « لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » هكذا بصيغة الجزم والتأكيد ، ومشوا منذ الصباح « على حرد » أي قصد قد تمكن في نفوسهم « قادرين » في حسبانهم وظنهم على تنفيذ ما أرادوه ٠٠!!٠

وهنا والمشاهد لحالهم والسامع لقصتهم يسخر منهم ، تأتيهم المفاجأة لتقلب موقفهم وتعكسه حين وصلوا جنتهم ، فاذا بالمعالم متغيرة والأحوال مستنكرة :

« فلما رأوها قالوا إنا لضالون » :

أدخلت المفاجأة في روعهم أنهم ضلوا الطريق ، لكن تبين لهم أنهم لم يضيعوا طريقهم الى بستانهم ، فهذه أرض جارهم فلان ، وهذه حديقة فلان ، فعرفوا الحقيقة وأقروا بها « بل نحن محرومون » ٠

عندئذ تكلم صاحب العقل والحكمة فيهم يذكرهم في الوقت المناسب بما كان حذرهم :

« قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون » :

فذكرهم أوسطهم أي أعقلهم وأعدلهم رأياً بتأكيد « ألم أقل » أي قد قلت « لكم » مذكراً « لولا تسبحون » أي هلا تسبحون الله ، فان التسبيح تنزيه لله تعالى وتعظيم ، وذلك يدعو لترك الذنب والمعصية ٠

وقد فسر بعض العلماء « تسبحون » بأنه أمرهم أن يقولوا « إن شاء الله » بل زاد بعضهم وقال « كان استثناؤهم سبحان الله » ٠ وهذا من عجيب التأويل ، وقد دل سياق الآيات على غيره ، وان المقصود حقيقة التسبيح ، لذلك أجابوا بعد ما ذكرهم أخيراً :

« قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين » :

فاعترفوا وأقروا بفعلتهم ، لكن بعد أن كان ما كان وفات الأوان ٠

وكما يحدث عند فشل أي جماعة في مؤامرة شر من توجه اللوم لبعضهم البعض ، حدث هنا أيضاً :

« فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » :

كل واحد يلوم الآخر ، هذا يقول لصاحبه أنت بدأت وحمستنا ، وذاك يقول لآخر : أنت سكت على ضلال ولو نبهتنا لما حدث ٠٠ و٠٠!! لكن بعد فوات الأوان ، وكان من حسن حظهم تذكير أوسطهم ، فقد حرك في نفوسهم إرثاً من خير فانتبهوا للحقيقة ليعترفوا على أنفسهم بالظلم وما يستوجب الظلم من عقاب :

« قالوا يا ويْلَنا إنا كنا طاغين » ٠

ثم تداركوا موقفهم بالانابة الى الله ورجاء ما عنده :

« عسى ربّنا أن يُبْدِلَنا خيراً منها إنا الى ربّنا راغبون » :

وهذه العبارة منهم كلمة ابتهال فيها دلائل الإنابة في التعبير بـ « عسى » التي تدل على الترجي ثم كلمة ربنا باطلاق « رب » مضافاً الى ضمير أنفسهم وقولهم « إنا الى ربنا راغبون » باعادة لفظ ربنا والتعبير بـ « إلى » أي نوصل توبتنا ورغبتنا إليه لا إلى غيره ٠

وهذه أمارات الخشوع،وهي دلائل ترجح قول من قال من المفسرين انهم تابوا توبة صادقة ورجعوا الى الله رجوعاً حقاً ، وأن الله عوضهم عما فاتهم بخير منه كما هي عادته سبحانه ألا يخيب رجاء من رجاه .

« كذلكَ العذابُ ولَعَذابُ الآخِرَةِ أكبرُ لو كانوا يعلمون » :

وهنا وقد وصلت القصة الى غايتها التي سِيقت من أجلها من تحذير المشركين نتائج العناد على الكفر جاء التذييل القرآني على القصة ليعظ الكافرين في اللحظة المناسبة : « كَذلك العذاب » أي مثل هذا العذاب نعذب في الدنيا من كفر بنا وجحد نعمتنا ، « ولَعَذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .

* * *

قال تعالى :

« إنَّ للمتقينَ عندَ رَبِّهِمْ جناتِ النعيم ، أفَنَجْعَلُ المسلمينَ كالمجرمينَ ، ما لكمْ كيفَ تحكمون ، ام لكَمْ كتابٌ فيه تَدْرُسُونَ ، إنَّ لكُمْ فيه لما تَخَيَّرون ، أمْ لكُمْ أيمانٌ علينا بالغةٌ إلى يوم القيامة إن لكُمْ لَمَا تحكمونَ ، سَلْهُمْ أيُّهُمْ بِذَلِكَ زعيم ، أمْ لهُمْ شُركاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُركائِهِمْ إنْ كانوا صادقين ، يومَ يُكْشَفُ عنْ ساقٍ ويُدْعَوْنَ إلى السُّجودِ فلا يستطيعونَ ، خاشِعَةً أبصارُهُمْ ترهَقُهُمْ ذلّةٌ وقد كانوا يُدْعَوْنَ إلى السجودِ وهُمْ سالمونَ ، فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بهذا الحديثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حيثُ لا يعلمونَ ، وأُمْلِي لهم إنَّ كَيْدِي مَتين ، أمْ تسألُهُمْ أجراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقلونَ ، أمْ عِنْدهُمُ الغيبُ فهُمْ يكتبون ».

(سورة القلم : ٣٤ ـ ٤٧)

أم لكم كتاب: أم تأتي على وجهين ـ كما عرفنا ـ متصلة ومنقطعة • أما المتصلة فهي التي تكون مسبوقة بالهمــزة نحو « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » • «أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها » • وأما المنقطعــة فلا تأتي مسبوقة بهمــزة • وهذه تكون بمعنى بل وهمزة الاستفهام وأم في هذا الموضع وما بعده منقطعــة • والمعنى بل ألكم كتاب فيه تدرسون • والاستفهام إنكاري •

ان لكم فيه لما تخيرون: أصله « أن لكم » بفتح الهمزة « أن » لأن الجملة معمولة في محل نصب مفعول به لتدرسون • لكن كسرت الهمزة « إن » لدخول اللام في قوله « لما تخيَّرون » فمنعت اللام من فتح همزتها .

تخيرون : تختارون وتشتهون •

إلى يوم القيامة: الجار متعلق بالمقــدر في « لكم » أي ثابتــة لكم الى يوم القيامة • أو ببالغة أي أيمان تبلغ الى يوم القيامة لم تبطل منها يمينَ • والمآل في الإعرابين واحد ، هو إلزام اليمين •

ان لكم لما تحكمون: الجملة جواب القسم الضمني في « لكم أيمان » أي أقسمنا لكم أن لكم ما تحكمون • ومثل هذا الموضع تنصب فيه همزة « أن » لكن كسرت لدخول اللام كما سبق •

زعيــم : كفيل وضامن • قاله ابن عباس وقتادة • [وقال ابن كيسان : « الزعيم هنا القائم بالحجة والدعوة »] • وهو في مَـعنى الأول، لأن المقصود بالكفيــل أن تكون كفالته عــلى سند ، وإلا فهي ليست بكفالة ، إلا مجرد الدعوى الفارغة ! •

المعنى والأسلوب :

بعد أن بين الله تعالى في الآية السابقة مصير الكافرين من عذاب الدنيا والآخرة بين ثواب المؤمنين فقال :

« إنَّ للمتقينَ عندَ رَبِّهِمْ جناتِ النَّعيم » ·

وهي جملة موجزة تشتمل على فنون بلاغية تفيد فخامَة شأن المتقين. وتفخيم مثوبتهم ، فقد أكد الخبر ب « إن » وأضاف الرب اليهم فقال «عندربهم » وهي تدل على صلة القرب والمحبة بينه وبينهم ، حيث نَسبهم الى ذاته المقدسة ، وأشاد بثوابهم حيث قال « جنات النعيم » بدلاً من أن يقول « نعيم الجنات » ···

ثم بعد ذلك جاءت الآيات تؤكد ما سبق من استيجاب العقاب للكافرين والنعيم للمؤمنين ، بأنه من ضرورة العدل ووضع الشيء في موضعه · وكان المشركون يَغترّون بما آتاهم الله من مال وأولاد وقوة فاذا سمعوا بحديث الآخرةوماوعد الله المؤمنين نظروا الى وفور حظهم من الدنيا وقلة حظوظ المؤمنين ، وقالوا : إذا صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا ، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا ، وجهلوا أن الدنيا قائمة على التكليف والابتلاء ، وأن الثواب في الآخرة بحسب صلاح القلوب واستقامة الأفعال ، فأكذب الله تعالى زعمهم بأسلوب قوي جداً ووبخهم بهذا الاستفهام الانكاري وبما يليه :

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين » :

أي أنحيف ونجور فنجعل المسلمين كالمجرمين ، أي : ذلك لا يمكن أبداً في قضية العدل وبداهة العقل · وعبر عن الكافرين بالمجرمين لبيان مافي حقيقة الكفر من الاثم العظيم ، وما يستتبعه من الخطايا والجرائم فان من تخلى عن الفرض الأعظم عليه بالايمان بالله وتوحيده

فقد تخلى عن كل القيم الصحيحة ، لذلك قرر الفلاسفة العصريون أن الايمان بالله عز وجل إيمان بالواجب ، ومن ألحد فقد كفر بكل واجب عليه وأخل بكل مسؤولية واستباحَ كل حرمة : فكيف يجعل الكافر متساوياً مع المسلم الذي أسلم كل أموره لحكم الواجب الحق ؟ . لذلك وجه القرآن إليهم هذا السؤال الاستنكاري « مالكم كيف تحكمون » ما الذي دهاكم وأصاب عقولكم ؟! كيف تحكمون هذا الحكم الأحمق ؟ ثم انتقل فقال :

« أم لكم كتاب فيه تدرسون » :

أي بل ألكم كتاب من عند الله تعالى تدرسون فيه ان لكم ماتتخيرونه أي تنتقونه وتشتهونه ؟! وهذا تحد لهم بافلاسهم وسخرية بهم بهذا المرجع المزعوم الذي ينزله الله تعالى ليدلل شهوات المارقين ونزواتهم !!

« أم لكم أيمان علينا بالغة الى يوم القيامة » :

هذا انتقال بأم التي بمعنى بل مع الاستفهام ، يسألهم سؤالاً آخر : بل ألكم عهود موثقة بالأيمان ثابتة الى يوم القيامة بالغة النهاية في التوكيد تضمن أن لكم ما تحكمونه من هذا الحكم ؟ ! وهذا تحد لهم بافلاسهم من أي صلة بالله عز وجل تعطيهم شيئاً من هذا الزعم . وإثبات لتقولهم بالجهل المحض والعناد . لذلك أسقطهم من رتبة توجيه الخطاب ووجهه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : « سلهم » أي سؤال تبكيت وتوبيخ : « أيهم بذلك زعيم » يتكفل بذلك الزعم ويتصدى لاثباته وصحته . « أم لهم شركاء » أي مشاركون يوافقونهم في زعمهم أن لهم الجنة والنجاة كالمسلمين « فليأتوا بشركائهم » يشهدون لهم حين تمس الحاجة أشد ما تمس الى شهادتهم وتأييدهم يوم القيامة ، حين تشتد الخطوب ويجد الجد ، حتى يبلغ أقصى غايته ومداه في الشدة والهول .

وقد صورت الآية شدة القيامة صورة بالغة الهول بهذا التعبير «يوم يكشف عن ساق» وهو مثل ضربه العرب لغاية ما تكون عليه الخطوب وشدة الأمر، وكثر في الشعر العربي استعماله.

قال حاتم الطائي:

فَتى الحربِ إنْ عضَّتْ به الحربُ عَضَّها
وإن شَمَّرَتْ عن ساقِها الحربُ شَمَّرا

وقال غيره:

قد كَشَفَتْ عن ساقِها فشُدُّوا
وجَدَّتْ الحربُ بكم فَجُدُّوا

قال ابن عباس: «يوم يُكْشَفُ عن ساق» قال: هو يوم القيامة يوم كرب وشدة.

وقال مجاهد: «يوم يكشف عن ساق» قال: «شدةُ الأمر وجِدُّه».

وهكذا روي نحوه عن غير واحد من السلف.

وقد ظن بعض أهل التفسير أن المراد حقيقة الساق مضافاً الى الله عز وجل، وربما استشهد بعضهم بما أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً».

وهو استدلال وهمي في فهم الحديث وفي تطبيق الآية عليه.

أما فهم الحديث فقد قال القرطبي(١): «فأما ما روي ان الله يكشف عن ساقه فانه عز وجل يتعالى عن الأعضاء والتبعيض وأن يكشف ويتغطى، ومعناه أن يكشف عن العظيم من أمره».

---

(١) ج ١٨ ص ٢٤٩.

ويؤيد شرح القرطبي ما سبق في شواهد الشعر من قولهم في الحرب « كشفت عن ساقها » أي شدتها •

وأما الخطأ في تطبيق الآية عليه فيقول فيه النسفي : « وأما من شبَّه ـ يعني جعل الساق في الآية لذات الحق ـ فلضيق عَطَنِه ، وقلة نظره في علم البيان ، ولو كان الأمر كما زعم المشبِّه لكان مِن حق الساق أن يُعَرَّف ، لأنها ساق معهودة عندهم » •

أي لو كان المقصود ما ذكر المشبه لقال : « يكشف عن الساق » لأن هذا طريق التعبير عن الشيء المعهود المعين ، لكنه قال : « عن ساق » بالتنكير ، فدل على أنه كناية عن شدة الأمر والخطب والهول •

هناك في هذا الهول « يُدْعَوْن الى السجود » وما التكليف به وقد مضى وقته إلا التوبيخ لهم على تركهم السجود لله تعالى في الدنيا • وهم الآن وقد تَمَلَّكَهُم الذل وبدا على سيماهم فهم « خاشعةً أبصارُهم » تغطيهم الذلة يودون الآن السجود بعد أن فات الوقت ، وقد كان الرسل والدعاة الصادقون يدعونهم الى السجود في الدنيا وهم سالمون فلا يسجدون ، فعوقبوا ههنا بالمنع من السجود ، « فيذهب أحدهم ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً » •

وبعد أن بين هول عاقبتهم توجه الى النبي صلى الله عليه وسلم يقوي عزمه فقال :

« فَذَرْني ومَنْ يُكَذِّبُ بهذا الحديث سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حيثُ لا يعلمون » :

أي أنهم ينعمون بمتاع الدنيا ، ويغيظون بها المؤمنين ، ولكنه ليس نعيماً في الحقيقة ، إنما هو استدراج لهم الى شديد العذاب ، يأخذهم على غفلة وهم لا يشعرون أنه استدراج لهم واملاء ، أي امهال . يطيل لهم المدة ، ولا يعاجلهم بالموت أو العذاب ، حتى يأخذهم بعد ذلك

أخـذاً شديـداً كما قال : « إن كيدي متـين » أي عـذابي شديد لا يفوتني أحد ·

وهـذا من سنة اللـه في المتكبرين المتبطرين ، لذلك قال سفيان الثوري : « نُسْبِغُ عليهم النعمَ وننسيهم الشكر » ·

وقال الحسن البصري : « كم مُسْتَدْرَجٍ بالاحسان اليه ، وكم مَفْتُونٍ بالثناء عليه ، وكم مَغْرور بالستر عليه !!!! » ·

أما قاصرو النظـر فيغترون بهـذا ، كم نجد من أبناء ملتنا من يُدْهش لفخامة زخرفة أعداء اللـه ، وضخامة متاعهـم ومناصبهم في الدنيا ، حتى يتحيّر أو يزيغ ، كأنما الدنيا هي كل شيء عنده ، لذلك عقب القرآن بعد ذكر أهوال القيامة بهذا الخطاب :

« فَذَرْني ومَنْ يُكَذِّبُ بِهذا الحديث » :

وهو تعبير عن وعيـد وتهديـد عظيم لهم ، أي أوكِل أمره إلي ، واتركني وإياه ، ولا يَهُمَّنَّكَ أمرُه مهما وجدتَ عنده من الدنيا ، فاني عالم بما يستحقه من العـذاب قادر عليه ، وذلك لكي يزيح من نفوس المؤمنين ما يقع فيها من الهم بتسلط هؤلاء عليهم ، ولما يرون ما عندهم من متاع الدنيا ·

وبعد هذا التصوير لهول القيامة ـ الذي ذلت به هامات الجبابرة وضاع فيـه ما كانوا يعـدونه لنصرتهم من دنيا وأصنـام ومعبودات اتخذوها من دون الله ـ عاد القرآن يتابع استفهاماته الانكارية ·

« أمْ تسأَلُهُمْ أجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلون » :

وإذا كان الانسان يدفع المال الكثير لأجل خير يناله ، أو شر يدفعه عن نفسه فما أعظم ما يستحقه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لكنهم مع ذلك لا يتقاضون أجراً من أحد على الايمان بالله ولا على ما تحملوه من مشقات الدعوة · ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام يحملون للبشرية

خيرات الدنيا وعزها والآخرة وسعادتها ولا يريدون منهم شيئاً ؟ • فما الذي يثقل على هؤلاء ويمنعهم من الايمان ؟!!!••

« أمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يكتبون » :

هذا آخر استفهام إنكاري انتقل إليه الكلام بأم التي بمعنى بل الانتقالية والاستفهام ، فقد تبين أنهم أفلسوا من كل مستند ولم يبق إلا هذا الأمر الأخير ، وهو الاحاطة بالمغيبات بوسيلة من الوسائل بالعلم اللدني أو الوحي،وعن ابن عباس أن المراد اللوح المحفوظ وهو غير مخالف لما قلناه ، لأن الغيوب مسجلة في اللوح المحفوظ ، والسؤال تَبْكيت لهم بألا علم عندهم من الغيب يكتبون منه يثبتونه •

وقد أحاطت السورة بكل ما يمكن أن يتذرع به الأدعياء من مستند ديني أو دنيوي ، وأبطلته بأسلوب قوي جداً ، بدا بوضوح في تكرار « أم » المنقطعة التي تعبر عن « همزة الاستفهام » ، و « بل » وهو أسلوب فيه الاستنكار والتوبيخ بالاستفهام ، وفيه الانتقال « بل » التي جاءت هنا للاضراب الانتقالي ، وكأنه يقول بعد كل سؤال : دع هذا ولْنَنْتَقِلْ الى شيء آخر ، على سبيل التنزل مع الخصم لاسقاط دعواه وإبطال زعمه من كل وجه ، فلم يبق إلا العناد والتخرص الكاذب ، لذلك وجه الله تعالى رسوله الى زاد الداعية الذي يركن إليه في المهمات ، وهو الصبر كما نجده في الآيات التالية .

★ ★ ★

قال تعالى :

« فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ولا تكُنْ كَصاحِبِ الحوتِ إذْ نادى وهُوَ مَكْظومٌ ، لولا أنْ تَدارَكَهُ نِعمةٌ مِنْ رَبِّه لَنُبِذَ بالعراءِ وهو مَذموم ، فاجْتباه ربُّه فجعله من الصالحين ، وإنْ يكادُ الذين كفروا

لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ويقولونَ إنّه لمَجْنون ، وماهُوَ إلا ذِكْرٌ للعالمين ».

(سورة ن : ٤٨ ـ ٥٢)

يأمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بالتذرع بالصبر ، والتشبث به أمام عناد هؤلاء وجحودهم فيقول له .

« فاصبرْ لحكمِ ربِّكَ ولا تكنْ كصاحِبِ الحوت إذ نادى وهو مكظوم » :

« فاصبر » يا محمد على أذى قومك لك منتظراً لقضاء ربك بالنصر عليهم ، فانه سيحكم لك عليهم ويجعل العاقبة لك ولأتباعك ٠

« ولا تكن » عجولاً « كصاحب الحوت » وهو يونس عليه السلام حين ذهب مغاضباً لقومه ، وركب البحر ، ثم ألقي فيه فالتقمه الحوت وشرد به في البحر. «فنادى في الظلماتِ أنْ لا إله إلا أنتَ سُبحانَك إني كنت من الظالمين » نادى هذا النداء الضارع وهو « مكظوم » أي مملوء غماً وكرباً لهذا الضيق الذي لحق به ٠

وقال أبو السعود : « مملوء غضباً » ٠٠٠

« لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم » بسبب تعجله ٠

« فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » ٠

هذه عاقبة اللجوء الى جناب الحق عز وجل ، تغير به حال يونس عليه السلام من أن يَنْبذَه الحوت بالعراء وهو مذموم ، الى أن يترقى « فاجتباه ربه » اختاره لمنازل أعلى وأقرب عنده ، « فجعله من الصالحين » أي الكاملين في الصلاح ، لذلك أشاد النبي صلى الله عليه

وسلم بفضل يونس عليه السلام ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال « يعني الله عز وجل » « لا ينبغي لعبد لي أن يقول : أنا خير من يونس بن متى»(١) ٠

ورأى بعض المفسرين أن معنى « جعله من الصالحين » جعله نبياً ٠ وهو تفسير بعيد عن الصواب، لأن الأدلة ظاهرة في أنه أوحي إليه بالنبوة من قبل حادث الحوت فدل على أن المراد رفعه الى منزلة أصحاب الرتبة الرفيعة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ٠

ولعل من هذا القبيل قول يوسف عليه السلام : « توفني مسلماً وألحقني بالصالحين » ٠

وهذا ترغيب عظيم باللجوء الى جناب الحق والاعتماد عليه في كل الأمور ، مما يكسب صاحبه من منزلة عالية رفيعة ، مع ما أفاده من الحث على الصبر وعدم التعجل في استنزال النصر والفرج في قوله : « وهو مذموم » فانه محور القصد من سياق الآية السابقة ، يبين غائلة عدم الصبر لحكم الله تعالى ٠٠٠

« وإن يكادُ الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون » ٠

يبين القرآن في هذه الآية أن عِداءَ الكفارِ للنبي صلى الله عليه وسلم بالغ غاية المدى ، حتى إنهم لما سمعوا الذكر أي وقت سماعهم القرآن لاشتداد عداوتهم وحسدهم عند سماعه (ولما ظرفية متعلقة بيزلقونك)(٢) ينظرون الى النبي صلى الله عليه وسلم نظرات الحقد يتطايرُ منها الشرُ حتى يكادوا يُزْلِقونك بنظراتهم فتسقط صريعاً على الأرض لو أمكنهم ذلك ، وهذا غاية ما يبلغه العداء وحب الانتقام الحاقد ، لكن الله تعالى لا يمكنهم من شيء مما أرادوه ، وهذا ما تشير

(١) واللفظ لمسلم ج ٧ ص ١٠٢ ٠
(٢) الآلوسي ج ٩ ص ١٤٩ ٠

إليه الآية لكي لا يهتم النبي صلى الله عليه وسلم بهم وليزداد تحملاً وثقة بحفظ الله له ، وترقباً لانجاز وعده ·

« ويقولون » ويقول الكافرون ـ لغاية حيرتهم في أمره عليه الصلاة والسلام · ونهاية جهلهم بما في تضاعيف القرآن من عجائب الحكم وبدائع العلوم ولتنفير الناس منه ـ : « انه لمجنون » ·

هكذا يلصقون هذه الفرية الفظيعة بصاحب الخلق العظيم سيد العقلاء ويؤكدونها ليخدعوا الناس بهذا الاسلوب ، بدلاً من أن يصغوا لسماع الذكر الحكيم ويسلموا ، لكنهم على العكس كلما أخمدت شبهاتهم وأحبطت ترهاتهم زادوا غيظاً ، كما هو مشاهد من أحوال أخلافهم جاهليي القرن العشرين في عصرنا أيضاً ، على الرغم من دراستهم ودعواهم تحصيل العلم الواسع واتباع العلم والعقل !!·

واختار القرطبي وابن كثير وبعض المفسرين ان المقصود بالآية « يزلقونك بأبصارهم » يصيبونك بالعين · قال ابن كثير : وفي هذه الآية دليل على أن العين اصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل » ·

وهو تفسير لا يخالف ما سبق في تفسيرنا من إفادة شدة عداوتهم ، وإرادتهم إهلاك النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن فيه زيادة الإصابة بالعين ، وهو ما يحتاج الى دليل على كونه مراداً بالآية ·

أما إثبات الاصابة بالعين فلا يتوقف على الآية ، وقد وردت أحاديث كثيرة ، أخرج منها ابن كثير زهاء عشرين حديثاً تدل على ثبوت ذلك ، منها حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « العين حق » · متفق عليه من طريق عبد الرزاق وهو إسناد جليل مما حكم بأنه أصح الأسانيد ·

« وما هو إلا ذكر للعالمين » :

لما كان قولهم الذي قالوه في حق النبي صلى الله عليه وسلم بسبب

سماعهم للقرآن رد الله عليهم قولهم ذلك بهذه الجملة التي تبين علو منزلة القرآن ومنزلة النبي عليه الصلاة والسلام وجاءت العبارة بأسلوب يفيد غاية بطلان قولهم ، حيث وقعت هذه الآية حالاً من فاعل يقولون ، أي يقولون ذلك والحال أنه ذكر للعالمين . أي تذكير لهم ، وبيان لما يحتاجون إليه مما يصلح دينهم ودنياهم .

قال الآلوسي(١) :

« وحيث كان مدار حكمهم الباطل ما سمعوا منه صلى الله عليه وسلم رد ذلك ببيان علو شأنه وسطوع برهانه فقيل : « وما هو إلا ذكر للعالمين » . على أنه حال من فاعل يقولون والرابط الواو فقط . أو مع عموم العالمين ـ كما قيل ـ مفيد لغاية بطلان قولهم ، وتعجيب للسامعين من جرأتهم على التفوه بتلك العظيمة .

أي يقولون ذلك والحال أنه ذكر للعالمين ، أي تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ، فأين من أنزل عليه ذلك ـ وهو مطلع على أسراره طُرّاً ، ومحيط بجميع حقائقه خُبْراً ـ ما قالوه .

وقيل : معناه شرف وفضل لقوله تعالى: « وإنه لذكر لك ولقومك» . وعموم العالمين لما فيه من الاعتناء بما ينفعه .

وقيل : الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكونه مذكراً وشرفاً للعالمين لاريب فيه ، ورجح بأن الجملة عليه تكون صريحة في رد دعواهم الباطلة . وأنت تعلم أن الأول أولى ، والله تعالى أعلم »... انتهى .

وفي الآية من البلاغة في رد فريتهم أسلوب الحصر في قوله « وما هو إلا ذكر » لزيادة التأكيد بشرف القرآن وعلو منزلته ، كما أن تعميم « للعالمين » يزيد من دلالة ذلك .

---

(١) ج ٩ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

وإذا كانت الآية تطلق هذه الصبغة العالمية على دعوة القرآن، والنبي صلى الله عليه وسلم محارب ومضايق كما يدل عليه تاريخ السيرة في تلك الفترة ويدل عليه سياق الآية « فاصبر لحكم ربك ... الخ » فانه ليعلن بذلك معجزة كبيرة يتحدى فيها ظروف الزمان والمكان التي أحاطت بالدعوة وهي قولة لا يعلنها إلا من ملك القدرة لقهر تلك الظروف وتذليلها ، وإلا فأي عاقل يكون في تلك الظروف البالغة الضيق والعنت يجرؤ على هذا الاعلان وهو يتحدى العالم بما أنزل عليه .

ثم أي تحول ضخم حدث في سنوات قلائل ، حيث انتقلت دعوة القرآن من اضطهاد الأعداء لها في مكة ، الى سيادة العالم وإدارته ...

وإذا كان القرآن بهذه الصفة العظمى كان نبي القرآن غاية في الشرف والرفعة فهو أعقل العالمين وأعظمهم وأحكمهم صلى الله عليه وسلم حيث اضطلع بهذه الرسالة الكبرى التي بعث بها لكل الناس في كافة الأعصار والأمصار وهو رحمة العالمين صلى الله عليه وسلم .

تم تفسير سورة « ن » والقلم

ولله الحمد

تفسير سورة المزمل

صلى الله عليه وسلم

تمهيد :

سورة المزمل مكية كلها على ما قاله الحسن البصري وعكرمة وعطاء وجابر ٠

وذكر ابن حيان في البحر المحيط أن الجمهور قالوا : إنها مكية كلها إلا قوله تعالى « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى ٠٠٠ » الآية حتى الأخير ٠

والراجح أنها مكية كلها لما أخرج الحاكم عن عائشة : ان هذه الآية نزلت بعد صدر السورة بسنة على ما يأتي بسطه عند تفسير الآية إن شاء الله تعالى(١) ٠

وسورة المزمل من أول ما نزل من القرآن ولعلها ثالث سور القرآن نزولاً ٠

قال الآلوسي(٢) : « والجمهور على أنه صلى الله عليه وسلم لما جاءه الملك في غار حراء وحاوره بما حاوره رجع الى خديجة رضي الله عنها

---

(١) انظر الدر المنثور ولباب النقول ٠
(٢) في تفسيره روح المعاني ج ٩ ص ٢٠٠ ٠

فقال: زملوني·· زملوني فنزلت يا أيها المدثر وعلى أثرها نزلت يا أيها المزمل » · انتهى ·

فسورة المزمل من أول ما نزل من القرآن ، وموضوعها يعالج حاجة الداعية والدعوة على السواء الى الدعم والتثبيت ، لذلك أمرته صلى الله عليه وسلم بقيام الليل وبالصبر الجميل ، والاعتماد على الله تعالى واللجوء اليه سبحانه ، وتوعدت المخالفين الجاحدين وعيداً خطيراً مدعماً ببرهان التاريخ في قصة موسى عليه السلام مع فرعون وهلاك فرعون « فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً » ، ثم ختمت بتخفيف صلاة الليل والحث على أنواع القربات والخيرات ليقبل عليها المسلمون ويأتوها بكل أصنافها « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » ·

مناسبة السورة لما قبلها :

وهي سورة الجن ·

المناسبة العامة :

ترتبط سورة المزمل بسورة الجن من عدة أوجه منها :

١ ـ ان سورة الجن تحدثت عن الوحي الى النبي صلى الله عليه وسلم بايمان الجن به وإعلانه مفصلاً وهذا من شأنه أن يثبت قلب النبي صلى الله عليه وسلم فجاءت سورة المزمل مناسبة لهذا المقصد لما ذكر فيها من الأمر بالعبادة والصبر وغير ذلك مما يثبت قلب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ·

٢ ـ في سورة الجن قوله تعالى : « وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً » وفي سورة المزمل بيان ذلك من الواقع في قصة هلاك فرعون « فأخذناه أخذاً وبيلاً » ومعلوم ما كان عليه من القوة والطغيان ·

المناسبة الخاصة :

قال الآلوسي في ذلك[1] : « ولما ختم سبحانه سورة الجن بذكر الرسل عليهم السلام افتتح الله عز وجل هذه السورة « المزمل » بما يتعلق بخاتمهم عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام وهو وجه المناسبة ·

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيُّها المزَّمِّلُ قُمِ اللّيلَ إلا قليلاً ، نصفَه أوِ انقُصْ مِنه قليلاً ، أوْ زِدْ عليهِ ورَتّلِ القُرْآنَ ترتيلاً . إنا سَنُلْقي عليْكَ قَوْلاً ثقيلاً · إنَّ ناشِئَةَ الليلِ هيَ أشَدُّ وطئاً وأقْوَمُ قِيلا · إنَّ لكَ في النهار سَبْحاً طويلاً · واذكُرِ اسمَ ربِّك وتبتَّلْ إليه تبتيلاً · ربُّ المَشْرِقِ والمغرِبِ لا إله إلاّ هُوَ فاتَّخذْهُ وكيلاً » .

(سورة المزمل : ١ ــ ٩)

المفردات :

المزَّمِّل : بتشديد الزاي والميم · أصله المتزمل فأدغمت التاء في الزاي، وقُلِبتْ فصارا حرفاً واحداً مُشدَّداً · ومعنى المزمل هو الذي تزمل في ثيابه : أي تلفف بها ·

رَتِّل : قال المبرد « أصله من قولهم : ثغر رتل إذا كان بين الثنايا افتراق ليس بالكثير» · وقال الليث: « الترتيل تنسيق الشيء،

---

(١) ج ٩ ص ٢٠٠ ·

وثغر رتل : حسن التنضيد ، ورتلت الكلام ترتيلا : إذا تمهلتَ فيه وأحسنتَ تأليفه » . انتهى .

ثقيلاً : الثقل وصف للأشياء المادية. معروف . ووصف الكلام بالثقل لا يتأتى على وجه الحقيقة ، وقد ذكروا في تفسيره أقوالاً كثيرة ترجع في الأغلب الى قولين فقط :

الأول : وهو اختيار الرازي: « أن المراد من قوله ثقيلاً : عظيم قدره وجلالة خطره وكل شيء نفس وعظم خطره فهو ثقل وثقيل وثاقل » .

الثاني: وهو تفسير الزمخشري: « أنه القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين وخاصة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه متحملها بنفسه ومحملها أمته من بعده »(١) .

ناشئة الليل: الانشاء لغة : هو الإحداث ، فكل ما حدث فهو ناشيء ويقال للأنثى : ناشئة . وقد اختلف المفسرون في المراد من ناشئة الليل على أقوال كثيرة وسبب الخلاف في رأينا نظر بعضهم الى هذا المعنى اللغوي . وقد اختار ابن كثير تفسيرها بقيام الليل وهو المتبادر من السياق ويمكن أن نقول : إن المراد بها العبادة في الليل لانطباق صفات الآية عليها .

وطئاً : مصدر واطأ . يقال : واطأت فلاناً على كذا مواطأة ووطأة أي موافقة وملاءمة(٢) وعلى تفسيرنا ناشئة الليل بقيام الليل يكون المعنى : أشد موافقة بين قلب القائم ولسانه(٣) .

سبحاً : أصل السبح الجَرْيُ السريع في الماء ، والمراد هنا : تقلباً وتصرفاً في مهماتك .

---

(١) وقد توسع في إيراد هذه المعاني الفخر الرازي فأوصلها الى تسع ج ٣٠ ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

(٢) الفخر الرازي : ج ٣٠ ص ١٧٦ .

(٣) الكشاف : ج ٤ ص ٥١١ .

تبتل : أصل التبتل في اللغة « القطع » ومنه قيل لمريم البتول لانقطاعها عن أمثالها من النساء ، أو لانقطاعها الى الله تعالى بالعبادة • وقد فسر التبتل جميع المفسرين هنا بالاخلاص لله تعالى• وعبر بقوله تبتيلاً ولم يقل تبتلاً مع أنه مصدر تبتل•

وكيلاً : مفوضاً كل أمورك إليه• وقيل : كفيلاً بما وعدك من النصر.

الاعراب :

يا أيها : يا : أداة نداء • أي ضمير مبني على الضم في محل نصب بيا والهاء للتنبيه والمزمل صفة لأي وهو المقصود بالنداء •

قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه : أكثر المفسرون الكلام في أوجه إعراب هذه الآية وما يترتب على كل وجه من المعنى حتى ذكروا ـ كما قال الآلوسي رحمه الله[1] ـ « مالا ينبغي تخريج كلام الله تعالى العزيز عليه » •

والراجح في إعراب الآية[2] : أن قوله « نصفه » بدل من الليل الباقي بعد الاستثناء أي بدل من مجموع قوله « الليل إلا قليلا » و « أو » للعطف • والمقصود التخيير بين ثلاثة أحوال : قيام الليل ، أو أقل من نصف الليل قليلاً كالثلث ، أو الزيادة على النصف • فأي حال تيسر للمصلي من الليل أجزأه •

وسبب الترجيح : أن الإبدال يدل على الاعتناء بالمبدل منه ، والذي يستحق الاعتناء هو الجزء الباقي بعد الاستثناء أي الجزء المشغول بالصلاة فيكون البدل من مجموع قوله « الليل إلا قليلاً » •

وطئاً : منصوب على التمييز وكذا « قيلاً » •

تبتيلاً : مفعول مطلق مؤكد لقوله « تبتل » •

---

(١) وانظر الأوجه فيه وفي البحر المحيط لأبي حيان وغيرهما •
(٢) على ما اختاره المحقق أبو السعود في تفسيره ج ٥ ص ٢٠٤ •

المعنى والأسلوب :

افتتحت السورة بتوجيه الخطاب الى النبي صلى الله عليه وسلم « يا أيها المُزَّمِّلُ قُمِ الليلَ إلا قليلا » : بهذا النداء المؤكد باستعمال « أي » ثم إبدالها بالمزمل ، وإدخال هاء التنبيه وذلك قصداً للتنبيه البليغ والايقاظ المؤكد غاية التأكيد ليقبل بكليته وبقلبه وقالبه على ما يلقى إليه . لذلك كثر استعمال هذا الأسلوب للنداء في القرآن الكريم .

ثم بينت الآيات ما نبه إليه النبي صلى الله عليه وسلم في هذا النداء في قوله تعالى « قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه » فخيره بين قيام نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه وأتى بهذا الأسلوب أسلوب الإبدال فذكر الليل كله أولاً ثم خفف لكي يخفف على النفس أداء هذا الأمر وللاعتناء بالوقت المشغول بالعبادة على ما سبق في فوائد الإبدال في تفسير « صراط الذين أنعمت عليهم » .

ذكرت الآية المنادى المقصود بالنداء بهذا الوصف « المزمل » أي المتلفف بثيابه ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد كان متزملاً في ثيابه ، فأمره الله تعالى بالقيام الى الصلاة :

قال الرازي(١) : « وأجمعوا على أن المراد بالمزمل النبي صلى الله عليه وسلم » .

وإنما وجه الخطاب الى النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف تلطفاً وتأنياً لإثارة نشاطه صلى الله عليه وسلم .

وقال أبو السعود(٢) « فيكون وصف التزمل بالخطاب للملاطفة والتأنيس كما في قوله عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه لما

---

(١) ج ٣٠ ص ١٧١ .

(٢) ج ٥ ص ٢٠٤ .

غاضب فاطمة رضي الله عنها فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب وقال له : قم يا أبا تراب ! » ملاطفة له وإشعاراً بأنه غير عاتب عليه ·

وقيل : المعنى يا أيها الذي زُمِّلَ أمراً عظيماً هو أمر النبوة . ـ أي حُمِّلَه ـ والزَّمْلُ الحَمْلُ ، وازدمله أي احتمله فالتعرض للوصف حينئذ للإشعار بعِلِّيَّتِهِ للقيام، أو للأمر به، فان تحميله عليه السلام لأعباء النبوة مما يوجب الاجتهاد في العبادة · انتهى ·

وقد أساء بعض المفسرين وهو الزمخشري فهم هذا النداء بصفة المزمل وأورد شوارد أفكاره على غير روية وتأمل ، فقال[1] : « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نائماً بالليل متزملاً في قطيفة فنبه ونودي بما يهجن إليه الحالة التي كان عليها من التزمل في قطيفته واستعداده للاستثقال في النوم كما يفعل من لا يهمه أمر ولا يعنيه شأن · · · » الى آخر ما قاله مما شنعه عليه العلماء لأنه ينادي عليه بسوء الأدب مع صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ·

ويدل على بطلان فهمه هذا أمور نذكر منها :

١ ـ إن هذا الأسلوب في وصف المخاطب ليس نصاً ولا ظاهراً في إفادة ما زعمه الزمخشري فصيرورته إليه تحكم في النص ·

٢ ـ إن الذم أو التهجين إنما يتأتى لمن توجه إليه الأمر ولم يعطه الاعتناء اللازم أو الاجتهاد اللازم ، وهو غير وارد هنا لأنه لم يسبق هذا النداء تكليف بقيام الليل ، فعلام التهجين ·

ثم قال تعالى : « وَرَتِّلِ القرآنَ تَرْتيلاً » :

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بما يحقق غاية عظيمة من غايات الصلاة ، وهو الخشوع واستلهام النفحات الإلهية بأن يرتل القرآن أي يقرأه على تمهل وتنسيق ليكون الكلام مبيناً مفصلاً ·

---

(١) في تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٠٧ ـ ٥٠٩ ·

فقول النسفي[1] « بين وفصل من الثغر المرتل ... أو اقرأ على تؤدة بتبيين الحروف وحفظ الوقوف وإشباع الحركات » هذان ليسا معنيين مختلفين ، إنما هما تفسير واحد يتمم الثاني منهما الآخر لأنه لا يمكن تأتي تبين الكلام وتفصيله إلا إذا قرىء على تؤدة . وقوله تعالى « ترتيلاً » تأكيد للأمر بالترتيل لايجاب الأمر به وأنه لا بد منه للقارىء .

ثم ذكر سبحانه أسباباً للأمر بقيام الليل تدعو إليه ويحتاج إليه من أجلها ، فقال سبحانه : « إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلا . إن ناشئة الليل هي أشد وطئاًوأقوم قيلا . إن لك في النهار سبحاً طويلاً » .

فذكر أولا : إنزال القرآن الى النبي صلى الله عليه وسلم ووصفه بغاية العظمة والرجاحة في قوله «قولاً ثقيلاً» وهذا كما قال ابن عباس: قولاً ثقيلاً يعني كلاماً عظيماً . فهذا أرجح التفاسير الواردة في الآية والله تعالى أعلم لأنه يحقق وصف القرآن نفسه بأنه ثقيل أي : عظيم راجح . بينما التفاسير الأخرى تجعل صفة الثقل لما احتف بالقرآن من تكليف أو شدة عند نزول الوحي أو لما يلزم من كونه عظيماً مثل قول الحسن « إنه ثقيل في الميزان يوم القيامة » وهو إشارة الى كثرة منافعه وكثرة الثواب في العمل به[2] .

ووجه المناسبة بين هذا وبين الأمر بقيام الليل أنه تعالى لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بصلاة الليل كأنه قال : إنما أمرتك بصلاة الليل ، لأنا سنلقي عليك قولاً عظيماً ، فلا بد وأن تسعى في صيرورة

---

(١) ج ٤ ص ٣٠٤ .

(٢) وهناك تفاسير تعتبر شرحاً أو مرادفة للتفسير الذي اخترناه مثل قول الفراء : قولاً ثقيلاً أي ليس بالخفيف ولا بالسفساف لأنه كلام ربنا تبارك وتعالى وقول الزجاج معناه : أنه قول متين في صحته وبيانه ونفعه كما نقول هذا كلام رزين وهذا قول له وزن إذا كنت تستجيده وتعلم أنه وقع موقع الحكمة والبيان .

نفسك مستعدة لـذلك القول العظيم ، ولا يحصـل ذلك الاستعداد إلا بصلاة الليل ، فان الانسان في الليلة الظلماء إذا اشتغل بعبادة الله تعالى وأقبل على ذكره والثناء عليه والتضرع بين يديه ولم يكن هناك شيء من الشواغـل الحسية والعوائق الجسمانية استعـدت النفس هنالك لإشراق جلال اللـه فيها ، وتهيأت للتجرد التام والانكشاف الأعظـم ، بحسب الطاقة البشرية . فلما كان لصلاة الليل أثر في صيرورة النفس مستعدة لهذا المعنى لا جرم قال : إني أمرتك بصلاة الليل لأنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً . فصير نفسك مستعدة لقبول ذلك المعنى ، وتمام هذا المعنى ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها »(١) .

« إنَّ ناشِئَةَ الليلِ هِيَ أشدُّ وَطْئاً وأقْوَمُ قِيلا » :

هذا بيان لسبب آخر من دواعي قيام الليل ، يبين الله تعالى فيه فضله وماله من آثار جليلة وذلك أن العبادة بالليل وأفضلها الصلاة أشد مواطأة بين القلب واللسان ، وأجمع على التلاوة ، أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار ، لأنه وقت عمل الناس ولغط الأصوات واشتغال الأفكار بأمور الدنيا .

وأقوم : أي أسد مقالاً وأصوب وأثبت . وبهذا يكون قيام الليل أقرب توصيلاً للفلاح والفوز بالقربى . قال تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » .

« إنَّ لكَ في النهارِ سَبْحاً طويلاً » :

وهذه الآية تتمم بعث الهمة الى قيام الليل فتبين أن في النهار مجالاً طويلاً لتصرف الانسان في مهماته وشؤونه ، فبقي الليل فارغاً ، فاعمره بعبادة الله وقيام الليل .

---

(١) الفخر الرازي ج ٣٠ ص ١٧٤ .

قال النسفي(١) : « سبحاً طويلاً » تصرفاً وتقلباً في مهماتك وشواغلك ، ففرغ نفسك في الليل لعبادة ربك ، أو فراغاً طويلاً لنومك وراحتك .

وهذان القولان متممان لبعضهما في بيان معنى الآية .

« واذْكُرِ اسْمَ ربِّكَ وتَبَتَّلْ إليه تَبْتِيلاً » .

هذا بيان لأمر آخر مما يلزم الداعية أن يتزود به استعداداً لحمل الدعوة ، ويلزم المؤمن أيضاً ليبلغ درجة التقوى العالية ، التي تجعله في مقام الشهود لرقابة الله عليه في كل حال وآن .

وهذا الأمر هو دوام الذكر ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الله فأمره الله بالذكر اعتناء به وبياناً لشرفه وطلباً لاستدامته أي دم على ذكر ربك في ليلك ونهارك واحرص عليه . [وهذا يدل على مزيد شرف الذكر ويبطل من يظن أنه شأن العامة والبسطاء] لذلك أكده بقوله « تبتيلاً » .

لكن بأي شيء نذكر الله من أنواع الذكر : لقد جاء الأمر هنا مطلقاً واسعاً حيث قال : « اذكر اسم ربك » فلا يختص بنوع معين بل يتناول كل نوع وصيغة فيها ذكر لله : « تسبيح وتهليل وتكبير . وتمجيد ، وتوحيد ، وصلاة ، وتلاوة قرآن ، ودراسة علم يذكر بالله وعظمته أو شريعته . وغير ذلك مما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغرق به ساعة ليله ونهاره . حتى يكون المؤمن مستحضراً متهيباً مقام ربه عز وجل فينقطع إليه عما سواه بالطاعة والانقياد كما قال « وتبتل إليه تبتيلاً » والتبتل هو القطع والمراد هنا : انقطع إليه عما سواه بقلبك وخشيتك ومراقبتك وهذا كما قال سيدنا عبد الله بن عباس ترجمان القرآن « وتبتل إليه تبتيلاً » أي أخلص له العبادة(٢) .

---

(١) ج ٤ ص ٣٠٤ ونحو ما نذكره عنه ذكر المفسرون أيضاً .
(٢) انظر تفسير ابن كثير .

« ربُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ لا إلهَ إلا هُوَ فاتَّخِذْهُ وكيلاً » :

فبين هنا أنه رب الجهات ، وهو رب العالمين سبحانه ، فهو متولي العوالم بالتربية والإمداد يمدها حالاً فحالاً ، وهذا يوجب دوام الذكر، لأن إمداد الله لك أيها الانسان دائم لا ينقطع ولا يعد ولا يحصى في كل لحظة « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » وهو سبحانه المعبود الحق لا إله غيره ولا يعبد بحق إلا هو ، تنزهت ذاته وعظمتــه عن الشريك والشبيه والند ، فاذاً ليس هناك من يتولاك أيها الانسان غيره ، وليس هناك من يحق له العبادة والخضوع إلا اللــه سبحانه ، فتوكل عليــه دون غيره ·

« فاتخذه وكيلاً » :

لأنك بعد أن علمت أنه ملك المشرق والمغرب ورب العالمين المتوحد بالربوبية وأنه الفرد في ألوهيته سبحانه فاتخذه كافياً لأمورك(١) · وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل « فاتخذه وكيلاً » كما قال تعالى في الآية الأخرى « فاعبده وتوكل عليه » وقال أيضاً « إياك نعبد وإياك نستعين » وآيات كثيرة في هــذا المعنى فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعـــة للــه وتخصيصه بالتوكل عليه »(٢) ·

وبهذا يكون المؤمن نزيهاً عن الدنس مستقيماً على تقوى الله قوي الجانب عزيز النفس لأنه أفرد الله تعالى بالتوكل عليه فلا يخاف أحداً غيره ولا يعتمد على أحد سواه ·

الاستنباط :

في هذه الآيات فوائد جليلة نذكر منها :

---

(١) وفسر بمعنى آخر هو : « اتخذه ولياً وكفيلاً بما وعدك من النصر » وهذا يدخل تحت المعنى الذي ذكرناه وانظر الكشاف والنسفي ·

(٢) ابن كثير ·

١ ـ فضل قيام الليل والعبادة والحض على ذلك وقد دلت الآيات على ذلك من عدة جهات :

فدلت على فضله في نفسه في قوله « إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً » أي موافقة لحضور القلب مع اللسان وخشوعه ومراقبته وهذا لب العبادة ومقصودها ·

ودلت على فضله في أثره في قوله « وأقوم قيلاً » أي : أشدُّ مقالاً ، وأثبت فيما يتوجه به العابد الى الله · ثم أكدت ذلك بازاحة العوائق وأنه لا عذر لأحد في التقاصر عنه لأن له في النهار سبحاً طويلاً يؤدي فيه الانسان كل المطالب التي يحتاجها لنفسه ولدنياه ولدينه ·

٢ ـ وجوب ترتيل القرآن لقوله تعالى « ورتل القرآن ترتيلاً » وحده الأدنى مراعاة أدائه في حروفه ومداته وغناته من غير إخلال بنطق الحروف والكلمات مع مراعاة أحكام التجويد وكماله بتحسين الأداء والتغني به في حدود أحكام التجويد فانها فرض كما ذكرنا ·

٣ ـ الحض على الذكر بكل نوع من أنواعه وصيغه وقد بينت الشريعة ما هو واجب منه كما في الصلاة وغيرها وما عداه مسنون أو مستحب ·

٤ ـ وجوب التوكل على الله والاستمداد منه والتفويض إليه ، وقد بينت الآية ارتباط ذلك بالايمان ارتباطاً وثيقاً في هذه العبارة « رب السموات والأرض لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً » حيث عبر بالفاء في قوله « فاتخذه وكيلاً » قال الزمخشري : « فاتخذه وكيلاً : مسبب على التهليلة ، لأنه هو وحده هو الذي يجب لتوحده بالربوبية أن توكل إليه الأمور » وقال النسفي : « فائدة الفاء أن لا تلبث بعد أن عرفت في تفويض الأمور الى الواحد القهار إذ لا عذر لك في الانتظار بعد الإقرار » ·

قال تعالى :

« وَاصْبِرْ على مايقُولونَ واهْجُرْهُمْ هَجْراً جَميلاً ، وَذَرْني والمكَذِّبين أولي النَّعْمةِ وَمَهِّلْهُمْ قليلاً ، إنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحيماً وطعاماً ذَا غُصَّةٍ وعذاباً أليماً ، يومَ تَرْجُفُ الأَرْضُ والجبالُ وكانتِ الجبال كثيباً مَهيلاً ».

(سورة المزمل : ١٠ ـ ١٤)

اللغـــة :

هجراً جميلاً: الهجر الجميل أن يجانبهم ولا يقابلهم على إساءتهم بمثلها. وهجراً : مفعول مطلق مؤكد وجميلاً : صفة .

ذرني والمكذبين: أي أوكل أمرهم إليّ .

النَّعمة : بفتح النون التنعم والترفه وبكسرها : الإنعام وبالضم : المسرة والقراءة بفتح النون .

أنكالاً : واحدها نكل وهو القيد وقال الزمخشري : النكل : القيد الثقيل .

كثيباً : القطعة العظيمة من الرمل تجتمع محدودبة وجمعه كثبان .

مهيلاً : سائلاً قد أسيل . يقال : مهيل ومهيول أي : مصبوب ومسيل والأكثر في اللغة : مهيل .

ذا غصة : ما يغص به الانسان .

يوم ترجف: الرجفة : الزلزلة والزعزعة الشديدة ، ويوم منصوب على الظرفية متعلق بمقدر دل عليه الكلام أي: ينكل بهم ويعذبون يوم ترجف الأرض .

المعنى والأسلوب :

بعد أن أمر الله تعالى رسوله أن يتخذ مولاه وكيلاً يفوض أمره إليه وجهه الى عدة الداعية في معاملة الخلق وهي الصبر فقال :

« واصْبِرْ على ما يقولون » :

فارتبطت الآية بما قبلها ارتباطاً تاماً وبمناسبة قوية وكأنها تقرر أنه لما كان الله تعالى وكيلاً لك يقوم باصلاح أمرك أحسن من قيامك باصلاح أمور نفسك فاصبر إذن على ما يقولون فيك من الإيذاء وما يقولون في الله تعالى من جعل الشريك والولد له سبحانه ولا تجزع من قولهم ولا تمتنع من دعائهم ·

« واهجرهم هجراً جميلاً » أي جانبهم بقلبك أو خالفهم في باطلهم وأعمالهم المنكرة مع المداراة والإغضاء وترك المقابلة على إيذائهم ، لقوله تعالى « فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً » وقوله « وأعرض عن الجاهلين » وقوله « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » · ثم تمم أمره بالتوكل على الله بتفويض أمر المكذبين إليه فقال :

« وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً » :

أي ارض بي لعقابهم وهم صناديد قريش ورؤساء مكة « أولي النعمة »أي التنعم وكانوا أصحاب أموال وترف وقد جاء الأمر بالتفويض هنا بما فيه غاية الانذار ، « فانه إذا اهتم إنسان بمهم وكان غيره قادراً على كفاية ذلك المهم على سبيل التمام والكمال · قال له : ذرني أنا وذاك، أي لا حاجة مع اهتمامي بهذا الأمر الى شيء آخر » « ومهلهم قليلاً » أي زماناً قليلاً هو مدة الدنيا كما قال «نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم الى عذاب غليظ » وإليه يميل ابن كثير فانه استشهد بهذه الآية على تفسيرها ·

وقيل مهلهم زماناً قليلاً هو الى يوم بدر فان الله أهلكهم في ذلك

اليوم وأقرّ عين النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بقتلهم • قالت عائشة رضي الله عنها « لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيراً حتى وقعت وقعة بدر » ولم نجد لذلك سنداً ويؤيد الأول ـ كما أشار ابن كثير ـ إرداف الآية بقوله :

« إن لدينا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً » :

وقد توعدهم فيها بأربعة أمور :

١ ـ « إن لدينا أنكالاً » : قيوداً ثقالاً •

٢ ـ «وجحيماً» : أي ناراً مستعرة شديدة اللهب لايقادر قدر هولها.

٣ ـ « وطعاماً ذا غصة » : غير سائغ يأخذ بالحلق لا هو نازل ولا هو خارج كما قال ابن عباس وقال أيضاً : « إنه شوك يدخل الحلق فلا ينزل ولا يخرج » • وقال الزجاج « أي طعامهم الضريع ، كما قال تعالى « ليس لهم طعام إلا من ضريع » وهو شوك كالعوسج » وقال مجاهد : هو الزقوم ، كما قال : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم » • وقال الامام القرطبي « والمعنى واحد » •

٤ ـ « وعذاباً أليماً » وفيه تعميم لسائر أنواع العذاب الهائل ، كما يشير إليه تنكير « عذاباً » وتنوينه •

« يَوْمَ تَرْجُفُ الأرضُ والجِبالُ » :

هذه الأنواع من العذاب يعذبون بها يوم الهول الأكبر ، يوم ترجف الأرض والجبال ، تهتز وتتحرك الأرض بسرعة والجبال التي هي مثقلة للأرض ورواسي لها ترجف تلك الرجفة العظيمة تتحول منها لشدة هول الرجفة شيئاً آخر : « كثيبا مهيلا » • رملا سائلا •

وفي الآيات تهويل عظيم في قوله « وذرني والمكذبين » وقوله « ومهلهم قليلاً » ثم في نون « لدينْا » وتنكير أنواع العذاب الأربعة التي ذكرت ثم في صفة يوم القيامة الذي ترجف من أهواله الأرض والجبال فتستحيل الجبال كثباناً رملية سائلة ثم تنسف نسفاً • فما أعظم هذه الآيات !

وقد أخرج الامام أحمد في الزهد وابن أبي داود وابن عدي في الكامل والبيهقي في الشعب من طريق حمران بن أعين عن أبي حرب بن الأسود أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقرأ « إن لدينا أنكالاً وجحيماً ... » الى آخره فصعق .

وقال خالد بن حسان أمسى عندنا الحسن وهو صائم ، فأتيته بطعام، فعرضت له هذه الآية « إن لدينا ... » فقال : ارفعه . فلما كانت الليلة الثانية أتيته بطعام ، فعرضت له أيضاً ، فقال ارفعه . وكذلك الليلة الثالثة . فانطلق ابنه الى ثابت البُناني ويزيد الضبي ويحيى البكائي ، فحدثهم بحديثه ، فجاؤوا معه ، فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق »[1] .

الاستنباط والأبحاث العلمية :

١ ـ اشتملت الآية الأولى « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً » على بيان ما تقوم عليه مخالطة الداعية للخلق . وقد فصل ذلك الامام الرازي فقال :

« اعلم أن مهمات العباد محصورة في أمرين : كيفية معاملتهم مع الله ، وكيفية معاملتهم مع الخلق .والأول أهم من الثاني . فلما ذكر تعالى في أول هذه السورة ما يتعلق بالقسم الأول ، أتبعه بما يتعلق بالقسم الثاني ، وهو سبحانه جمع كل ما يحتاج إليه من هذا الباب في هاتين الكلمتين . وذلك لأن الانسان إما أن يكون مخالطاً للناس ، أو مجانباً عنهم ، فإن خالطهم فلا بد له من المصابرة على إيذائهم وإيحاشهم ، فإنه إن كان يطمع منهم في الخير والراحة لم يجد ، فيقع في الغموم والأحزان . فثبت أن من أراد مخالطة مع الخلق فلا بد له من الصبر الكثير فأما إن ترك المخالطة فذاك هو الهجر الجميل ، فثبت أنه لا بد لكل إنسان من أحد هذين الأمرين » .

---

(١) كذا أورد المفسرون هذا الأثر كالنسفي والقرطبي والآلوسي .

٢ ـ قال المفسرون : هذه الآية « واصبر ··· » نزلت قبل تشريع القتال ثم نسخت بالأمر بالقتال الوارد في المدينة المنورة ·

وقد قيل نحو هذا في كل آية تأمر بمثل هذا الموقف من التحمل أو حسن المجاملة · وهذا توسع كبير جداً في النسخ بلا داع ·

لذلك قال أهل التحقيق في هذه الآية : إنها للأخذ فيما يكون أدعى للقبول ، فلا يرد النسخ في مثله · قال الامام الرازي وهذا أصح · انتهى.

والحاصل أن التعامل مع المخالفين له حالان :

حال المسالمة والحوار : وهذه يراعى فيها ما ورد من الصبر والتحمل والمحاسنة معهم ·

حال المحاربة : وهذه يطلب فيها اتخاذ العدة والمعاملة بالغلظة « جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » ·

قال الله تعالى :

« إنا أرْسَلْنا إليكُمْ رَسولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما ارْسَلْنا إلى فرْعَونَ رسولاً ، فعَصَى فِرْعَونُ الرَّسولَ فأَخذْناهُ أَخْذاً وَبِيلاً ، فَكَيفَ تَتَّقُونَ إنْ كَفَرْتُم يوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً السماءُ مُنْفَطِرٌ به ، كانَ وَعْدُه مَفْعُولاً ، إنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إلى رَبِّه سَبيلاً » ·

(سورة المزمل : ١٥ ـ ١٩)

اللغـــة :

أرسلنا إليكم رسولاً : هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ·

كما أرسلنا الى فرعون رسولاً : هو موسى عليه السلام الكاف في محل

النصب على أنها صفة لمصدر محذوف على تقدير اسميتها « أي بمعنى مثل » أي إرسالاً مثل إرسالنا أو الجار والمجرور في موضع الصفة على تقدير حرفية الكاف ، آي إرسالا منا كما أرسلنا .

وبيلاً : ثقيلاً شديداً . وضَرب وبيل أي شديد . قاله ابن عباس ومجاهد . ومنه : مطر وابل أي شديد . قال الأخفش وقال الزجاج : أي ثقيلاً غليظاً .

يوماً : ظرف منصوب على الظرفية وفي تعلقه أقوال فهو إما : مفعول « تتقون » أي « فكيف تتقون » عذاب يوم كذا « إن كفرتم » ؟ أو ظرف . أي « فكيف » لكم التقوى في يوم القيامة « إن كفرتم » في الدنيا ؟ أو منصوب ب « كفرتم » على تاويل جحدتم أي كيف « تتقون » الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء ؟ والراجح أنه متعلق بتتقون أي عذاب يوم .... قال الآلوسي : « ولا يخفى أن جزالة المعنى ترجح الأول » .

شيباً : جمع أشيب .

منفطر به: متشققة به ، كما يشق العود بالقدوم ، لشدة هول اليوم . وقيل به أي : فيه أي في ذلك اليوم لهوله . قال القرطبي : « وهذا أحسن ما قيل فيه وقيل غير ذلك » . قال القرطبي : والباء واللام وفي متقاربة في مثل هذا الموضع » .

أما لماذا جعل السماء مذكراً ففيه أقوال اختار منها النسفي وأبو السعود أنها على تقدير شيء أي السماء شيء منفطر به .

المعنى والأسلوب :

لما خَوَّف الله تعالى المكذبين أولي النعمة في الآيات السابقة بأهوال

الدنيا فقال « إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم » فوجه الخطاب إليهم بعد أن كان الكلام معهم على أسلوب الغيبة وفي هذا التفات من الغيبة الى الخطاب وهو التفات جليل الموقع في التهديد والانذار ، أي إنا أرسلنا إليكم أيها المكذبون مِنْ أهلِ مكة ، والانذار يتجه لكل من عاند مثلهم أيضاً ، كما قال ابن كثير : « ثم قال مخاطباً لكفار قريش والمراد سائر الناس ...

« إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم » :

هو محمد صلى الله عليه وسلم يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم وأعمالكم » .

وقيل المراد من كونه شاهداً « كونه مبيّناً للحق في الدنيا ومبيّناً لبطلان ما هم عليه من الكفر ، لأن الشاهد بشهادته يبين الحق . ولذلك وصفت الشهادة بأنها بيّنة فلا يمتنع أن يوصف عليه الصلاة والسلام بذلك من حيث إنه بين الحق . وهذا بعيد لأنه تعالى قال : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » أي عدولاً خياراً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً فبين أنه يكون شاهداً عليهم في المستقبل ولأن حمله على الشهادة في الآخرة حقيقة وحمله على البيان مجاز والحقيقة أولى » .

وفي الآيات من دقة الأداء والتهويل مالا يحد له حد : كالالتفات في مطلعها كما ذكرنا، ثم تنكير رسولاً وشاهداً، وإعادة ذكر فرعون والرسول مظهرين ، مع أن الظاهر إضمارهما ، وذلك فيه تفظيع شأن عصيانه وأن ذلك لكونه عصيان الرسول لا لكونه عصيان موسى لذلك لم يذكر اسم الرسول موسى عليه السلام .

وفي هذا إشارة ــ كما قال الآلوسي ــ الى « أن عصيان المخاطبين أفظع وأدخل في الذم ، إذ زاد جلّ وعلا لهذا الرسول وصفاً آخر هو قوله « شاهداً عليكم » وأدمج فيه أنهم لو آمنوا كانت الشهادة لكم . وقوله

تعالى « فأخذناه أخذاً وبيلاً » أي ثقيلاً رديء العقبى ··· خارج عن التشبيه جيء به لإيذان المخاطبين بأنهم مأخوذون بمثل ذلك وأشد».

« فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً » :

بعد هذا يخاطب الله تعالى المعاندين بأنكم وقد بعث لكم الرسول وكفرتم به فكيف تتقون العذاب العظيم يوم القيامة ·

وقد تضمنت الآية أنواعاً من أساليب التهويل منها الاستفهام الإنكاري « كيف » والتنكير في « يوماً » أي يوماً لا يقادر قدر هوله ولا يحيط التصور بأخطاره ، ثم بيان ما يقع فيه بنتيجة الأهوال وذكر القرآن هنا أمرين : أولهما قوله : « يجعل الولدان شيباً » أي من شدة أهواله وزلازله وبلابله ، وذلك حين يقول تعالى لآدم ابعث بعث النار فيقول : من كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة · كما وردت بذلك الأحاديث في الصحيحين وغيرهما ·

أخرج الطبراني عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « يوماً يجعل الولدان شيباً » قال ذلك يوم القيامة وذلك يوم يقول الله لآدم : قم فابعث من ذريتك بعثاً الى النار ! قال : من كم يا رب ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون وينجو واحد · فاشتد ذلك على المسلمين وعرف ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال حين أبصر ذلك في وجوههم : « إن بني آدم كثير وإن يأجوج ومأجوج من ولد آدم وإنه لا يموت منهم رجل حتى ينتشر لصلبه ألف رجل ففيهم وفي أشباههم جُنَّة لكم » ·

ويشهد لأصل معنى الحديث حديث أبي سعيد الخدري الصحيح · أخرج الشيخان واللفظ للبخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى يوم القيامة يا آدم فيقول : لبيك ربنا وسعديك ، فيُنادَى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً الى النار قال : يا رب وما بعث النار ؟ قال من كل ألف

ـ أراه قال ـ تسعمائة وتسعة وتسعين فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد « وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم · قال النبي صلى الله عليه وسلم : من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد · ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » فكبرنا · ثم قال « ثلث أهل الجنة » فكبرنا · ثم قال « شطر أهل الجنة » فكبرنا · انتهى ·

وأخرج أحمد عن عائشة قالت : قلت يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال : يا عائشة أما عند ثلاث فلا ، أما عند الميزان حتى يثقل أو يَخِفَّ ، فلا ، وأما عند تطاير الكتب فإما يعطى بيمينه أو يعطى بشماله فلا ، وحين يخرج عنق من النار فينطوي عليهم ويتغيظ عليهم،ويقول ذلك العنق: وُكِّلْتُ بثلاثةٍ ،وُكِّلْتُ بثلاثةٍ ، وُكِّلْتُ بثلاثة:وكلت بمن ادعى مع الله إلهاً آخر،ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ووكلت بكل جبار عنيد · قال : فينطوي عليهم ويرميهم في غَمَراتٍ ، ولجهنمَ جِسْرٌ أدقُّ من الشعرة وَأَحَدُّ من السيف عليه كلاليب وحسك يأخذن من شاء الله والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب والملائكة يقولون : رب سلم ، سلم · فناج مُسَلَّم ومخدوش مُسَلَّم ، ومُكَوَّرٌ في النار على وجهه » ·

الثاني من آثار هول القيامة :

« السماء منفطر به » :

أي أن السماء على عظمها وإحكامها تنفطر بشدة ذلك اليوم وهوله كما ينفطر الشيء بما يشقه ، فما ظنك بغيرها من الخلائق · وهذا كقوله تعالى « إذا السماءُ انْشَقَّتْ » وقال عز وجل « ويومَ تَشَقَّقُ السماءُ بالغمام ونُزِّلَ الملائكةُ تنزيلاً » وفي هذه الجملة إشارة لعظم الهول وذلك بذكر السماء خاصة فكيف بغيرها،وأيضاً بالتعبير عن السماء

وهي مؤنث على المشهور بالمذكر « منفطر » لكون قوله منفطر أجري صفة على موصوف مذكر ، والتقدير : شيء منفطر به أي بيوم القيامة . وفيه نكتة بلاغية عظيمة ، هي التنبيه على أنه تبدلت حقيقتها وزال عنها اسمها ورسمها ، ولم يبق منها إلا ما يعبر عنه بالشيء »(١) .

« كانَ وَعْدُهُ مَفْعولاً » :

هذا تأكيد لوقوع ذلك اليوم بعد بيان هوله يزيد هذا التأكيد التهويل والخوف منه ، أي كان وعد هذا اليوم المحدد له مفعولاً أي واقعاً لا محالة وكائناً لا محيد عنه :

إنَّ هذه تَذْكِرَةٌ فمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إلى ربه سبيلاً » :

بعد أن خاطب الناس بأصنافهم بما يناسب كلاً منهم من الوعد أو الوعيد عقب بتقرير ما سبق من ذلك كله فقال « إن هذه تذكرة » أي هذه الآيات أو هذه السورة تذكرة يتعظ بها من جعل وجهته الاهتداء، والتوجه الى ربه ، فاتخذ لذلك سبيله الذي يوصله إليه ، وذلك بالتقرب إليه تعالى بالايمان والطاعة ، فانه المنهاج الموصل الى مرضاته تعالى والى السعادة .

قال الله تعالى :

« إنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أنك تقومُ أدْنى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْلِ ونِصْفه وثُلُثَه وطَائفة مِنَ الذينَ مَعَكَ واللهُ يُقَدِّرُ اللَّيلَ والنهارَ عَلِمَ أنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيكُمْ فاقرَؤُا ما تيَسَّر مِنَ القُرآنِ عَلِمَ أنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ في الأرْضِ يَبْتَغُونَ من فَضْلِ اللهِ

---

(١) الآلوسي ج ٢٩ ص ١٠٩ ـ ١١٠ والرازي ج ٣٠ ص ١٨٤ ـ ١٨٥ ، وفيهما أجوبة أخرى عن تذكير السماء ، هذا أولاها وأليقها ببلاغة النظم . وانظر القرطبي ج ١٩ ص ٥٠ ـ ٥١ .

وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ».

(سورة المزمل : ١٩)

اللغــة :

أدنى : أي أقل وأصل الدنو : القرب استعير الأقرب للأقل لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الحيِّز وإذا بعدت كثر ذلك .

ونصفه وثلثه: بالنصب عطفاً على أدنى والمعنى : تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصفه وثلثه قال الفراء: وهو أشبه بالصواب لأنه قال : أقل من الثلثين . ثم ذكر نفس القلة لا أقل من القلة . وقرىء بالجر وهي قراءة كثير من القراء . عطفاً على « ثلثي » والمعنى : تقوم أدنى من ثلثي الليل ، ومن نصفه وثلثه ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله تعالى : « علم أن لن تحصوه » فكيف يقومون نصفه أو ثلثه ، وهم لا يحصونه ؟! .

فتاب عليكم: أصل التوبة الرجوع . قيل أي : فعاد عليكم بالعفو وهذا يدل على أنه كان فيهم من ترك بعض ما أمر به .
قال الآلوسي : وليس بشيء قلت : لأن سياق الآية يدل على اجتهادهم فأين التقصير . وقيل : فتاب عليكم من فرض القيام إذا عجزتم وهو أرجح .

فاقرءوا ما تيسر من القرآن : فيه قولان : أحدهما المراد نفس القراءة أخذاً بظاهر العبارة وقد اختلفت عبارات أصحاب هذا القول في المقدار المراد .

القول الثاني : الصلاة • أي فصلوا ما تيسر عليكم والصلاة تسمى قرآناً ، لقوله تعالى « وقرآن الفجر » أي صلاة الفجر • قال ابن العربي «وهو الأَصَحّ،لأنه عن الصلاة أخبر، وإليها يرجع القول » قال القرطبي « ص ٥٤ » : الأول أصحّ حملاً للخطاب على ظاهر اللفظ والقول الثاني مجاز فانه من تسمية الشيء ببعض ما هو من أعماله • ا هـ • وانظر ما سيأتي •

علم أن سيكون منكم مرضى: أن مخففة من الثقيلة أي علم أنه سيكون •

يضربون في الأرض : الضرب في الأرض كناية عن السفر أي : مسافرين للتجارة •

المعنى والأسلوب :

عادت السورة في ختامها الى ما بدأت به من الأمر بصلاة الليل وهي عدة السالكين الداعين الى الله المتقربين إليه ، لكي تخفف عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما أجهدوا به أنفسهم امتثالاً لأمر ربهم :

« إنّ ربَّكَ يَعْلَمُ أنَّكَ تقومُ أَدْنى من ثُلُثَيِ اللَّيْلِ » :

أي زماناً أقل من ثلثي الليل ، وجاء الأسلوب في غاية التلطف في الخطاب باستعمال اسم « رب » المنبيء عن العناية والامداد ، وإضافته الى المخاطب وهو النبي صلى الله عليه وسلم تكريماً وتشريفاً له صلى الله عليه وسلم • وهذا كله مناسب لسياق التخفيف الذي جاءت له الآية ، ثم في التعبير بقوله «أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه » وأصل معنى الأدنى الأقرب والمراد به الأقل مجازاً ، استعمل هكذا لابعاد لفظ « قليل » الذي قد يتوهم منه تقليل عملهم العظيم الذي قاموا به واجتهدوا فيه •

« وطائِفَةٌ مِنَ الذينَ مَعَكَ » :

أي وتقوم معك طائفة من أصحابك ، والجملة معطوفة على الضمير المستتر في « تقوم » وحسنه الفصل بينهما •

« واللهُ يُقَدِّرُ الليل والنهار » :

انه يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها ، وأنتم بالتحري والاجتهاد الذي يقع فيه الخطأ(١) والليل والنهار تارة يعتدلان ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، أو هذا من هذا(٢) ·

فأشارت الآية الى أنه « لا يعلم مقادير ساعاتهما كما هي إلا الله تعالى وذلك بتقديم اسمه تعالى « الله » وجعله مبتدأ يبنى عليه قوله « يقدر » ، فدل ذلك على الاختصاص كما ذهب إليه الزمخشري ويؤيده قوله تعالى « علم أن لن تحصوه » فان الضمير فيه للتقدير المفهوم من قوله « يقدر » وليس للقيام ·

والمعنى : علم أن الشأن لن تقدروا على تقدير الأوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات ، ولا يتأتى لكم حسابها بالتعديل والتسوية ، إلا أن تأخذوا أنفسكم بالعمل الأكثر للاحتياط من النقص ، وذلك شاق عليكم · « فتاب عليكم » · أي بالترخيص في ترك القيام المقدر ، ورفع التبعة عنكم في تركه ·

« فاقرَءُوا ما تَيَسَّرَ مِنَ القرآن » :

أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل ، عبر ـ كما هو الراجح ـ عن الصلاة بالقرآن ، كما عبر عنها بسائر أركانها ، مثل تسميتها ركعة، وسجوداً ، وقياماً ·

وقد اختلفت آراء المفسرين في المراد :

فمنهم من جعل الآية نسخاً لقيام الليل بقراءة القرآن ، ومنهم من جعلها نسخاً لوجوبه بالمقدار المعين الى ما يتيسر ، ومنهم من قال نسخ وجوبه وترك لاختيار المكلفين وتسابقهم الى الخيرات · والأمر في قوله « فاقرءوا » ليس للإيجاب بل للسنة ويؤيد هذا :

---

(١) قرطبي ٥٣ ·
(٢) ابن كثير ج ٨/ ٢٨٤ ·

١ ـ قوله فيما سبق « فتاب عليكم » ·

٢ ـ حديث سعد بن هشام عن عائشة الذي سنذكره ان شاء الله ·

« عَلِمَ أنْ سيكونُ مِنكُمْ مرضى وآخَرُونَ يَضْرِبون في الأرض يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وآخَرونَ يُقاتِلون في سبيل الله ».

استأنفت الآية الكلام هنا لبيان حكمة أخرى غير ما تقدم من عسر احصاء تقدير الأوقات المقتضي للترخيص والتخفيف · أيْ علم أن الشأن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض أي يسافرون فيها للتجارة ، أو لطلب العلم ، ونحو ذلك ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله ··· وهم المجاهدون ·

وقال ابن كثير :

« أي علم ان سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل . من مرضى لا يستطيعون ذلك ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر ، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله · وهذه الآية ـ بل السورة كلها ـ مكية ، ولم يكن القتال شرع بعد ، فهي من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة ولهذا قال : « فاقرءوا ما تيسر منه » أي قوموا بما تيسر عليكم منه ·

« وأَقِيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ » :

أي أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم ، وآتوا الزكاة المفروضة · وهذا يدل لمن قال : إن فرض الزكاة نزل بمكة ، ولكن مقادير النصب والمَخْرَج لم تُبين إلا بالمدينة والله أعلم » · انتهى ·

« وأقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً » :

القرض الحسن ما قصد به وجه الله تعالى من المال الطيب ·· وقال زيد بن أسلم: القرض الحسن النفقة على الأهل، وقال عمر بن الخطاب:

هو النفقة في سبيل الله[١] . وما قاله عمر هو الأرجح ، ويدخل فيه النفقة على الأهل فانها لمن أخلص النية صدقة . كما في الحديث « حتى ماتجعل في فيّ امرأتك » لكن الزكاة ليست داخلة في الآية لسبق ذكرها من قبل وهذه عطفت عليها .

وقال ابن كثير[٢] « وأقرضوا الله قرضاً حسناً يعني من الصدقات ، فان الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، كما قال « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » .

« وما تُقَدِّموا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خيرٍ تجدوه عِنْدَ اللهِ هُو خَيْراً وأَعْظَمَ أجْراً » :

أي جميع ما تقدمونه بين أيديكم فهو لكم حاصل ، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا . وقال ابن عباس « تجدوه عند الله خيراً وأعظم أجراً من الذي تؤخره الى وصيتك عند الموت » . قال الفخر الرازي[٣] : يرجح هذا التفسير : « والقول ما قاله ابن عباس » . وذكر الضمير « هو » في قوله : « هو خيراً » للتأكيد والمبالغة كما ذكر الرازي .

« واستغفروا اللهَ إنّ اللهَ غَفورٌ رحيم » :

أي استغفروا الله تعالى في كافة أحوالكم ، وقال الرازي[٤] : « واستغفروا الله لذنوبكم والتقصيرات الصادرة منكم خاصة في قيام الليل » . « ان الله غفور رحيم » فانه غفور رحيم لمن استغفره فيغفر سبحانه ذنب من استغفره ، ويرحمه عز وجل .

---

(١) قرطبي ص ٥٨ .

(٢) ص ٢٨٦ .

(٣) ص ١٨٨ .

(٤) ص ١٨٨ .

الاستنباط والفوائد :

١ ـ نسخ فرضية قيام الليل ، التي ثبتت بأول السورة ·

والناسخ هنا قوله تعالى : « علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن » · حيث عبر بقوله « تاب » أي خفف عنكم · ثم ترك المسألة لاختيار المصلي « فاقرءوا ما تيسر من القرآن » أي صلوا ندباً لا وجوباً ما تيسر لكم من صلاة الليل ·

ويشهد لذلك الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم والامام أحمد في مسنده(١) عن سَعْد بن هشام ·· وذهابه الى عائشة ليسألها عن أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وصلاته بالليل وفيه قولها له : « ألست تقرأ هذه السورة « يا أيها المزمل » قلت : بلى · قالت : فان الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً ، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة ·· » ·

والظاهر أن هذا النسخ في حق النبي صلى الله عليه وسلم وحق أمته ، وقيل بقي فرض قيام الليل في حق النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل بقي الفرض على الجميع ، لكن فوّض قدره الى اختيار المصلي ·

وحديث عائشة يرجح الأول لأن الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته فحيث عقب بالتخفيف فهو في حق الجميع · ويشهد لذلك قوله تعالى « ومن الليل فتهجد به نافلة لك ··· » ·

٢ ـ في الآية إشارة الى فضل قراءة القرآن حيث عبر بها عن الصلاة ، إشارة لأهميتها ومن ذلك قوله تعالى « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً » يعني صلاة الفجر ·

---

(١) صحيح مسلم ج ٢ ص ١٦٨ ـ ١٧٠ (باب جامع صلاة الليل ···) والمسند ج ٦ ص ٥٤ ·

وقد فسر بعض العلماء الآية على قراءة القرآن أخذاً بالظاهر كما أسلفنا ، لكن ترجح تفسيره بالصلاة لحديث عائشة الذي ذكرناه ·

وقدر القراءة المطلوب كل ليلة قال السدي : « مائة آيـة » وقال الحسن : « من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجـه القـرآن » وقال كعب : «من قرأ في ليلة مائة آية كتب من القانتين» · وقال سعيد «خمسون آية» ·

قال القرطبي(١) : قلت قول كعب أصح ، لقوله عليه السلام : « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلـين ، ومن قـام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين » أخرجـه أبو داود الطيالسي في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو ·

٣ ـ الآية عـلى تفسير قوله « فاقرءوا ····· » بالقـراءة في الصلاة ، تدل عـلى فرضية قراءة القرآن في الصلاة مطلقاً دون تقييد بسورة معينة ·

فقال الحنفية هـذا هو الفرض ، وتعيـين الفاتحة واجب وقراءة سورة قصيرة أو قدر ثلاث آيات قصار مع الفاتحة واجب أيضاً ·

وقال المالكية والشافعية والحنبلية تعيين الفاتحة فرض في الصلاة · لحديث عبادة : « لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب » · متفق عليه ·

---

(١) بعد سرد هذه الأقوال ص ٥٣ ·

تفسير سورة النبأ

تمهيـــد :

تسمى هذه السورة سورة النبأ وسورة « عمَّ » و « عمَّ يتساءلون » وسورة التساؤل وسورة المعصرات ·

وهي مكية بالاتفاق وآياتها إحدى وأربعون آية في المكي والبصري وأربعون في غيرهما ·

ويدور موضوع السورة على ما وقع بين الكفـــار من إنكار ليوم القيامة واختلافهم في هذا الإنكار الى وجهـات ، وتساؤلات يتعجبون وينكرون بها يوم القيامة ·

وقد ردت السورة على ذلك بتهويل التساؤل عنه والإستهزاء به ، ووعيد المنكرين والمستهزئين ثم بينت حقية البعث والنشور ببيان قدرة الله العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة · مما هو مشاهد لعين العيان « ألم نجعل الأرض مهاداً ··· » ·

ثم انتقلت السورة من دلائل حقية القيامـة الى كيفية وقوعهـا وما سيلقونه عنـد ذلك من الأهـوال ، « إن يوم الفصل كان ميقاتا » وأتبعت ذلك بيان عـذاب الكافرين ونعيم المؤمنـين ، ثم بيان عظمة الله تعـالى « رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن » وأنه تعالى لعظمته لا يملك أحد أن يخاطبه يوم القيامة « إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » ·

واختتمت السورة بتقرير حقية يوم القيامة لتأكيد غرض السورة وتوجيه النفوس لما تمليها عليها الحكمة ، من وجوب الاستعداد وأخذ الأهبة للقاء ذلك اليوم العظيم،«فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا.إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ٠ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً » ٠

مناسبة السورة لما قبلها :

ترتبط سورة عمّ بالسورة التي قبلها وهي سورة المرسلات بأوجه متعددة من وجوه الارتباط والتناسب نذكر منها :

١ ـ أنه سبق في سورة المرسلات ذكر تكذيب الكفرة بالبعث وجاء في هذه السورة إثباته بدلائل قدرة الله تعالى على خلق الأشياء العظيمة والعجيبة ٠

٢ ـ تناسبها مع السورة السابقة في الجمل ، فإن في سورة المرسلات السابقة « ألم نهلك الأولين ، ألم نخلقكم من ماء مهين ، ألم نجعل الأرض كفاتا ٠٠٠ » وفي سورة عمّ « ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً »٠

٣ ـ في هذه السورة والسورة التي قبلها مناسبة تمتد الى ما قبل سورة المرسلات بثلاث سور حتى سورة المدثر وهي اشتمالها على وصف الجنة والنار ٠ « وما وعد المدثر » ٠

٤ ـ في سورة المرسلات « لأي يوم أجلت ٠ ليوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل » وفي سورة عمّ « إن يوم الفصل كان ميقاتا » ففيها شرح يوم الفصل المجمل ذكره فيما قبلها ٠

٥ ـ قيل في المناسبة الخاصة « إنه تعالى لما ختم تلك بقوله سبحانه « فبأي حديث بعده يؤمنون » وكان المراد بالحديث فيه القرآن افتتح هذه بتهويل التساؤل عنه والإستهزاء به » ٠

وهو مبني على ما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة أن المراد بالنبأ العظيم القرآن والجمهور على أنه البعث وهو الأنسب بالآيات التي تأتي بعدُ في السورة(١) ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« عمَّ يَتساءَلونَ . عَنِ النَّبَأِ العظيم . الذي هُمْ فيه مُختَلِفُون . كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ٠ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمون »

(سورة النبأ : ١ ــ ٥)

المفردات والصرف :

عَمَّ : لفظ استفهام ، أصلها « عن ما » سقطت منها ألف « ما » ليتميز الخبر عن الاستفهام ٠ وكذلك « فيم » ، « مم » ، إذا استفهم بهما(٢) ٠

وما : وُضِعَتْ في أصل اللغة لطلب حقائق الأشياء ومسميات أسمائها ، كما في قولك : ما الملك ؟ ، وما الروح ؟. لكن قد يُطْلَبُ بها معرفةُ الصفة والحال ، تقول : ما زيد ؟ فيقال عالم ٠ وهذا هو المراد هنا ، وهو السؤال عن وقوع يوم القيامة الذي هو حال من أحواله ووصف من أوصافه(٣) ٠

---

(١) انظر أوجه المناسبة هذه في الألوسي ج ٣٠ ص ٢ المنيرية ٠

(٢) وذكروا لحذف الألف عللاً أخرى ٠ انظر الرازي ج ٣١ ص ٢ والألوسي ج ٣٠ ص٢ وفيه قوله وحال العلل النحوية معلوم ٠

(٣) أبو السعود بتصرف ج ٥ ص ٢٢٢ ٠

النبـأ : الخبر الذي له شأن وخطر • وقد اختلف في المراد به • فقيل هو القرآن الكريم ، وقيل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل يوم القيامة ، وهو المختار عند جمهور المفسرين لما سيأتي بعد في السورة •

كلا سيعلمون: كلا حرف ردع وهو ردع عن التساؤل المذكور • وذهب أبو السعود الى أنه ردع عن التساؤل وعن الاختـلاف بمعنى مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم ، واستشهد بأن افتعل يجري فيها ما يجري في تفاعل(١) •

والسين في سيعلمون : للتقريب والتأكيد(٢) •

ثم كلا سيعلمون: في هذا التكرار وجهان : الراجح الذي عليه المحققون: أنه تكرار، الغرض منه التأكيد والتشديد. ومعنى ثم الإشعار بأن الوعيد الثاني أبلغ من الوعيد الأول وأشد •

الاعراب :

عـمّ : جار ومجرور متعلقان بيتساءلون المذكور بعـده ، قدم لأن للاستفهام حق الصدارة •

يتساءلون : الضمير الفاعل في يتساءلون فيه أوجه ، أرجحها ــ والله أعلم ــ أنه عائد الى الكفار والدليل على ترجيحه قوله تعالى : «كلا سيعلمون • ثم كلا سيعلمون » • فان الظاهر أن الضمير في قوله « يتساءلون » ــ كما قال الرازي ــ وقوله « هم فيه مختلفون » وقوله « كلا سيعلمون » راجـع الى شيء واحد ، وظاهر أن قوله « كلا سيعلمون » تهديد ووعيد ، وذلك لا يليق إلا بالكفار ، فثبت أن الضمير في يتساءلون عائد الى الكفار •

---

(١) انظر تحقيقه في ذلك ص ٢٢٣ •

(٢) أبو السعود ص ٢١٣ •

عن النبأ العظيم : متعلق بفعل يتساءلون مقدر · دل عليه المذكور · أي عن النبأ العظيم يتساءلون

وقدرناه بعدها للمسارعة الى بيان المسؤول عنه ومراعاة لترتيب السؤال[1] ·

المعنى والأسلوب :

يقول تعالى منكراً على المشركين تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها :

« عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النبأِ العظيم » :

أي عن أي شيء يتساءلون ؟ أعن أمر القيامة ، وهو النبأ العظيم ، يعني الخبر الهائل المفظع الباهر ·

وقد اشتمل هذا الإنكار على فنون من بلاغة التهويل والإنكار ، وأول ذلك هذا الافتتاح بقوله « عم » الذي يثير الانتباه ويجتذب الأفكار لما وراء الاستفهام ، ثم التعبير بأسلوب الإبهام للمسؤول عنه للإيذان بفخامة شأن المسؤول عنه وهوله ، وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة أي عن أي شيء عظيم الشأن يتساءلون ·

« عَنِ النَّبأِ العظيم » :

وأي نبأ أعظمُ من بعث الناس بعد الموت ، وقد بين القرآن المسؤول عنه بياناً فيه غاية الفخامة والجزالة وذلك بهذا الإيراد للكلام على طريقة الاستفهام من علام الغيوب ، فان فيه تنبيهاً على غاية خطر يوم القيامة وعظمة شأنه ، حتى صار لانقطاع أمثاله عن الوجود وانعدام نظيره خارجاً عن دائرة علوم الخلق ، خليقاً بأن يُعْتَنَى بمعرفته ويُسْأَل عنه ، كأنه قيل عن أي شيء يتساءلون هل أخبركم به ؟

---

(1) أبو السعود ج ٥ ص ٢٢٢ ·

ثم قيل على طريق الجواب : عن النبأ العظيم ، على أسلوب قوله تعالى :

«لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار»وقد عبر بالنبأ، ــ دون غيره من الألفاظ ــ والنبأ كما قلنا هو الخبر الذي له شأن وخطر ليتناسب مع الدلالة على خطره وعظمته ووصفه بأنه « عظيم » • فدل بذلك على أنه في غاية العظمة والهول • ثم وصفه بقوله :

« الذي هم فيه مختلفون » :

وهذا التعبير فيه مبالغة في شأن ذلك اليوم وشأن نبئه ، والإشعار بمدار التساؤل عنه • لذلك قدم الجار « فيه » على متعلقه « مختلفون » اهتماماً به ورعاية للفواصل ، وجعل صلة اسم الموصول جملة اسمية للدلالة على الثبات أي راسخون في الاختلاف فيه • فمن جازم باستحالته يقول إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وشاك يقول : ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ، وقيل منهم من ينكر المعادين معاً كهؤلاء • ومنهم من ينكر المعاد الجسماني فقط كجمهور النصارى(١) •

ثم قال سبحانه يتوعد المتسائلين المنكرين المستهزئين :

« كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون » :

وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، افتتح بحرف « كلا » للردع عن تساؤل المنكرين والمستهزئين ، وأردف بالوعيد الشديد في قوله : « سيعلمون » أي ما يلاقونه من فنون الدواهي والعقوبات • وقد عبر عن لقائه بالعلم لوقوعه في معرض التساؤل ، والمعنى ليرتدعوا عما هم عليه فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال . إذا حل بهم العذاب والنكال •

---

(١) وهناك أقوال أخرى ضعيفة أوردها الرازي وتعرض لها أبو السعود فذكرها الآلوسي وقال : (والكل كما ترى ، وإن تفاوتت مراتب الضعف والمعول عليه الأول) •

ثم كرر هذا الردع والوعيد فقال « ثم كلا سيعلمون » وهذا تكرير للمبالغة في الردع والوعيد والترقي إلى الأشد منهما · لذلك عطف بينهما بـ « ثم » ، لبيان التفاوت في الرتبة كما ذكرنا · فكأنه قيل : لهم يوم القيامة ردع وعذاب شديدان ، بل لهم يومئذٍ ردع ووعيد أشد وأشد · وبهـذا الاعتبار صار التكرير كأنه مغاير لما قبله ، لزيادة الشدة فيه . فعطف عليه[1] ·

قال تعالى :

« أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً . والجِبالَ أَوْتاداً · وخَلقناكُمْ أَزْواجاً . وَجعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً · وَجعَلْنا الليلَ لِباساً · وَجعَلْنا النَّهـارَ مَعاشاً · وبَنَينا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً . وَجعَلْنا سِراجاً وَهّاجاً . وأَنْزَلْنا من المُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجاً · لِنُخْرِجَ به حَبّاً ونباتاً · وَجَنّاتٍ أَلْفافاً · »

(سورة النبأ : ٦ ــ ١٦)

مناسبة السورة لما قبلها :

هذه الآيات مستأنفـة وردت لتحقيق النبأ المتساءل عنه ، بتعداد بعض الشواهد الناطقة بتحقيقه ، إثر ما نبه عليها بما ذكر من الردع ·

وقال القرطبي[2] : « دلهم على قدرته على البعث ، أي قدرتنا عـلى إيجاد هذه الأمور أعظم من قدرتنا على الإعادة » ·

(١) الآلوسي بتصرف ج ٣٠ ص ٥ وقال : « ابن مالك يقول في مثله إنه من التوكيد اللفظي ، وإن توسط حرف العطف ، فلا تغفل » اهـ ·
(٢) القرطبي ص ١٧ ·

المفردات :

ألم نجعل: الهمزة لتقرير ما بعد النفي ، وذلك بواسطة إبطال النفي ، فهي استفهام للإنكار كما قالوا نفي النفي إثبات ،

مهاداً : المهاد : الغطاء والفراش وقد قال تعالى : « الذي جعل لكم الأرض فراشاً » وقرىء « مهداً » ومعناه أنها لهم كالمهد للصبي، وهو مايمهد له فينام عليه. تسمية للمهود بالمصدر[١]

أزواجاً : ذكراً وأنثى ، كما قال تعالى « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى » أو أن المراد منه كل صنفين متقابلين من القبيح والحسن ، والطويل والقصير ، وجميع المتقابلات والأضداد ،

سباتاً : السبات في اللغة معناه القطع ، والمراد به هنا الموت ، فيكون النوم مشبهاً بالموت لأنه قطع عن الحركة ،

لباسا : تلبسكم ظلمته وتغشاكم[٢] ، أو يستركم بظلامه كما يستركم اللباس[٣] ،

معاشا : مصدر ميمي بمعنى العيش ، ووقع هنا ظرفاً ، كما قيل في نحو أتيتك خفوق النجم وطلوع الفجر ،

المعصرات: أصح الأقوال فيها أن المعصرات السحاب ، وفي الصحاح « والمعصرات السحائب تعتصر بالمطر ، وأُعْصِرَ القوم أي أمطروا » ، والمعصر : الجارية أول ما أدركت وحاضت ، يقال: قد أعصرت كأنها دخلت عصر شبابها أو بلغته ، والجمع مَعاصِر ، ويقال هي التي قاربت الحيض لأن الإعصار في الجارية كالمراهقة في الغلام[٤] ،

---

(١) أبو السعود والقرطبي ،
(٢) الطبري وعنه القرطبي ،
(٣) أبو السعود ،
(٤) قرطبي ١٣٧ ،

وجزم غيره بهذا القول الأخير وهو أن المعصرات السحب التي قاربت المطر،ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض(١).

ثجاجاً : متتابعاً · من ثَـجَ يَـثـِجُ ·لازم ومتعد · يقال : ثججتُ دمه فأنا أثجه ثجاً ، وقد ثج الدم يَثُـجُ ثجوجاً · وكذلك الماء ·

وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل « أي الحج أفضل ؟ قال العج والثج » · أخرجه الترمذي ·

العج : رفع الصوت بالتلبية ، والثج إراقة دماء الهدايا وذبحهـا ·

ألفافا : أي ملتفة تداخل بعضها في بعض · قالوا : هذا جمع لا واحد له، كالأوزاع والأخياف. وقيل:الواحد لِفّ، ككِنّ وأكنان، أو لفيف ، كشريف وأشراف · وقيل : هو جمع لُفّ ، جمع لفّاء ، كخُضْر وخضراء(٢) ·

الاعراب :

قوله تعالى : « وخلقناكم أزواجاً » وما بعده من المتعاطفات معطوف على قوله « ألم نجعل الأرض مهادا »

ونجعل : فعل مضارع ، والمعطوفات أفعال ما ضية فما وجه عطفها على المضارع ؟.

وجه العطف : أن قوله «نجعل» صار بمعنى الماضي ، لدخول لم عليه لأنها تقلب الفعل المضارع الى ماضي والمعنى: أما جعلنا الأرض مهادا ...

أو أن همزة الاستفهام الإنكاري جعلت الكلام تقريراً فصار المعنى قد جعلنا الأرض مهادا ·· فصح العطف ·

---

(١) أبو السعود ·
(٢) أبو السعود بتصرف ·

المعنى والأسلوب :

بعد أن رد القرآن الكريم على منكري القيامة بالردع والوعيد الشديد الأكيد ، بل الأشد الاكد بين حقيقة ذلك اليوم ، بذكر دلائل قدرة الله العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة الدالة على قدرة الله تعالى على ما يشاء من أمر المعاد وغيره[1] ·

وقد ذكر ههنا من عجائب مخلوقات الله تعالى أمورا[2] :

أولها : « أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً » :

أي وطاءَ أو فراشاً · كما قال تعالى في سورة البقرة : « الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء » · وقد عبر هنا بقوله « ألم » بهمزة الاستفهام الداخلة على لم لتفيد تقرير ذلك على أبلغ وجه وآكده ، وأنه من الأمور البالغة غاية الظهور أي قد تحقق عندكم أنا جعلنا الأرض مهاداً ، ثم التعبير بالمهاد ، وهو مصدر يفيد قوة في التعبير ، ويوضح الصورة بهذا التشبيه البليغ الأرض كالمهاد في التوطئة ·

ثانيها : « والجبالَ أَوْتاداً » :

أي هي للأرض كالأوتاد ، وفي هذا تشبيه بليغ أيضاً · والمعنى أرسينا الأرض بالجبال كما يرسى البيت بالأوتاد ، حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها وهذا كما قال تعالى : « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم » ·

ثالثها : « وخلقناكم أزواجاً » : ذكوراً وإناثاً ، كما قال « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى » · وفي خلق الذكر والأنثى دلالة عظيمة ، لأن أصلهما واحد، ويدل علم الأجنة على دقة لطفه تعالى في خلق الجنسين، لذلك اختص هذا الموضع بعبارة « خلقناكم » لأن النطفة صالحة

---

(١) ابن كثير ·

(٢) أسلوب التعداد درجنا فيه على طريقة الامام الرازي رحمه الله ·

للأمرين والله يخلق منها النفس بنفخ الروح ويجعل منها الذكر والأنثى ليتسنى التناسل وينتظم أمر المعاش ·

ونلاحظ أيضاً في أسلوب الآية الإلتفات الى المخاطب « وخلقناكم » وفي ذلك زيادة قوة الإلزام والتبكيت[١] ·

رابعها : « وجعلنا نَوْمَكُمْ سُباتا » :

أي قطعاً للحركة ، حتى يصير كالموت ، أو سبيلا للراحة على ما بينا.

خامسها : « وجَعَلْنا الليلَ لِباساً » :

قال القفال : « أصل اللباس هو الشيء الذي يلبسه الانسان ويتغطى به فيكون ذلك مغطياً له ، فلما كان الليل يغشى الناس بظلمته فيغطيهم جعل الليل لباساً لهم · وهذا السبب جعل الليل لباساً على وجه المجاز · والمراد كون الليل ساتراً لهم[٢] ·

سادسها : « وجعلنا النهارَ مَعاشا » :

أي وقت حياة تبعثون فيه من نومكم الذي هو أخو الموت كما في قوله : « وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً »[٣] ·

سابعها : « وَبنينا فوقَكُمْ سَبْعاً شِداداً » :

أي سبع سموات شديدة ، قوية الخلق ، محكمة البناء لا يؤثر فيها مر الدهور وكر العصور[٤] · ولا فطور فيها ولا فروج ونظيره قوله تعالى : « وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً »[٥] ·

---

(١) الآلوسي ·
(٢) الرازي ص ٧ ·
(٣) أبو السعود ص ٢٢٤ ·
(٤) أبو السعود ٢٢٤ ·
(٥) الرازي ص ٨ ·

وفي الآية من فنون البلاغة التعبير بالبناء في قوله « بنينا » ، والمراد خلقنا ، وهذا التعبير يضفي على السموات صورة القباب المضروبة على الخلق ، ثم إنه قدم الظرف « فوقكم » على المفعول « سبعاً » ، ومثل هذا قد يعبر عنه بعض المفسرين بأنه لرعاية الفاصلة ، لكن ليس هذا هو الغرض فقط . بل إن القرآن يلاحظ في سبكه الشكل والمضمون معاً . لا يفصلهما عن بعضهما ، والمناسبة هنا في المعنى التشويق إلى ما أخر . فان ما حقه التقديم إذا أُخر تبقى النفس مترقبة له ، فإذا ورد عليها تمكن عندها فضل تمكن[1] .

ثامنها : « وجَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً » :

أي أنشأنا وأبدعنا سراجاً وهاجاً مشرقاً متلألئاً يعني الشمس المنيرة على جميع العالم ، يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم[2] .

تاسعها : « وأَنْزَلْنا من المُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجاً » :

آية المطر ينزل من السحاب ، قال ابن كثير :

« والأظهر أن المراد بالمعصرات السحاب ، كما قال تعالى : « الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ، فيبسطه في السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله » .

فالمطر ينزل من السحب التي تتقبل ذلك ثجاجاً أي صباباً متتابعاً .

« لِنُخْرِجَ به حَبّاً ونَباتاً . وجَنّاتٍ ألفافاً » :

قال ابن كثير : « أي لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك « حباً » يدخر للأناسي والأنعام ، ونباتاً أي خضراً يؤكل رطباً ، « وجنات » أي بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة وألوان مختلفة .

---

(١) أبو السعود بتفصيل لكلامه وتصرف ص ٢٢٤ .

(٢) أبو السعود ص ٢٢٤ ، وآلوسي .

وطعوم وروائح متفاوتة ، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً ، ولهذا قال : « وجنات ألفافاً » ٠

قال ابن عباس وغيره : ألفافاً مجتمعة ٠ وهذه كقوله تعالى : « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل ٠ صنوان وغير صنوان ، تسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل٠٠٠»٠

الأبحاث والفوائد العلمية :

١ ـ هـذه الآيات سيقت لإثبات حقية القيامة ، وقد ذكر فيها من أفعال الله تعالى العجيبة ما يدل على صحة البعث وحقيته ، وذلك من وجوه نذكر منها ثلاثة(١) :

« الأول : باعتبار قدرته تعـالى ، فان مَنْ قدر على إنشاء هـذه الأفعال البديعة من غير مِثالٍ يحتذيه ، ولاقانون ينتحيه كان على الاعادة أقدر وأقوى ٠

الثاني : باعتبار علمه وحكمته ، فان من أبدع هذه المصنوعات على نمط رائع مستتبع لغايات جليلة ومنافع جميلة عائدة الى الخلق يستحيل أن يفنيها بالكلية ، ولا يجعل لها عاقبة باقية ٠

والثالث : باعتبار نفس الفعل ، فان اليقظة بعد النوم أنموذج للبعث بعد الموت ، يشاهدونها كل يوم ٠ وكذا إخراج الحب والنبات من الأرض الميتة ، يعاينونه كل حين ، كأنه قيل : ألم نفعل هذه الأفعال الآفاقية ، والأنفسية الدالة بفنون الدلالات على حقية البعث الموجبة للايمـان به ، فما بالكـم تخوضون فيـه إنكاراً ؟! وتتساءلون عنـه استهزاء ؟! » ٠

---

(١) ذكرها أبو السعود ج ٥ ص ٢٢٥ وذكرها بحروفها الآلوسي وثمة أوجه أخرى أوردها الرازي في تفسيره ج ٣١ ص ١٠ ، رأينا ما ذكره أبو السعود أولى منهـا وأقوى فراجع وقارن ٠

٢ ـ عبرت الآيات عن جعل الناس أزواجاً بالخلق ، وعبرت في المواضع الأخرى بالجعل ، وهذا فيه لفت لعجيب صنع الله تعالى في خلق الذكر والأنثى ، كما في قوله تعالى « وما خلق الذكر والأنثى ··· » · وقوله : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ... » · وإذا كان في كل ما ذكرتــه الآيات عجائب ، وأمور مدهشة فإن في خلق الزوجين الذكر والأنثى دقيقة لطيفة جداً من دقائق صنعه تعالى ، وعلمه ولطفه لما يشاء ، كما قرره العلم الحديث في تكوين الأجنة ذكراً وأنثى ·

قال الله تعالى :

« إنّ يَوْمَ الفَصْلِ كانَ مِيقاتا · يَوْمَ يُنْفَخُ في الصورِ فتأتونَ أَفْواجاً . وفُتِحَتِ السماءُ فكانَتْ أَبواباً . وسُيِّرَتِ الجبالُ فكانَتْ سَرابا · »

(سورة النبا : ١٧ ـ ٢٠)

مناسبة الآيات لما قبلها :

قال أبو السعود والآلوسي في هــذه الآيات : « شروع في بيان سر تأخير ما يتساءلون عنه ويستعجلون به ، قائلين « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » ، ونوع تفصيل لكيفية وقوعه وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب حسبما جرى به الوعيد إجمالاً » يعني في قوله تعالى « كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون » ·

المفردات :

الفصل : جاء في مفردات الراغب الأصفهاني : « الفصل : إبانة أحد الشيئين من الآخر حتى يكون بينهما فرجة » ·

يوم الفصل: أي يوم يبين الحق من الباطل ، ويفصل بين الناس بالحكم ٠

ميقاتاً : ميعاداً ٠

الصور : القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام ٠

سراباً : مثل السراب ٠ يخيل الى الناظر أنها شيء وليست بشيء ٠

المعنى والأسلوب :

يقول تعالى : مخبراً عن يوم الفصل وهو يوم القيامة إنه مؤقت بأجل معدود ، لا يزاد فيه ولا ينقص منه كما قال : « وما نؤخره إلا لأجل معدود » أي أن هذا اليوم وهو يوم الفصل بين الخلائق كان في علمه تعالى ميعاداً مؤقتاً بوقت ثابت لبعث الأولين والآخرين ، وما يترتب عليه من الجزاء ثواباً وعقاباً ، لا يتخطاه بالتقدم ولا بالتأخر ٠

«يَوْمَ يُنْفَخُ في الصورِ فتأتونَ أفْواجاً » :

هذه النفخة هي الثانية، لأنها هي التي تبعث فيها الأجسام ، كما قال تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » ٠

وقد أوضحت السنة هذا النفخ ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بين النفختين أربعون » قالوا لأبي هريرة : أربعون يوماً ؟ قال أبيت [أي لا أجزم بذلك] قالوا : أربعون شهراً ؟ قال أبيت ٠ قالوا : أربعون سنة ؟ قال أبيت ٠

قال : ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ٠ ليس من الانسان شيء إلا يبلى ، إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة » ٠

وقد جاء في رواية أبي داود أنها أربعون سنة ٠

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص بصره الى العرش حتى يؤمر بالنفخ فيه . فيؤمر به فينفخ فيه نفخة لا يبقى عندها في الحياة غير من شاء الله ؛ وذلك قوله تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومَنْ في الأرض إلا من شاء الله » ، ثم يؤمر بأخرى فينفخ نفخة لا يبقى معها ميت إلا بعث وقام . وذلك قوله تعالى « ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » . انتهى .

« فتأتون أفواجاً » :

أي أمماً كل أمة مع إمامها ، كما قال تعالى : « يوم ندعو كل أناس بإمامهم» . أو زمراً وجماعات مختلفة الأحوال متباينة الأوضاع ، حسب اختلاف أعمالهم وتباينها .

ونلاحظ في الآية أسلوب الإبدال ، قوله « يوم ينفخ في الصور » بدل من يوم الفصل أو عطف بيان ، وهذا يفيد زيادة تفخيمه وتعظيمه. ثم التعبير بالفاء « فتأتون » وهي فاء الفصيحة تفصح عن محذوف يعرف بدلالة الحال عليها ، وذلك إيذاناً بغاية سرعة الإتيان ، أي فتبعثون من قبوركم ، فتأتون الى الموقف عقيب ذلك من غير لبث أصلاً[1].

« وفتحت السماء فكانت أبواباً » :

هذا حادث آخر مما يحدث يوم القيامة بعد النفخة الثانية . وقد عبرت الآية عن وقوع الفتح في المستقبل بالفعل الماضي « فتحت » مع أنه معطوف على المضارع « ينفخ » وذلك للدلالة على تحقق ذلك تحققاً أكيداً حتى صار كأنه وقع وحصل أن فتحت السماء « فكانت أبواباً » أي كثرت أبوابها المفتحة لنزول الملائكة ، نزولا غير معتاد ، حتى صارت

---

(١) أبو السعود ص ٢٢٥ .

كأنها ليست إلا أبواباً مفتحة . كقوله تعالى: « وفجرنا الأرض عيوناً » ، كأن كلها عيون متفجرة ، وهو المراد بقوله تعالى : « ويوم تشقق السماء بالغمام » وهو الغمام الذي ذكر في قوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر » .

وقيل : الأبواب : الطرق والمسالك ، أي تكشط فينفتح مكانها وتصير طرقاً لا يسدها شيء .

« وسيرت الجبال فكانت سراباً » :

أي سيرت الجبال في الجو على هيأتها بعد قلعها من مقارها ، كما يعرب عنه قوله تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب » . أي تراها رأي العين ساكنة في أماكنها ، والحال أنها تمرّ مر السحاب الذي تسيره الرياح سيراً حثيثاً . وذلك أن الأجرام العظام إذا تحركت نحواً من الأنحاء ، لا يكاد تتبين حركتها .

الفوائد والأبحاث العلمية :

١ ــ قوله تعالى : « يوم ينفخ في الصور » .

ذكر النفخ في الصور في أكثر من موضع في القرآن الكريم : « ويوم ينفخ في الصور ففزع مَنْ في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، وكل أتوه داخرين » .

وقال تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » .

وقد اختلف العلماء في عدد النفخات في الصور ، فذهب فريق من العلماء الى أن النفخات ثلاثة : نفخة فزع وهي السابقة على غيرها ، ونفخة صعق أي إماتة ، ونفخة إحياء .

وذهب جماعة من العلماء الى أن هناك نفختين : نفخة إماتة ونفخة إحياء .

وهؤلاء يجعلون نفخة الفزع والصعق واحدة يفزع بها أهل السموات والأرض ويموتون إلا ما شاء الله ، ثم بعد مدة طويلة ينفخ نفخة الإحياء فإذا هم قيام ينظرون ·

٢ ـ حقيقة الصور والنفخ فيه :

وقد ورد التعبير عنه بالقرن : وهذا قد يتوهم منه أنه بوق عادي ، لكن ليس الأمر على ذلك إنما هو تقريب له ·

قال الجمهور : هو عالم عظيم من عوالم الله تعالى · تجتمع فيه الأرواح ، على هيئة القرن · لذلك عبر عنه بالصور وهو القرن[١] ·

٣ ـ تعرض الامام الرازي[٢] لصفات الجبال يوم القيامة في القرآن وتعدد هذه الصفات ، وجمع بينها ، بأن ذلك راجع الى تعدد الأحوال التي تمر على الجبال وجعل هذه الأحوال ستة ·

وفي هذا التعداد مبالغة ، لأن التداخل يرى واضحاً بينها ، مثل أن نجعل دك الجبال دكة واحدة وأنها كالعهن المنفوش وكالهباء صفات لحال واحدة هي دك الجبال ·

قال تعالى :

« إن جَهنّمَ كانتْ مِرْصاداً · للطاغينَ مَآباً · لابثينَ فيها أحقاباً لايذوقونَ فيها برْداً ولاشَرابا . إلا حَميماً وغسّاقاً · جزاءً وِفاقاً · إنهمْ كانوا لايَرْجون حِساباً · وكذّبوا بآياتنا

(١) انظر التوسع في كتاب « الايمان بعوالم الآخرة ومواقفها » لفضيلة أستاذنا العلامة الشيخ عبد الله سراج الدين أمتع الله به ·
(٢) ص ١١ ـ ١٢ ·

كِذَّابا . وكُلَّ شَيْءٍ أَحصيناه كِتابا . فذُوقوا فلنْ نَزِيدَكُمْ إلا عَذابا . »

(سورة النبأ : ٢١ ــ ٣٠)

مناسبة الآيات لما قبلها :

بين اللــه تعالى في الآيات السابقة هول يوم القيامــة وسماه يوم الفصل ، وبعد ذلك بين في هذه الآيات وما بعدها نتائج ذلك اليوم ، وهي دخول أهل النار النار ، ودخول أهل الجنة الجنة . وقدم هنا بيان حال الكفار ، لمناسبة ظاهرة ، وهي أن الكلام من أوله كان في الرد على أقوالهم الباطلة ، فناسب أن يقدم هنا بيان حالهم في الآخرة .

المفردات اللغوية :

مرصاداً : من الرصد وهو المراقبــة ، والمرصاد اسم للمكــان الــــذي يرصد فيه .

مــآباً : مرجعاً يرجعون إليه .

أحقاباً : جمع حُقب ، وهو المدة من الزمان ، أي دهوراً متتابعة كلما مضى حقب تبعه آخر[١] .

برداً : أي ما يبرد حرّ قلوبهم . وقيل : البرد النوم .

حميماً : ماء حاراً .

غساقاً : صديداً .

كِذّاباً : تكذيباً مفرطاً . وفِعّال من باب فعّل شائع بين الفصحاء[٢] .

---

(١) آلوسي ج ٣٠ ص ١٥ .

(٢) آبو السعود ص ٢٢٧ .

وقال ابن كثير : كذاباً أي تكذيباً ، وهو مصدر من غير الفعل قالوا وقد سمع أعرابي يستفتي الفراء على المروة :

« الحلق أحب إليك أو القِصّار » • وأنشد بعضهم :

لقد طال ما ثَبّطْتِني عن صَحَابتي

وعن حِوَجٍ قِضّاؤها من شفائيا

الاعراب :

للطاغين : متعلق بمضمر ، هو إما نعت لمرصاداً ، والمعنى مرصاداً كائناً للطاغين ، وإما حال من مآبا ، قدمت عليه لكونه نكرة • ولو تأخرت لكانت صفة •

مآبا : بدل من مرصاداً •

لابثين : حال مقدرة من المستكن في للطاغين •

أحقاباً : ظرف متعلق بلابثين •

جزاء : مفعول مطلق منصوب بفعل مقدر ، أي جوزوا جزاءً •

وفاقاً : صفة لجزاء والوفاق مصدر وافق ، فهو هنا على تقدير مضاف أي ذا وفاق • أو بتأويله باسم الفاعل أي موافقاً • أو نعت بالمصدر نفسه للمبالغة حتى صار كأنه نفس الوفاق •

كتاباً : مفعول مطلق لأحصيناه ، لأن الإحصاء والكتبة يتشاركان في معنى الضبط ، فإما أن تفسر أحصيناه بكتبناه ، أو تفسر كتاباً بإحصاء(١) •

المعنى والأسلوب :

يبين الله تعالى في هذه الآيات مآل حال الكافرين باليوم الآخر ، المتسائلين عن يوم القيامة إنكاراً واستهزاء، وما يلحقهم ، من هول العذاب فيقول:

---

(١) آلوسي جزء ٣٠ ص ١٧ •

« إن جهنم كانت مرصاداً • للطاغين مآبا » :

أي موضع رصد ومراقبة للطاغين وهم المردة العصاة المخالفون للرسل ، ترصدهم خزنتها ليعذبوهم فيها • أو أنها هي ترصدهم على سبيل المجاز• وهي لهم «مآباً»يعني مَرْجِعاً ومُتَقَلَّباً ومصيراً ونُزُلا •

« لابثين فيها أحقاباً » :

ما كثين في جهنم دهوراً متتابعة ، لا تنتهي ولا تحد ، خالدين فيها أبداً •

وقد اختلفوا في مقدار الحُقْب ، ولعل أولى الأقوال فيه ما أخرجه الطبري(١) أي أن علي بن أبي طالب قال لهلال الهَجَري : ما تجدون الحُقْبَ في كتاب الله المنزل ؟ قال : نجده ثمانين سنة ، كل سنة اثنا عشر شهراً ، كل شهر ثلاثون يوماً ، كل يوم ألف سنة •

قال ابن كثير(٢) : « وهكذا رُوِيَ عن أبي هريرة ، وعبد الله ابن عمرو ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعمرو بن ميمون ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والضحاك » •

« لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً • إلا حميماً وغساقاً » .

قال الإمام ابن كثير أيضاً(٣) أي لا يجدون في جهنم برداً لقلوبهم ، ولا شراباً طيباً يتغذون به ، ولهذا قال : « إلا حميماً وغَسَّاقاً »•• قال أبو العالية : استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق • وكذا قال الربيع بن أنس •

فأما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره وحموه • والغساق ، هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم ، فهو بارد لا يستطاع من برده ولا يواجه من نتنه •

---

(١) ج ٣٠ ص ٧ •
(٢) ج ٨ ص ٣٢٩ •
(٣) ج ٨ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ •

مسألة : في قوله تعالى « لابثين فيها أحقابا » :

استشكل هذا التعبير بأنه وإن طالت الأحقاب إلا أنها متناهية وعذاب أهل النار غير متناه والجواب عن ذلك من أوجه ·

الأول : أن معنى الآية : لابثين فيها دهوراً متتابعة ، كلما مضى حقب تبعه حقب آخر الى غير نهاية ·

والدليل على ذلك استعمال العرب ، فإن الحقب لا يكاد يستعمل إلا حيث يراد تتابع الأزمنة وتواليها · فليس في الآية ما يدل على تناهي تلك الأحقاب· سواء أريد بالحقب ثمانون سنة،أو سبعون ألف سنة(١)·

الثاني : أن يكون أحقاباً ظرف لقوله : « لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً » ·

والمعنى أنهم يلبثون فيها أحقاباً لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، ثم ينتقلون الى عذاب آخر عياذاً بالله تعالى ، وهكذا ، لا يزالون ينقلون من عذاب الى عذاب ويزادون عذاباً فوق العذاب خالدين فيها أبداً ·

قال تعالى :

« إن للمتقينَ مفازاً · حَدائِقَ وأعنابا · وكَوَاعِبَ أتْراباً · وكأساً دِهاقاً . لايسمعونَ فِيها لَغواً ولا كذّاباً · جزاءً مِنْ رَبّكَ عَطَاءً حِساباً ·

(سورة النبأ : ٣١ ــ ٣٦)

المفردات :

مفازاً : مصدر ميمي من الفوز ، أي فوزاً وظفراً · أو اسم مكان أي موضع فوز ·

(١) أبو السعود ص ٢٢٦ بتصرف يسير ·

حدائق : جمع حديقة ، وهي بستان فيه أنواع الشجر المثمر ·

أعناباً : جمع عنب · ويطلق العنب على الكرم نفسه وعلى ثمرة العنب المعروفة ·

كواعب : جمع كاعب وهي المرأة التي تكعب ثديها ·

أتراباً : أي لدات متقاربات في السن ·

دهاقاً : مترعة ، مليئة · وهو قول أكثر أهل اللغة(١) ، مأخوذ من الدهق ، وهو ضغط الشيء وشده كأنه لامتلائه انضغط(٢) ·

حساباً : صفة عطاء ، بمعنى كافياً على أنه مصدر أقيم مقام الوصف ، أو للمبالغة أو على تقدير مضاف · وعطاء منصوب مفعول مطلق ، والعامل فيه معنى قوله « إن للمتقين » فانه في قوة أن يقال جازى المتقين بمفاز جزاء كائناً من ربك(٣) ·

المعنى والأسلوب :

بعد أن بينت السورة سوء أحوال الكفرة بينت محاسن أحوال المؤمنين في الآخرة :

« إن للمتقين مفازاً » :

وعبرت عنهم بالمتقين ، لأنهم اتقوا الكفر والمعاصي والقبائح · وأخبرت أن لهم مفازاً أي فوزاً وظفراً بالكرامة ، والنعيم المقيم ، ثم فسرت ذلك بذكر مهمات منه ، فذكرت السورة :

« حدائقَ وَأعنابا » :

أي بساتين فيها أنواع الأشجار المثمرة ، وأعنابا · وخصص الأعناب بعد تعميم الحدائق لزيادة الاعتناء بها :

---

(١) الرازي ص ٢٠ ·

(٢) آلوسي ص ١٨ عن البحر ·

(٣) أبو السعود ٢٢٧ ·

« وكَواعِبَ أترابا » :

أي نساء فتيات تكعب ثدي الواحدة منهن واستدار مع ارتفاع يسير وذلك يكون في سن البلوغ ، وهذا كما في سورة الواقعة « عُرُباً أتراباً لأصحاب اليمين » ووصَفهن مع ذلك بصفة تزيد حسنهن وهي كونهن أتراباً أي في سنّ واحدة ٠

« وكأساً دِهاقاً » :

قال ابن عباس رضي الله عنهما مملوءة متتابعة(١) ، وهو قول أكثر أهل اللغة(٢)،وذلك مما يزيد لذة شرب الكأس ٠ والمراد بالكأس الخمر، قال الضحاك : كل كأس في القرآن خمر(٣) ٠

وهذه الخمر وهذا النعيم ، ليس فيه ما يحصل من الطرب في الدنيا من لغط الكلام أو اختلاف الفكر فنعيم الجنة كامل لا تشوبه شائبة ٠ انظر قوله :

« لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا » :

ليس في الجنة كلام لاغ ، عار عن الفائدة ، وليس فيها إثم كذب ، فلا يكذب بعضهم بعضاً وبالتالي لا يكذب ، وفي هذا إشارة لكل ما تقدم من قوله « وكذبوا بآياتنا كذابا » ٠ والمعنى أن هؤلاء السعداء لا يسمعون كلامهم المشوش الباطل الفاسد ٠ والحاصل أن النعم الواصلة إليهم تكون خالية من أي شائبة ٠ ليس كنعيم الدنيا ؟ ٠

« جزاءً من ربك عطاءً حسابا » :

أي هذا الذي ذكر جازاهم الله به وأعطاهم إياه بفضله ومنّه وإحسانه ورحمته ، عطاء حساباً أي كافياً وافراً كثيراً ، تقول العرب :

---

(١) ابن كثير ص ٣٣٢ ٠
(٢) الرازي ص ٢٠ ٠ وانظر المستدرك للحاكم ٠
(٣) الرازي ص ٢٠ ٠

« أعطاني فأحسبني » أي كفاني ومنه « حسبي الله » أي الله كافيّ ، وقيل حساباً أي علـى حسب أعمالهم ، وهـذا يلحظ لما سبق من قوله « جزاءً وفاقاً » .

قال تعالى :

« رَبِّ السموات والأرضِ ومابينهما الرحمنِ لايملكونَ مِنه خِطابا . يومَ يقومُ الروحُ والملائكةُ صَفّاً لايتكلمونَ إلا مَنْ أَذِنَ له الرحمنُ وقالَ صوابا . ذلك اليومُ الحقُّ فمَنْ شاءَ اتّخذَ إلى ربِّه مآبا . إنّا أنذرْناكُمْ عذابا قريبا . يومَ ينظرُ المرءُ ماقدمَتْ يداهُ ويقولُ الكافِرُ ياليتني كُنْتُ تُرابا . »

(سورة النبأ : ٣٧ ـ ٤١)

مناسبة الآيات لما قبلها :

لما وصف الحق عز وجل وعيد الكفار ووعد المؤمنين وصفاً بليغاً قوياً مؤكداً ختم بهذه الآيات تقريراً لما تقدم وترسيخاً له، وبياناً لعظمته وجلاله وهيبته ، ثم تحذيراً من يوم الجزاء .

المفردات :

الروح : اختلف في المراد بالروح عـلى أقوال كثيرة ذكرها ابن كثـير في تفسيره ، نذكر أقواها :

وهو انه جبريل عليه السلام . وإليه يميل الفخر الرازي وان لم يصرح بذلك . ويرجحه في رأينا إطلاق القرآن هذا

الاسم على جبريل عليه السلام « نزل به الروح الأمين على قلبك ... » .

فيكون هذا من تفسير القرآن بالقرآن ولأنه كما قال القاضي : « ثبت أن القيام صحيح من جبريل ، والكلام منه صحيح ، ويصح أن يؤذن له ، فكيف يصرف هذا الاسم عنه الى خلق لا نعرفه[1] ... » .

مـآبا : مرجعاً .

القراءات والاعراب :

« رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن » .

في قوله « الرحمن » ثلاث قراءات .

الأولى : الجر فيهما ، وهي القراءة التي نقرؤها قراءة حفص ، وذلك بجر « رب » على البدل من ربك في قوله « جزاء من ربك » وجر « الرحمن » صفة لربك أو لرب السموات ...

الثانية : الرفع فيهما ، وفيها أوجه كثيرة لا نطيل بها[2] . والأوجه أن يكون كلاهما مرفوعاً على المدح أو يكون الثاني نعتاً للأول .

القراءة الثالثة : جر الأول ورفع الثاني وهي قراءة حمزة والكسائي .

ووجهها أن يكون رب السموات مجروراً على البدلية من ربك . والرحمن مبتدأ وخبره لا يملكون ، ويحتمل غير ذلك من أوجه الإعراب لا نطيل بها[3] .

---

(١) الرازي ص ٢٤ .

(٢) انظر في الرازي ج ٣١ ص ٢٢ والبحر المحيط لأبي حيان وأبي السعود ج ٥ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ والألوسي ج ٣٠ ص ١٩ .

(٣) انظر في بيان القراءات وتوجيه إعرابها المراجع السابقة .

يوم يقوم : يوم ظرف منصوب على الظرفية متعلق بقوله لايتكلمون. أي لا يتكلمون في يوم يقوم الروح ·

لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن : إلا من أذن استثناء مفرغ في محل رفع بدل من ضمير لا يتكلمون ·

المعنى والأسلوب :

« ربِّ السموات والأرض وما بينهما الرحمن » :

يخبر الله تعالى عن عظمته وجلاله ، وأنه رب السموات والأرض ومابينهما ، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء(١) ، ولا يخفى مافي أسلوب البدلية في قوله « رب السموات » من قوله « ربك » على قراءة الجر ، أو الرفع على المدح من تفخيم ذاته تعالى ، وبيان عظمته ·

وجاء هذا التفخيم هنا بأسلوب دقيق يناسب الموقف ، حيث ذكر جل جلاله بعنوان ربوبيته تعالى للكل ، ورحمته الواسعة ، وذلك يشعر بمدار ما ذكر من الجزاء الذي ذكر في الآيات السابقة ·

« لا يملكونَ مِنهُ خِطابا » :

هذه الجملة استئناف يقررُ مَضْمون سابقه ، لما أفادته الربوبية العامة من غاية العظمة والكبرياء ، واستقلاله تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء ، من غير أن يكون لأحد قدرة عليه(٢) ·

والصواب أن المراد بالضمير في«يملكون» أهل السموات والأرض(٣). والمعنى أنهم لا يملكون أن يخاطبوا الله في أمر من الأمور ، لأنه عدل

---

(١) ابن كثير ٣٣٣ ·

(٢) أبو السعود ص ٢٢٧ ·

(٣) الرازي ص ٢٣ ·

لا يجور ، وعقابه للكفار عـدل[1] ، وثوابه للمؤمنين عـدل فبأي سبب يخاطبونه ، فلا يملك أحد من المخلوقين مخاطبة الله ومكالمته ٠

ثم إنه تعالى لما ذكر أن أحداً من المخلوقين لا يملك أن يخاطبه في شيء أو يغالبه شيء ٠ قرر هذا المعنى وأكده فقال[2] :

« يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » :

وهذا كما قال تعالى: « مَنْذا الذي يشفعُ عِنْدَهُ إلا بإذنه » وقوله « يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه » ٠

وقد أبرزت الآية مزيـد هول ذلك اليوم ، بأن الروح والملائكـة يقومون صفاً أي مصطفين ٠

فذكر القرآن قيامهم مصطفين لتحقيق عظمة سلطانه تعالى وكبرياء ربوبيته عز وجل وتهويل يوم البعث الذي عليه مدار الكلام من مطلع السورة الى مقطعها ٠

والمعنى أن أهل السموات والأرض إذا لم يقدروا حينئذ أن يتكلموا بشيء من الكلام إلا من أذن الله تعالى له في التكلم مصطفاً وقال ذلك المأذون بعد الاذن في مطلق التكلم قولاً صواباً ، أي حقاً ، من الشفاعة لمن ارتضاه الله ٠ فكيف يملكون خطاب رب العزة جل جلاله مع كونه أعظم من مطلق الكلام وأعز منه مراماً[3] ٠

وأخيراً بعد أن قررت السورة أحوال المكلفين من الثواب والعقاب ، وقررت عظمة يوم القيامـة ، ختمت بالإشارة الى غايـة هوله ، وبشدة التحذير من خطره :

---

(١) أورد الرازي هذا المعنى على أن ضمير يملكون للمؤمنين ثم صوب أنه عام للخلائق فجعلناه مفسراً للآية على هذا الذي استصوبه لأنه ينطبق عليه ٠

(٢) الرازي ص ٢٣ ٠

(٣) بتصرف يسير عن أبي السعود ج ٥ ص ٢٢٨ والآلوسي ج ٣٠ ص ٢٠ ٠

« ذلك اليوم الحق » :

أي ذلك اليوم الموصوف بالأهوال ، وبفصل القضاء بين الناس هو اليوم الحق ، لا غيره من الأيام ، وهو كائن لا محالة :

« فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً » ·

أي فإذا كان الأمر كما ذكر من تحقق ذلك اليوم لا محالة فمن شاء أن يتخذ مرجعاً الى ثواب ربه وطريقاً يهتدي إليه فعل ذلك ، وذلك بالإيمان والطاعة ·

ومن ذلك قوله تعالى:«إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا».

ثم إنه تعالى زاد في الختام في التخويف من هذا اليوم فقال :

« إنـّا أَنْذَرْناكُم عذاباً قريباً » :

أي أنذرناكم بما ذكر في هذه السورة من الآيات الناطقة بحقيقة البعث وأهوال يوم الفصل وما بعده « عذاباً قريبا » وهو عذاب الآخرة ، وصفه بكونه « قريباً » لأنه قريب بالنسبة إليه تعالى ، فلا بعيد بالنسبة إليه ، أو لتحقق إتيانه حتماً فإن كل ما هو آت قريب ، وإن رأوه بعيداً ، لقوله تعالى : « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » (١) : « إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » وقد وصفه الله تعالى بأنه إنذار وخوّف منه غاية التخويف ، وذلك بالتعبير بنون العظمة · ثم بقوله « عذاباً » منكراً منوناً ، يفيد تهويلاً بالغاً غاية الهول لا يقادر قدره ، ولا يوصف مداه ، ثم بوصفه بالقرب مما يزيده هولا ، والقلوب منه رعباً · ثم بين خطورة ما يقع فيه فقال :

« يومَ ينظُرُ المرءُ ما قَدَّمَتْ يداه » :

أي ينظر كل امرىء مسلم أو كافر ما قدمت يداه ، أي كيف عمل ،

---

(١) آلوسي وأبو السعود ·

أو الـذي قدمته يداه من الأعمال ، فتعرض عليه جميع أعماله خـيرها وشرها ، قديمها وحـديثها : كقوله « ووجـدوا ما عملوا حاضراً » ٠ « يـُنـَبـَأ' الانسان يومئذ بما قدم وأخر »(١) ٠

« ويقول' الكافر' يا ليتني كـُنـْت' تـُرابا » :

أي يود الكافر لشدة الحسرة وهول الموقف يود يومئذ أنه كان في الدار الدنيا تراباً ، ولم يكن خلق ولا خرج الى الوجود ، وذلك حين عاين عذاب اللـه تعالى ، ونظر الى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيـدي السفرة الكرام الكاتبين ٠

وقال الامام ابن كثير(٢) : « وقيل إنما يود ذلك حين يحكم الله بـين الحيوانات التي كانت في الـدنيا ، فيفصل بينها بحكمـه العدل الذي لا يجور ، حتى إنه ليقتص للشاة الجمّـاء من القرناء ٠ فاذا فرغ من الحكم بينها ، قال لها : كوني تراباً ، فتصير تراباً ٠ فعند ذلك « يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً » ٠ أي كنت حيواناً فأرجع الى التراب ٠

وقد ورد معنى هذا في حديث الصور المشهور ، وورد فيه آثار عن أبي هريرة ، وعبد الله بن عمرو وغيرهما » انتهى ٠

والله أعلم بالصواب ٠

• • •

---

(١) ابن كثير ٠
(٢) ج ٨ ص ٣٣٤ ٠

تفسير سورة عبس

تمهيـــد :

سورة « عبس » مكية كلها ، وعدة آياتها اثنتان وأربعون آية ·
تعالج السورة مشكلة على قدر كبير من الأهمية ، هي مقياس ما يرتفع به الانسان أو ينحدر ، وذلك من خلال تعقيبها على قصة الأعمى ، الذي عرض للنبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو بعض زعماء مكة للاسلام · وكان هؤلاء المستكبرون يتعيرون من الفقراء والضعفاء ، فَشَقَّ على النبي صلى الله عليه وسلم اعتراض الأعمى بالسؤال في هذه اللحظات الحرجة ، فأنزل الله تعالى هــذه السورة يعالج مشكلة هــذه النفوس المعرضة عن الاسلام والتي تغتر بزخرفة الدنيا وتتكبر بها ، فبـين حقار هؤلاء الذين لا يرتفعون بقيم الايمان والأخلاق ، وأن لا يأبه بهم النبي صلى الله عليه وسلم · وبين علو قدر المؤمنين الفاضلين وان لم يكونوا من أهل الدنيا أو المناصب أو الزعامة ·

وأخذت السورة تعمل على عــلاج داء الكبر ببيان دلائــل افتقار الانسان الى الله ، وضعفه في ذاته ، من منشئه وولادته ثم مصيره الى قبره ، ثم دلائل افتقاره الى ربه في الرزق في ذكر قصة الطعام ···

ثم أتت على ذكر هول القيامة « الصاخة » ، ومايكون فيها من مآل هؤلاء المؤمنــين فاذا هم وجوههم مضيئة مستبشرة ، ومآل المستكبرين الكافرين « ووجوهٌ يَوْمَئِــذٍ عليهــا غَبَرَةٌ تَرْهَقُها قَتَرَةٌ » فبلغت بذلك الغاية في التأثير والعلاج لمن يعتبر ويتعظ ·

مناسبة السورة لما قبلها :

ترتبط السورة بما قبلها وهي سورة النازعات بأكثر من وجه من التناسب ·

فمن جهة عامة : تتحدث السورتان عن القيامة وأهوالها وعاقبة الناس فيها ·

ومن ناحية المناسبة الخاصة : يرتبط آخر السورة السابقة مع أول سورة عبس ارتباطاً وثيقاً ، حيث يأتي مطلع سورة عبس كالتفصيل لما قبله · ففي آخر السورة السابقة قوله تعالى : « إنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها » ، فذكر عز وجل بعده في هذه السورة مَنْ ينفعه الإنذار ممن لم ينفعه(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

« عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَنْ جاءَهُ الأَعْمَى ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يَزَّكَّى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى ، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى ، وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ، وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنتَ عنه تَلَهَّى » .

(سورة عبس : ١ ــ ١٠)

---

(١) المناسبة الخاصة عن الآلوسي بتصرف ·

سبب نزول الآيات :

قد أكثر المفسرون من ذكر الروايات والأقاويل في نزول الآيات ، وأكثر ذلك ضعيف أو لا سند له · والذي يُعَوَّلُ عليه من ذلك كله ما أخرجه الترمذي وأبو يعلى المَوْصِلي وابنُ جَرير الطبري عن عائشة رضي الله عنها قالت : « أُنْزِلَتْ « عبس وتولى » في ابن أُمِّ مكْتوم الأعمى ، أتى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول : أرشدني · قالت وعند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عظماء المشركين · قالت فجعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرض عنه ويقبل على الآخر ، ويقول : « أترى بما أقول بأساً ؟ فيقول : لا ، ففي هذا أُنزلت عبس وتولى » ·

فهذا الحديث في هذه الواقعة استوفى شروط القبول عند المحدثين وقال فيه الترمذي : « حسن غريب » · أما غيره فهو كما ذكرنا ضعيف أو لا سند له ·

وابن أم مكتوم اسمه عبد الله ويقال : عمرو ، وهو عمرو بن قيس بن زائدة وهو ابن خال سيدتنا خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها.

المفردات :

عَبَسَ : كَلَحَ بوجهه ·

تَوَلّى : أعرض بوجهه ·

يَزَّكّى: يتطهر · والمراد هنا يزداد طهارة في دينه ·

يذّكّر : يتعظ ، والضمير في يزكى ويذكر عائد الى الأعمى ، وقيل إنه عائد للكافر · أي إنك طمعت في أن يَزَّكّى الكافر بالاسلام أو يذكر فتنفعه الذكرى بقبول الحق · والراجح هو الأول · بدلالة ظاهر السياق لعدم تقدم ذكر الكافر ·

تَلَهّى : أصله تتلهى · أي تتشاغل ·

بالأعمى للاشعار بِضَرَرِه وعُذْرِه في الاقدام على قطع كلام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتشاغله بدعوة القوم الى الله تعالى[1] ٠

« أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ له تَصَدَّى » :

أي ان الـذي استغنى عن الايمان وعما عنـدك من علوم النبوة ومعارف القرآن فأنت تتعرض لدعوته وتقبل عليه ٠

وفسره القرطبي بقوله[2] : « أي كان ذا ثروة وغِنى » ٠

وانتقد بأنه لو كان هذا هو المراد لذكر الفقر في مقابله[3] ٠

ويمكن أن يقـال : ان مراد القرطبي بيان سبب الاستغنـاء عن الايمان وهو الثروة والغنى ، فيلتقي مع التفسير الذي اخترناه ٠ وهذا يذكرنا بقوله تعالى : « إنَّ الانسانَ لَيَطْغَى أنْ رآهُ اسْتَغْنى » ٠

« وَما عَلَيْكَ ألاّ يَزَّكَّى » :

المعنى لا شيء عليك في أنْ لا يَتَزكى بالاسلام مَنْ تدعوه الى الاسلام ، حتى يبعثك الحرص على إسلامه الى الإعراض عمن أسلم ، والمقصود التخفيف عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من التشديد على نفسه في الحرص على إسلامهم ، الأمر الذي جعله يعرض عن الأعمى للاشتغال بدعوتهم ٠

« وَأَمّا مَنْ جَـاءَكَ يَسْعى وهُوَ يَخْشى فَأَنْتَ عَنـه تَلَهّى » :

أي وأما من جـاءك قاصدا إياك ليهتـديَ بما تقولُ ، وعبر عن ذلك بالسعي ومعناه الإسراع ، قال أبو السعود وغيره : أي حال كونه مسرعاً طالباً لما عندك من أحكام الرشد ، وخصال الخير ٠

---

(١) عن أبي السعود والآلوسي بتصرف يسير ٠
(٢) ج ١٩ ص ٢١٤ ٠
(٣) الآلوسي ج ٩ ص ٤٠ والرازي ج ٣١ ص ٥٦ ٠

المعنى والأسلوب :

يسجل القرآن الكريم في مطلع السورة حادثة قد يخالها البعض يسيرة ، لكنها في مقاييس الدعوة هامة ، لما فيها من ابراز كرامة المؤمن المستجيب لداعي الله تعالى ، ولو كان في نظر الناس ، ومعيار أهل الدنيا ليس بذي شأن ، وفيها أيضاً التهوين من غير المؤمن ، ولو كان في نظر الناس ومقياس أهل الدنيا ذا شأن لغناه أو جاهه أو منصبه ٠

وتفتتح السورة بهذه العبارة « عبس وتولى » والضمير الفاعل في الجملتين للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإجماع المفسرين[1] ٠ أي كَلَح وأَعْرَض بوجهه لأن جاءه الأعمى ، وهو ابن أم مكتوم

« وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّه يَزَّكّى » :

أيْ أيُّ شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى ، لعله يتطهر ـ بما يتلقن منك ـ من الجهل أو من الاثم ٠

« أَوْ يَذَّكَّر فتنفعه الذِّكْرى » :

أي يتعظ فتنفعه ذكراك أي موعظتك ، فتكون له لطفاً في بعض الطاعات ٠ وبالجملة فلعل ذلك العلم الذي يتلقفه عنك يطهره عن بعض مالا ينبغي ، وهو الجهل أو المعصية أو يشغله ببعض ما ينبغي وهو الطاعة ٠

وقد جاء أسلوب الآيات معبراً عن مقصد الموضوع حيث عبر بضمير الغيبة في قوله: « عَبَسَ وَتَوَلّى »عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولم يخاطبه خطاباً عبست وتوليت ، وفي ذلك إجلال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم عَبَّر بالخطاب في قوله : « وما يُدْرِيك » ، لما فيه من الايناس بعد الايحاش والاقبال بعض الإعراض، وعبر عن ابن أم مكتوم

(١) كما نص الرازي في تفسيره ج ٣١ ص ٥٥ ٠

« وهو يخشى » : أي يخاف الله تعالى ويحذر الآخرة ، وقيل يخاف أذى الكفار ، وقيل يخاف العثار في المشي لفقد بصره • والأول هو الراجح ، فان الخشية إذا أُطْلِقَتْ في القرآنِ ومُدِحَ بها كان المراد بها خشيته تعالى • كما قال : « سيذكر من يخشى » وهي من وراء التجلد أمام كل خشية •

« فَأَنْتَ عَنْه تَلَهَّى » :

أي تُعْرِضُ عنه وتتشاغل بغيره •

وأسلوب الآيات يشير الى رِفْعة مقامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك بتقديم ضميري الفاعل « أَنْتَ له تَصَدّى » « أَنْتَ عَنْه تَلَهَّى » ، وذلك لأن هذا التقديم يشير الى أن سبب هذا التنبيه من الله تعالى خصوصية مقامه ، كأنه قال : « فأنت بعلو قدرك وشرفك تفعل هذا » ، تهتم كل الاهتمام بالمُعْرِض المستغني عن هداية الله حتى تلهيت به عن المهتدي الخاشي له تعالى !•

من هذا يظهر غرض الكلام ، وهو الإزْراءُ بهؤلاء المعرضين اغتراراً بما أوتوا من الدنيا ، وأنهم بغرورهم وإعراضهم أقلُّ وأهونُ من الاشتغال الذي صُرِف إليهم • وأن المؤمنين لهم كرامة عظيمة أياً كان حالهم الدنيوي •

البحث العلمي :

في الآيات تقرير لجانب هام في سلوك الداعية يجب الاعتناء به ، وحسن فهمه ، والتحوط من الحشو الذي كثر وطال ذيله في كتب المفسرين •

ومن ذلك :

١ ـ الاقبال على كل من يستجيب للدعوة ، والاعتزاز به ، ولو كان في نظر الناس ضعيفاً قليل الشأن • قال الآلوسي[١] : « وتأدب الناس

---

(١) ج ٩ ص ٤١ •

يذلك أدبا حسنا ، فقد رُوِيَ عن سفيان الثوري : « أن الفقراء كانوا في مجلسه أمراء » ٠

٢ ـ في توجيه هذا العتاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحث هام جداً ، فقد ساء فهمه ، وغلا كثير من المفسرين في المسألة حتى وقع في كلامهم مالا يليق أبدأ مع مقامه السامي الشريف صلى الله عليه وسلم٠ واغتر بذلك كثير ممن لا يمحص القضايا ـ في هذا العصر ـ فراح يدندن حول ما زعمه خطأ من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا الأمر دار بحثه في خلدي زمنا ، وهو أن فعله صلى الله عليه وسلم تصرف سليم ، لا إشكال عليه ، فمن ذا يجيز قطع الحديث على من هو مشغول بمثل شغله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم وجدت الامام الرازي رحمه الله يتولى شرح هذا الإشكال في المسألة ، بما يفيد غاية الفائدة ، في إلقاء الضوء لفهم الحادثة والآيات التي نزلت فيها فقال(١) :

وإنما قلنا إنه ـ يعني الأعمى ـ يستحق التأديب لوجوه » :

أحدها : أنه وإن كان لفقد بصره لا يرى القوم ، لكنه لصحة سمعه كان يسمع مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم أولئك الكفار ، وكان يسمع أصواتهم أيضا ، وكان يعرف بواسطة استماع تلك الكلمات شدة اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بشأنهم ، فكان إقدامُه على قطع كلام النبي صلى الله عليه وسلم وإلقاء غرض نفسه في البين قبل تمام غرض النبي صلى الله عليه وسلم إيذاءً للنبي عليه الصلاة والسلام ، وذلك معصية عظيمة ٠

وثانيها : ان الاهم مقدم على المهم ، وهو كان قد أسلم وتعلم ما كان يحتاج اليه من أمر الدين ٠ أما أولئك الكفار فما كانوا قد أسلموا ، وهم إسلامهم سبب لاسلام جمع عظيم ، فالقاء ابن أم مكتوم ذلك الكلام في البين ، كالسبب في قطع ذلك الخير العظيم ، لغرض قليل وذلك محرم٠

---

(١) ج ٣١ ص ٥٤ ٠

وثالثها : أنه تعالى قال : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » • فنهاهم عن مجرد النداء إلا في الوقت ، فههنا هذا النداء الذي صار كالصارف للكفار عن قبول الايمان ، وكالقاطع على الرسول أعظم مهماته ، أولى أن يكون ذنباً ومعصية ، فثبت بهذا أن الذي فعله ابن أم مكتوم كان ذنباً ومعصية ، وان الذي فعله الرسول كان هو الواجب •

أما المعاتبة المشار إليها في صدر السورة ، فالجواب عنها ما قال القرطبي(١) :

« قال علماؤنا : ما فعله ابن أم مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالماً بأن النبي صلى الله عليه وسلم مشغول بغيره ، وأنه يرجو إسلامهم ، ولكن الله تبارك وتعالى عاتبه حتى لا تنكسر قلوب أهل الصفة ، أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني ، وكان النظر الى المؤمن أولى ، وان كان فقيراً أصلح وأولى من الأمر الآخر ، وهو الاقبال على الأغنياء طمعاً في إيمانهم وان كان ذلك أيضاً نوعاً من المصلحة •

وعلى هذا يخرج قوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى •• » الآية • على ما تقدم •

وقيل : إنما قصد النبي صلى الله عليه وسلم تأليف الرجل ثقة بما كان في قلب ابن أم مكتوم من الايمان ، كما قال : « إني لأصل الرجل وغيره أحب إلي منه ، مخافة أن يكبه الله في النار على وجهه » انتهى •

قال تعالى :

« كَلاَّ إِنها تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ،

مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ ».

(سورة عبس : ١١ ـ ١٦)

---

(١) ج ١٩ ص ٢١٣ •

مناسبة الآيات لما قبلها :

بعد أن بينت السورة في مطلعها تكريم المؤمن ، والإزراء على الكافرين المعرضين عن القرآن ، بينت في هذه الآيات عظمة شأن القرآن، لتقرير المعنى السابق .

قال الامام الرازي : كأنه قيل : هذا القرآن قد بلغ في العظمة الى هذا الحد العظيم ، فأي حاجة به الى أن يقبله هؤلاء الكفار ، فسواء قبلوه أم لم يقبلوه ، فلا تلتفت إليهم ، ولا تشغل قلبك بهم .. » .

المفردات :

مرفوعة : أولى ما قيل في تفسيرها ما قاله الطبري : « مرفوعة الذكر والقدر » . وهو أولى لدلالة الكلمة أو لمراد السياق[1] .

مُطَهَّرَة: قال الحسن : من كل دنس . وقيل مطهرة عن مساس أيدي الشياطين. وقيل: عن الشُبَه والتناقض . وكل ذلك في رأينا من معاني التطهير .

سَفَرَةٍ : مأخوذة من « السَّفْر » . وهذه المادة في أصلها تدل على الكشف أو تبيين الشيء ، ومنه قولهم : « أسفرت المرأة » إذا كشفت النقاب عن وجهها . وأسفر الصبح : أضاء . ويقال للكاتب سافر" ، لأنه يبين الشيء ويوضحه ، الجمع سَفَرَة .

وقد اختلف في تفسير السفرة هنا على أقوال كثيرة لا نطيل بها ، وأولاها بالصواب أنهم الملائكة لأنهم سفراء بين الله وبين البشر ، أو لأنهم ينسخون الكتب من اللوح . ويؤيد ذلك ما ذكره القاضي أبو بكر بن العربي وغيره[2] : « هي لفظة

(١) وثمة أقوال أخرى ترجع الى ما قاله الطبري انظرها في القرطبي ج ١٩ ص ٢١٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ١٩ ص ٢١٦ ، وبنحوه قال أبو السعود ج ٥ ص ٢٣٨ وغيره .

مخصوصة بالملائكة عند الاطلاق ، ولا يشاركهم فيها سواهم ، ولا يدخل معهم في متناولها غيرهم » .

كِرَامٍ : أي كرام على ربهم ، أو كِرام عن المعاصي فهم يرفعون أنفسهم عنها . وهو من لوازم الأول .

بررة : جمع بار ، والأصل في دلالة البِرّ الصدق ، فلان بَرّ وبار ، إذا كان أهلاً للصدق، وفلان يبر خالقه أي يطيعه، فمعنى بررة، مطيعون لله صادقون في أعمالهم .

الاعراب :

إنَّها تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ : الضمير في قوله : « إنها تَذْكِرَة » . وقوله « ذَكَره » يرجعان لشيء واحد ، فكيف كان أحدهما مؤنثاً والآخر مذكرا ؟

أجاب المفسرون عن ذلك بأجوبة علمية واضحة أحسنها وأبينها عبارة الامام الرازي قال(١) :

الجواب : وفيه وجهان : الأول : أن قوله : « إنها » ضمير المؤنث . قال مقاتل : « يعني آيات القرآن » ، وقال الكلبي : «يعني هذه السورة»، وهو قول الأخفش . والضمير في قوله « فَمَنْ شاءَ ذكره » عائد الى التذكرة أيضاً ، لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ .

الثاني : « إنها تَذْكِرَةٌ » : يعني به القرآن ، والقرآن مذكر ، إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة أخرجه عن لفظ التذكرة ، ولو ذَكَّرَه لجاز ، كما قال في موضع آخر : « كلا إنه تذكرة » . والدليل على أن قوله : « إنها تذكرة » المراد به القرآن قوله : « فمن شاء ذكره » .

في صحف : الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لتذكرة . أو خبر ثان لقوله : « إنها تذكرة » .

---

(١) ج ٣١ ص ٥٧ .

المعاني والأسلوب :

بعد أن بينت السورة الإزراء وعدم المبالاة بالمعاندين لمناسبة قصة الأعمى ، ينبه الله تبارك وتعالى بعد ذلك الى عظمة شأن القرآن ، وقوام وظيفته بأنه تذكرة أي موعظة وتبصرة للخلق ·

وقد وقع في كلام المفسرين هنا إسراف في هذه الكلمة « كلا » حيث فسرها كثير منهم بما تفسر في الخطاب مع أي كان ، واستعملوا ما ينبغي الابتعاد عنه « من كلمة الردع » في حق صاحب الرسالة ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، مع أنهم نصّوا بناء على فهمهم أن القضية إنما كانت من باب خلاف الأولى ·

ويعجبنا في هذا المقام قول الآلوسي(1) : « كلا » مبالغة في إرشاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ ·

وأبدى القرطبي(2) وجهاً في تفسير الآية يجب أن يعتنى به فقال : « يجوز أن تقف على « تلهى » ثم تبتدىء : « كلا » على معنى حقاً « إنها تذكرة » » ·

وهو وجه قوي بل نقول : إنه الراجح ، بدليل ما سبق أن حققناه من أنه لا خطأ في فعله ـ صلى الله عليه وسلم ، إنما المراد الردّ على هذا الجاهلي المتعالي على الحق والناس ، المستخِفّ بالدعوة والمؤمنين ، والآيات ههنا تقرر هذا المعنى ، حيث إن القرآن تذكرة ، وإنه عظيم الشأن ، فلا تشغل دعوة المعرضين المستغنين عن هدايته من اهتمام النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذلك الاشغال الزائد ، لذلك قال تعالى :

« فَمَنْ شاءَ ذَكَرَه » أي حفظه واتعظ به ، ومن رغب عنه كما فعل من استغنى ، فلا حاجة الى الاهتمام بأمره(3) ·

---

(1) ج ٩ ص ٤١ ·
(2) ج ١٩ ص ٢١٢ ·
(3) كما قرره في إرشاد العقل السليم ج ٥ ص ٢٣٧ ·

ثم تتابع السورة بيان فخامة القرآن في هذه الآيات :

« في صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ » :

أي مُعَظَّمة موقرة ، مرفوعة الذكر عند الله تعالى والقدر ، لعظمة القرآن الذي احتوته « مطهرة » من كل ما يشوبها أو يشينها من دنس أو شبهة أو تناقض . أو نقص في بيان ما يحتاج اليه ، أو أن يزاد فيها أو ينقص .

« بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ » :

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وابن زيد : هي الملائكة وقال ابن جرير : « الصحيح أن السفرة الملائكة ، والسفرة يعني بين الله وبين خلقه ، ومنه يقال السفير الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير .

كما قال الشاعر :

وما أدع السّفارة بين قومي   وما أمشي بفسق إن مشيت

وقال البخاري : « سفرة الملائكة : سفرتُ : أصلحت بينهم ، وجُعِلَتِ الملائكةُ إذا نَزَلَتْ بوحي الله وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم » .

« كرام بررة » : كرام عند الله تعالى أعِزَّاءَ على الله تعالى مُعَظَّمين عنده . وقال الحسن : كرام عن المعاصي فهم يرفعون انفسهم عنها وهذا من لوازم المعنى الأول لقوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم» بررة أتقياء ، مطيعين لله صادقين في أعمالهم . وقال ابن كثير : « كرام بررة » : أي خُلُقُهم كريمٌ حسنٌ وأخلاقُهم وأفعالُهم بارّةٌ طاهرة كاملة . ومن هنا ينبغي لحامل القرآن أن يكونَ في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد » .

---

(1) ج ٤ ص ٣٤٤ .

وفي الآيات دلالة على فضل قارىء القرآن حتى مدح بها الملائكة الكرام ، وقد أخرج الشيخان وباقي الجماعة عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « الذي يقرأ القرآنَ وهو ماهرٌ به مع السفَرَةِ الكرامِ البَرَرَةِ ، والذي يقرؤه وهو عليه شاق ، له أجران » .

قال تعالى :

« قُتِلَ الإنسانُ ما أكفرهُ ، من أيِّ شيءٍ خلقَهُ مِنْ نُطفَةٍ خلقَه فقدَّره ، ثم السبيلَ يَسَّرهُ ، ثم أماتَه فأقبرَه ، ثم إذا شاءَ أنشرَه ، كلاّ لمّا يَقضِ ما أمره ».

(سورة عبس : ١٧ ـ ٢٣)

مناسبة الآيات لما قبلها :

تشنّع هذه الآيات على هذا الكافر المستغني بسبب تكبره عن القرآن وهدايته وذلك ببيان افتقاره الى الله تعالى وحقارة ما خلق منه ثم بيان ما يصير إليه ، رداً على هذا المتكبر ، وزجراً عن الكِبْر ، يؤيد ذلك ذكر الموت والإخبار : « ثم أماته فأقبره » .

المعاني والأسلوب :

لما بدأ سبحانه وتعالى السورة بذكر القصة المشتملة على ترفع صناديد قريش على فقراء المسلمين ، وبين بعد هذا سُمُوَّ شأنِ القرآن فلا يضره كفرهم وعنادهم ، انتقل الى التعجيب من هؤلاء الصناديد وأمثالهم ، فقال عز وجل :

« قُتِلَ الإنسانُ » :

أي لُعِنَ ، وقيل : عُذِّبَ . والانسان هو هنا المستغني عن

القرآن • أو المراد الجنس لكن لا باعتبار جميع أفراده ، بل باعتبار هـذا النوع وأمثاله من جنس الانسان • وهـذا هو الراجح بدليل إطلاق اللفظ •

روى الأعمش عن مجاهد قال : « ما كان في القرآن قتل الانسان فانما عني به الكافر » انتهى •

وهذه العبارة « قتل الانسان » دعاء بأشنع الدعوات وأفظعها •

« ما أَكْفَرَه » :

تعجيبٌ من إفراطه في الكُفْران،وبيانٌ لاستحقاقه الدعاء عليه • أي ما أشدَّ كفره •

و « ما » تحتمل التعجب وتحتمل الاستفهام ، والراجح هنا التعجب، أي ما أشدَّ كفره • وعادةُ العرب إذا تعجبوا من شيءٍ قالوا : قاتله الله ما أحسنه ! وأخزاه الله ما أظلمه ! •

لكن التعجب بالنسبة الى الله تعالى محال ، وإنما المراد التعجيب من هذا الكافر ، فكأنه قيل : اعجبوا من كفر الانسان وتكبره ، مع جميع ما نذكره بعد من دلائل قدرتنا وحقارته وافتقاره الينا • وفي هـذا التعبير ــ كما قال أبو السعود(١) « مع قِصَرِ مَتْنه وتقارُبِ قُطْرَيه من الإنباءِ عن سُخْطٍ عظيم ومَذَمَّةٍ بالغة ، مالا غاية وراءه » •

ثم فصل تعالى ما أفاض على الانسان من مبدإ خلقه ، ردّاً على كفرانه واستكباره فقال :

« مِنْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَه ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَه » :

فبدأ بالاستفهام « أي من أي شيء خلقه » وغرض هذا الاستفهام زيادة التقرير في التحقير ثم أجاب عن ذلك الاستفهام بقوله : « مِنْ

---

(١) ج ٥ ص ٢٣٨ •

نُطْفَةٍ خلقه » ، ولا شك أن النطفة شيء حقير مَهِين ، والغرض منه أن من كان أصله مثل هذا الشيء الحقير فالتكبر والتجبر لا يكون لائقاً به أي من أي شيء حقير مهين خلقه ، من نطفة مذرة خلقه ·

« فقدره » : أي قَدَّرَ كلَّ عُضْوٍ في الكمية والكيفية بالقدر اللائق بمصلحته · ويدل على هذا قوله تعالى : « وخلقَ كلَّ شيءٍ فَقَدَّره تقديراً » ·

« ثم السبيلَ يَسَّرَه » :

قال ابن عباس وغيره وجماعة من التابعين : « يسَّر عليه خروجه من بطن أمه » والدلالة في هذا ، ما تحتاجه عملية الولادة من أمور عظام عند الخبير بها ، حين يفتح فم الرحم وتمدد الأعصاب والعضلات من طريق الولد ، وينكس الولد لأسفل حتى يخرج بعد أن كان في جهة العلو » · وقد رجح الطبري(١) هذا التفسير ، ومال إليه الرازي(٢) فقال: « ومما يؤكد هذا التأويل أن خروجه حياً من ذلك المنفذ الضيق من أعجب العجائب » ·

وقد أشارت الآية الى عظمة هذه الآية بهذا التعبير « ثم السبيل » ، حيث قدم ذكر السبيل ، فصارَ منصوباً بفعل مقدر يفسره الفعل الظاهر « يسره » أي : « ثم يسَّر السبيلَ يسَّره » ، وهذا التعبير فيه مبالغة في التيسير وتمكين له في النفس ، بسبب تكرار فعل يسر ، على ما أوضحناه ·

« ثم أماتَه فأَقْبَرَه ، ثم إذا شاءَ أنْشَره » :

هذه المرحلة الأخيرة للانسان وفيها ثلاث مراتب :

---

(١) ج ٣٠ ص ٣٦ ·

(٢) ج ٣١ ص ٦٠ وقارن برأي ابن كثير ج ٤ ص ٣٤٥ ·

الإماتة : وقد بينا أن الأولى عدّها من دلائل قدرة اللـه تعالى ، وافتقارِ هذا الانسان ·

أخرج عبد بن حميد والطبري وابن المنـذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إن الله أذل بني آدم بالموت وجعل الدنيا دار حياة وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء » ·

المرتبة الثانية : الاقبار : وهو أن يصير الانسان ذا قبر ، كما ذكر الفراء[1] : « أقبره جعله ذا قبر ، والعرب تقول : قبرتُ الرجلَ إذا وَلِيَ ذلك منه ، وأقبره الله » ·

المرتبـة الثالثة : « ثم إذا شاءَ أنْشَره » أي إذا شاء إِنْشارَه أنشره ، كما هي القاعدة في حذف مفعول المشيئة ·

ونـلاحظ هنا تعليق الإنشارِ بالمشيئة دون غـيره ، وذلك للايـذان والإشعار « بأن وقته غـير معلوم لدينا ، فتقـديمه وتأخيره موكول الى مشيئة اللـه تعالى ، وأما سائر الأحوال المذكورة قبـل ذلك فانه يعلم أوقاتهـا من بعض الوجوه ، إذ الموت وان لم يعلم الانسان وقته ففي الجملة يعلم أنه لا يتجاوز فيه إلا حداً معلوماً » ·

« كَلاّ لَمّا يَقْضِ ما أَمره » :

قال الطبري يقول : « كـلا ليس الأمر كما يقول هـذا الانسان الكافر : من أنه قد أدى حق الله عليه في نفسه وماله ، « لَمّا يَقْضِ ما أمره » ، يقول لم يؤد ما فُرِضَ عليه من الفرائض لربه عز وجل » انتهى·

وقد فسر هنا « لما » بـ « لم » ، والضمير بالانسان الكافر · وهذا تفسير لا إشكال فيـه وكان ابن عباس يقول كما ذكر القرطـبي[2] :

---

(1) معاني القرآن ج ٣ ص ٢٣٧ ·
(2) ج ١٩ ص ٢١٩ ·

« لم يَفِ بالميثاقِ الذي أُخِذَ عليه في صُلْبِ آدم » .

لكن ورد تفسير الآية عن مجاهد والحسن البصري بالتعميم للانسان المسلم وغيره ، وأخذ « لما » على ظاهرها، لأن أحداً لا يخلو عن تقصير ما. كما أخرج الطبري عن مجاهد قال في قوله : « كلا لما يقض ما أمره » ، قال : « لا يقضي أحد أبداً كُلَّ ما افْتُرِضَ عليه » .

قال ابن كثير : « وحكاه البغوي عن الحسن البصري بنحو هذا ، ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا » انتهى .

ولكن هذا التفسير مشكل ، وذلك لأنه « لا ريب في أن مساق الآيات الكريمة لبيان غاية عظم جناية الانسان ، وتحقيق كفرانه المفرط المستوجب للسخط العظيم ، وظاهر أن ذلك لا يتحقق بهذا القدر من نوع تقصير لا يخلو عنه أحد من أفراده » .

لذلك نرجح التفسير الأول باعادة الضمير على الكافر وتفسير « لما » بمعنى « لم » . ويدل على ذلك أن قوله : « لما يقض » الضمير فيه عائد الى المذكور السابق ، وهو الانسان في قوله : « قتل الانسان » وليس المراد من الانسان في قوله : « قتل الانسان » جميع الناس بل الانسان الكافر .

قال تعالى :

« فلينظُرِ الإنسانُ إلى طَعامِهِ أنّا صَبَبْنا الماء صَبّاً ، ثم شَقَقْنا الأَرض شقّا ، فأنبتْنا فيها حَبّا وعِنباً وقضْبا ، وزَيتونا ونَخْلا وحدا ئقَ غُلبا ، وفاكِهَةً وأبّا ، متاعاً لَكُمْ ولأنعامِكُمْ ».

(سورة عبس : ٢٤ ـ ٣٢)

مناسبة الآيات لما قبلها :

قال الرازي(١) : « واعلم أن عادة الله تعالى جارية في القرآن بأنه كلما ذكر الدلائل الموجودة في الأنفس فانه يذكر عقيبها الدلائل الموجودة في الآفاق ، فجرى ههنا على تلك العادة وذكر دلائل الآفاق « يعني بعد دلائل الأنفس السابقة » وبدأ بما يحتاج الانسان إليه » .

المفردات :

حَبّاً : قمحا وشعيرا ، وسائر ما يُحْصَدُ ويُدَّخر .

قَضْبا : القَضْبُ في اللغة : القطع . والمراد هنا ما يقطع من الزروع كالقَتّ والرُّطبِ وسائر البقول التي تقطع فينبت أصلها . وفسرها بعضهم بالفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة ، ويقال لها القت أيضاً . وقال الحسن : القَضْبُ : العلَف .

وفُسِّرَتْ بالرطب ، وهذا لا ينافي العموم ، وهو من باب تفسير العام ببعض أفراده . كما كان يقع للمفسرين من السلف كثيراً .

غُلْباً : غِلاظاً .

أبّا : أي مرعَىً . وقال ابن عباس : « الأَبُّ ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس » .

وبنحوه قال كثير من التابعين كمجاهد وقتادة والحسن . وقال الضحاك : كل شيء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو أب وهذا يعم ما يأكله الناس وغيرهم والأكثرون على الأول والله أعلم .

---

(١) ج ٣١ ص ٦١ وقارن بالقرطبي ج ١٩ ص ٢٢٠ والآلوسي ج ٩ ص ٤٥ .

الاعراب :

أنا صببنا : بدل اشتمال من قوله « طعامه » ، لأن الماء سبب لحدوث الطعام ، فهو اشتمل عليه ٠

متاعاً لكم : مفعول لأجله ، أي فعل ذلك تمتيعا لكم ولمواشيكم ٠ وأُعْرِبَ أيضاً مصدراً مؤكداً لفعل مضمر تقديره متعكم بذلك متاعا، والأول أولى ، لأنه لا يحتاج الى تقدير ، ولدلالة سياق الكلام عليه ٠

المعنى والأسلوب :

بعد أن ذكر الله تعالى ضعف شأن هذا الانسان من منشئه الى نهايته في القبر ، ذكر افتقاره اليه في بقائه بما أَعَدَّ له من أسباب البقاء ، وعمادُها هنا الغذاء ، فقال :

« فَلْيَنْظُرِ الإنسان إلى طعامه » :

أي لينظر بقلبه نظر تفكر واعتبار ، ليتدبر كيف خلق الله طعامه الذي هو قوام حياته وكيف هيأ له أسباب المعاش :

« أنّا صَبَبْنا الماءَ صَبّاً » :

أي أنزلنا الغَيْثَ من السماء صبّا عجيبا ، فان نزول الغيث آية عظيمة من آيات الله تعالى ، كيف انه حدث الغيث المشتمل على هذه المياه العظيمة ، وكيف بقي معلقاً في جو السماء مع غاية ثقله ، ثم ما هناك من أسبابه القريبة والبعيدة ٠ فان النظر في ذلك يبرز للناظر من آثار نور الله تعالى وعدله وحكمته في تدبير خلق هذا العالم ٠

« ثُمَّ شَقَقْنا الأَرْضَ شَقّا » :

أي شقَقْناها بالنبات ـ كما قال ابن عباس ـ شَقّاً بديعاً، لائقاً، بما يشقها من النبات صغراً وكبراً وشكلاً وهيئة ٠

ثم ذكر تعالى بعد هذا الإجمال في التقديم لعظمة إنعامه ، ذكر ثمانية أنواع من النبات هي :

١ ـ « فَأَنْبتنا فيها حَبّا » :

وهو كل ما حُصِدَ من نحو الحنطة والشعير وغيرها • وقدم القرآن ذكره لكونه كالأصل في الأغذية •

٢ ـ « وعِنبا » : وذكره بعد الحب لأنه غذاء من وجه ، فاكهة من وجه •

٣ ـ « وقضبا » وهو النبات الذي يُقْطَعُ فينبتُ أصله ، وعبر عنه بهذا التعبير ، لا ستحضار صورة قطعه مرة بعد مرة ليكون أدل على القدرة التي تمده •

٤و٥ ـ « وزيتوناً ونَخْلا » : ومعلوم عظمة شأنهما وتغذيتهما ونفعهما •

٦ ـ « وحدائقَ غُلْبا »: الحدائق المثمرة بأشجارها الغليظة،وهذا عموم في الأشجار التي هذه صفتها •

٧ ـ « وفاكهةً » : يشمل أنواع الفاكهة من مشمش وخوخ وغير ذلك •

٨ ـ « وأَبّاً » : وهو المرعى الذي ترعى فيه الحيوانات المسخَّرَة للانسان ، فتعيش به ، وينتفع الانسان بها حَمولَةً وفَرْشا ، وطعاما وغير ذلك •

ثم قال بعد هذا التعداد :

« مَتاعاً لكمْ وَلِأَنْعامِكُمْ » :

أي خلقنا هذه الأشياء لتكون منفعة لكم ولأنعامكم • وعبر بقوله « متاعاً » للإشعار بسرعة زوال هذه النعم وقرب اضمحلالها ،

وهو مناسب جداً هنا لمقام التذكير بالآخرة الآتي • ويقع الختام هنا متمماً للدلالة بابراز المنة على الخلق ، وقد جاءت الدلائل واضحة ظاهرة حيث ذكرت من حال هذا الطعام ما هو أظهر للعيان •

قال الله تعالى :

« فاذا جاءَتِ الصاخَّةُ ، يومَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخيه ، وأُمِّه وأَبيه ، وصاحِبَتِهِ وَبَنيه ، لِكُلِّ امرىءٍ مِنْهُمْ يومئذٍ شأنٌ يُغْنيه ، وُجوهٌ يومَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضاحكةٌ مستبشرة ، ووجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرَةٌ ترهَقُها قَتَرة ، أولئكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفجَرة ».

(سورة عبس : ٣٣ ـ ٤٢)

المفردات :

الصاخّة: الصيحة الشديدة ، تصخُّ الأَسْماع ، أي تُصِمُّها • فلا تسمع إلا ما يدعى به للإحياء • وقال بعض المفسرين ، تصيخ لها الأسماع ، من قولك أصاخ الى كذا ، أي استمع إليه • والراجح هو الأول ، لأنه يتأتى على اسم الفاعل من صَخَّ •

مُسْفِرَة: مشرقة مضيئة •

غَبَرَة : غُبار وكدرة •

قَتَرَة : سواد وظلمة •

الاعراب :

فاذا : إذا : شرطية غير جازمة ، وجوابها قوله : « وجوهٌ يومئذ مُسْفِرَة » و « وُجوهٌ يومئذ باسِرة » • بنفسه أو بما دل عليه •

يوم : الأظهر أنه منصوب بفعل مقدر تقديره أعني • أو هو بدل من إذا جاءت •

المعنى والأسلوب :

بعد أن أوضحت السورة ما يتعلق بمبدأ الانسان ومعاشه ، مما يدل على افتقاره ، وعلى قدرة الله تبارك وتعالى بينت ما يتعلق بمعاد الانسان إذ جاء كنتيجة لتلك المقدمات ، فقال تعالى :

« فإذا جَاءَتِ الصَّاخَّة » :

أي القيامة ، وعطف هذا الكلام الجديد على ما قبله بحرف الفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها ، لأنه كالنتيجة لتلك الدلائل السابقة ، فانها تثبت قدرة الله تعالى على حَقِّيَّةِ البعث بعد النشور ، ولتدل على قرب حلول تلك الصاخّة ، كما أشعر بذلك اختتام تلك النعم بقوله : « متاعاً لكم ولأنعامكم » حيث عبر بقوله : « متاعاً » ، وهو لفظ معبِّر ، يشير الى سرعة زوالها وقرب اضمحلالها ، وعبر عن صيحة القيامة بالصاخة ليصور هولها وشدتها ، وأنها داهية عظيمة ، تصخ الآذان لهولها ، أي تصمها ومنه قولهم : صَخَّه بالحجر إذا صَكَّه به •

قال ابن عباس : « الصاخة » اسم من أسماء يوم القيامة •

ثم أوضحت الآيات آثار أهوال يوم القيامة :

« يَوْمَ يَفِرُّ المرءُ مِنْ أخيه • وأمِّه وأبيه • وصاحِبَتِهِ وبَنيه • لكل امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه » :

فقد بلغ من هول ذلك اليوم أن يرى المرء أحبته الذين كان يلوذ بهم في الدنيا فيفر منهم ، ويبتعد عنهم ، لأن الهول عظيم والخطب جليل، قال قتادة : « الأحب فالأحب ، والأقرب فالأقرب ، من هول ذلك اليوم »•

« لكلِّ امْرِئٍ مِنهُمْ يومَئذٍ شَأْنٌ يُغْنيه » :

أي ان ذلك الفرار والهرب بسبب ما حل بكل واحد من الأهوال والبلاء ٠

وعبرت الآية بقوله : « شأنٌ يُغْنِيه » : أي شغل شاغل، وخَطْبٌ هائل ، يكفيه في الاهتمام به ٠

وأخرج الترمذي من رواية عكرمة عن ابن عباس والنسائي من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس وابن أبي حاتم واللفظ لابن أبي حاتم قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « تُحْشرون حُفاةً عُراةً مُشاةً غُرْلاً ٠ قال فقالت زوجته: يا رسول الله أَوَيرى بعضُنا عَوْرَةَ بعض ؟! قال : « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه أو قال : « ما أشغله عن النظر !! » ٠

وأخرجه النسائي عن عائشة ، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم : « الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » ٠ وفي الصحيحين والمسند عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنكم تُحْشرونَ يومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً غُرْلاً ٠ قالت عائشة : يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظرُ بعضهم الى بعض ؟! ٠٠ قال : يا عائشة إنَّ الأمر أشدُ من أن يُهِمَّهُمْ ذاك » ٠

« وُجوهٌ يَوْمئذٍ مُسْفِرَةٌ ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَة » :

لما ذكر الله تعالى حال يوم القيامة في الهول بَيَّنَ أن المكلفين فيه على قسمين : منهم السعداء ، ومنهم الأشقياء ٠

وقد وصف السعداء في هاتين الآيتين فقال :

« وجوه يومئذ مسفرة » :

أي مشرقة مضيئة متهللة ، وهذه وجوه المؤمنين ٠

« ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ » :

أي مسرورة فرحة بما آتاها الله من الكرامة • وقد ذكر المفسرون أنواعاً من الصالحات تسبب لهذا الاشراق : فَرُوِيَ عن ابن عباس : أنه من قِيام الليل ، وقيل من الوضوء ، وقيل غير ذلك ، ويمكن القول انها مسفرة لما قدموا من الايمان وأنواع الصالحات •

« وُوجوهٌ يومئذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ ، تَرْهَقُها قَتَرَةٌ ، أولئِكَ هم الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ » :

هذا وصف الأشقياء بأن وجوههم عليها غبار وكدرة « ترهقها » تعلوها وتغشاها قترة السواد والظلمة ، وهذا غاية الشناعة والقبح ، فلا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد •

وقد صرحت الآيات هنا بأصحاب هذا القسم :

« أولئكَ همُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ » :

وأشارت إليهم باسم الإشارة الذي للبعيد ، للإيذان ببعد درجتهم في سوء الحال البالغ غاية لا تقدر ، أي أولئك الموصوفون بما ذُكِرَ هم الكفرة قلوبهم ، الفجرة الفاسقون في أعمالهم ، فقد جمعوا أصناف الآثام والاجرام القلبية والعملية ، فلذلك جمع الله لهم بين الغَبَرَة والقَتَرَة ، وكأن الغبَرَة للفجور والقترة للكفور • نعوذ بالله عز وجل من ذلك •

وهكذا أتت السورة على علاج الأزمة النفسية، التي هي سبب معوق لهؤلاء المستكبرين عن دخول الاسلام ، أزمة التكبر بمظاهر الدنيا ، واحتقار من لم يؤت منها الحظ الأوفى ، فعالجت الكبر بما بينته من أصل الانسان خلقاً وولادة وتيسير سبيله من رحم أمه ، ثم ميتة وإقباراً وتحوله جيفة،وبيان افتقاره الى ربه في ألزم شيء لحياته من طعامه وشرابه، وأخيراً بهذا البيان لحال الفريقين المؤمنين والكافرين يوم القيامة ،

فكان في ذلك خير ما يقتلع هذه الخصلة الذميمة المهلكة ، خصلة الكبر أعاذنا الله تعالى ٠

وكذلك أتت الأحاديث الكثيرة تحذر من الكبر :

قال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر »(١) ٠

وقال صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عِتُلٍّ ، جَوَّاظ ، مستكبر »(٢) ٠

وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب، وعائل مستكبر »(٣)

وقال صلى الله عليه وسلم : « لاينظر الله يوم القيامة إلى مَنْ جَرَّ إزاره بطرأ »(٤) ٠

• • •

---

(١) أخرجه مسلم ٠

(٢) متفق عليه ٠ والجوّاظ : الجَموع للمال ، المنوع للخير ٠

(٣) أخرجه مسلم ٠ شيخ زان : أي طاعن في السن ٠ والزنا فاحشة كبيرة ، وهو من الطاعن في السن أفحش وأفظع ٠

(٤) متفق عليه ٠

تفسير سورة البروج

تمهيـــد :

سورة البروج مكية بلا خلاف، كما لا خلاف في كونها اثنتين وعشرين آية[1].

وتهدف السورة الى وعظ صناديد قريش لما يلحقونه من الاضطهاد بالمؤمنين وتثبيت المؤمنين أمام هذه الحملة ، وذلك من خلال هذه القصة التي أشارت إليها السورة : قصةِ أصحاب الأُخْدُود الذين حرقوا المؤمنين في النار ، ثم بالتعقيب على هذه القصة بالوعيد والوعد ، وبيان عظمة القرآن المجيد .

قصة موضوع السورة :

أخرج الامام مسلم في صحيحه والترمذي في جامعه وأحمدُ في مسنده[2] عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كَبِرَ الساحر قال للملك : إني قد كَبِرَتْ سِنِّي وحضَرَ أَجَلي ، فادفع إليَّ غُلاماً لأعلِّمه السحر . فدفع اليه غلاماً فكان يعلمه السحر .

---

(1) الآلوسي .

(2) صحيح مسلم ج ٨ ص ٢٢٩ ـ ٢٣١ ، والترمذي ج ٥ ص ٤٣٧ ـ ٤٣٩ ، والمسند ج ٦ ص ١٦ ـ ١٨ ، وألفاظهم متقاربة بمعنى واحد ، والسياق للمسند ، وفي مطلع الحديث عند الترمذي زيادة لم نسردها ، لا حاجة لها في هذه القصة .

وكان بين الساحرِ وبين الملك راهب ، فأتى الغلامُ على الراهب فسمع من كلامه ، فأعجبه نَحْوُه وكلامُه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال : ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا : ما حبسك ؟ فشكا ذلك الى الراهب ، فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل : حبسني أهلي • وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل : قد حبسني الساحر •

قال : فبينما هو كذلك ، إذ أتى ذات يوم على دابة فظيعة عظيمة ، قد حَبَسَتِ الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلمُ أمرُ الراهب أحبُّ الى الله أمْ أمرُ الساحر ؟ قال : فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمرُ الراهب أحبَّ إليك وأَرْضى من أمرِ الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوزَ الناس ، ورماها فقتلها ، ومضى الناس •

فأخبرَ الراهبَ بذلك ، فقال : « أي بُنَيَّ أنت أفضلُ مني ، وإنك ستُبْتَلى ، فإنِ ابْتُلِيتَ فلا تَدُلَّ عليَّ » •

فكان الغلامُ يُبْرِىءُ الأَكمَهَ والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم •

وكان جليسٌ للملك فعميَ ، فسمع به ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : اشفني ولك ما ههنا أجمع • فقال : ما أنا أشفي أحداً ، إنما يشفي الله عز وجل ، فان آمنت به دعوت الله فشفاك •

فآمن فدعا الله فشفاه •

ثم أتى الملكَ ، فجلس منه نحوَ ما كان يجلس ، فقال له الملك : يا فلان ، من رد عليك بصرك ؟ فقال : ربي ، فقال : أنا ؟ قال : لا ، ربي وربك الله • قال : ألك ربٌّ غيري ؟! قال : نعم ، ربي وربك الله• فلم يَزَلْ يعذبه حتى دل على الغلام •

فبعث إليه فقال : أي بُنَيَّ ، بلغ من سحرك أن تبرىءَ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء ؟ فقال ما أشفي أنا أحداً ، إنما يشفي اللـه

عز وجل . قال : أنا ؟ قال : لا . قال : أولك رب غيري ؟ قال : ربي وربك الله . فأخذه أيضاً بالعذاب ، فلم يزل به حتى دل على الراهب .

فأتي بالراهب فقال : ارجع عن دينك . فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه . وقال للأعمى : ارجع عن دينك ! فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض .

وقال للغلام : ارجع عن دينك . فأبى ، فبعث به مع نفر الى جبل كذا وكذا ، وقال : إذا بلغتم ذِرْوَته فانْ رجع عن دينه وإلا فدَهْدِهوه[1] من فوقه ، فذهبوا به ، فلما علَوْا به الجبل قال : اللهم اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فدُهْدِهوا أجمعون ، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك ! فقال : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله .

فبعث به مع نفر في قُرْقُور[2] فقال : إذا لجَّجْتُمْ به البحر ، فان رجع عن دينه وإلا فغَرِّقوه في البحر ، فلججوا به البحر ، فقال الغلام : اللهم اكفينهم بما شئت . فغرقوا أجمعون .

وجاء الغلام حتى دخل على الملك ! فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله .

ثم قال للملك : إنك لستَ بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به ، فان أنت فعلتَ ما آمرك به قتَلْتَني ، وإلا فانك لا تستطيع قتلي . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع ، وتأخذ سهماً من كنانتي ، ثم قل : « باسم الله رب الغلام » . فانك إذا فعلت ذلك قتلتني .

ففعل ، ووضع السهم في كَبِد قوسه ثم رماه ، وقال : « باسم الله رب الغلام » ، فوقع السهم في صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات . فقال الناس : آمنا برب الغلام .

---

(١) أي دحرجوه .
(٢) القُرْقُور بقافين مضمومتين : سفينة صغيرة .

فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد ــ والله ــ نزل بك . قد آمن الناس كلهم ٠

فأمر بأفواه السكك فَخُدَّتْ فيها الأَخاديد،وأُضْرِمَتْ فيها النيران، وقال : مَنْ رجع عن دينه فدعوه وإلا فأَقْحِموه فيها ٠ قال : فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون ، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه ، فكأنها تقاعست أن تقع في النار ، فقال الصبي : اصبري يا أماه ، فانكِ على الحق » ٠ انتهى ٠

هذا سياق الرواية عند هؤلاء الأئمة المحدثين ٠

وقد رواها أيضاً محمد بن إسحاق إمام السير والمغازي بنحو من ذلك، وسمي الغلام عبد الله بن الثامر ، ووقع في ختام روايته ما يخالف بحسب الظاهر ختام القصة في الرواية التي أوردناها ، لكننا نرى أنه يمكن أن نعتبر رواية ابن اسحاق تفصيلا لإجمال الرواية السابقة ٠

وهذا نص المقصود منها :

« فلما غلبه ــ أي غلب الغلام الملك ــ أعجزه أن يقتله ــ قال له عبد الله بن الثامر ــ وهو الغلام الذي أراد الملك قتله ــ : « انك والله لا تقدر على قتلي حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به ، فانك ان فعلت سُلِّطْتَ عليَّ فقتلتني ٠

قال : فَوحَّد الله ذلك الملك ، وشهد شهادة عبد الله بن الثامر ، ثم ضربه بعصا في يده فشجه شجة غير كبيرة ، فقتله ، وهلك الملك مكانه ٠ واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر ، وكان على ما جاء به عيسى بن مريم ــ عليه السلام ــ من الانجيل وحُكْمِه ، ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث ، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران » ٠

« قال : فسار إليهم ذو نُواس بجنده ، فدعاهم الى اليهودية ،

وخيَّرهم بين ذلك أو القتل ، فخدَّ الأُخدود ، فحرَّق بالنار ، وقتل بالسيف ، ومثّل بهم ، حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً ، ففي ذي نُواس وجنده أنزل اللـه عز وجل على رسوله صلى اللـه عليه وسلم :

« قُتِلَ أصحاب الأُخْدود ٠ النارِ ذاتِ الوَقود ٠ إذْ هُمْ عليها قُعود ٠ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شُهود ٠ وما نَقَموا منهم إلا أنْ يُؤْمِنوا بالله العَزيز الحَميد ٠ الذي له مُلْكُ السمواتِ والأَرْضِ واللهُ على كلِّ شيءٍ شهيد » ٠

وذكر ابن اسحاق انه « قتل ذو نواسَ في غداة واحدة في الأخدود عشرين ألفاً ، ولم يَنْجُ منهم سوى رجلٍ واحدٍ يُقال له : دَوْسٌ ذو ثعلبان » ، ذهب فارساً وطردوا وراءه فلم يقدر عليه ، فذهب الى قيصر ملك الشام ، فكتب الى النجاشي ملك الحبشة ، فأرسل معه جيشاً من نصارى الحبشةِ يَقْدُمُهُمُ أرياط وأبرهة ، فاستنقذوا اليمن من أيدي اليهود ، وذهب ذو نواس هارباً ، فلجَّج في البحر فغرق ٠ واستمر ملك الحبشة في أيدي النصارى سبعين سنة (١) ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« والسماءِ ذاتِ البُروج ، واليومِ المَوْعود ، وشاهدٍ ومَشهود قُتِلَ أصحابُ الأُخدود ، النارِ ذاتِ الوَقود ، إذْ هُمْ عليها قُعود ، وهُمْ على مايفعلونَ بالمؤمنينَ شُهُود ، وما نَقَموا منهمْ إلا أنْ يُؤمِنوا

(١) تفسير ابن كثير ٠

بالله العزيز الحميد ، الذي له مُلكُ السموات والأرضِ ، والله على كلِّ شيءٍ شهيد » .

(سورة البروج : ١ ـ ٩)

المفردات :

البروج : أصل مادة هـذه الكلمـة « ب ر ج » بمعنى الظهور . وقد أطلقت على عدة معان ، مما أدى الى اختلاف المفسرين في المراد بالبروج هنا ، نذكر من اختلافهم قولين :

الأول : البروج : بمعنى النجوم العظام ، سميت بذلك لعظمتها وغاية ظهورها وبه فسرها ابن كثير .

الثاني : البروج : منازل الشمس والقمر الاثنا عشر . وهو الأشهر في اللغة، حتى لم يذكر في مختار الصحاح ، والمعجم الوسيط غيره . وعليه اقتصر الراغب الأصفهاني في المفردات . واختاره ابن جرير الطبري .

اليوم الموعود: يوم القيامة . باتفاق المفسرين .

وشاهد ومشهود : اختلف في المراد بهـذه العبارة اختلافاً كثـيراً جداً ، بسبب اطلاقهـا واحتمالها اللغوي ، فيمكن أن يكون الشاهد والمشهود هنا من الشهـود بمعنى الحُضُور ، وأن يكون من الشاهد الذي نثبت به الدعاوي والحقوق .

ثم هنالك مجال آخر للاجتهاد في التأويل هو حمل هـذا المطلق على شيء معين ، وقد وردت آثار كثيرة بتعيين الشاهد والمشهود مثل القول بأن الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة . وهكذا بلغ مجموع الأقوال نحو ثلاثين قولا .

وعلى ذلك فانا نرى الرجوع الى طريق الترجيح بالاجتهاد

عن طريق النظر اللغوي ، وذلك كما ذكر الرازي أن القفال أحسن الناس كلاماً فيه • قال ان الشاهد يقع على شيئين :

أحدهما : الشاهد الـذي تثبت به الدعاوى والحقوق ، والثاني الشاهد الذي هو بمعنى الحاضر كقوله تعالى « عالم الغيب والشهادة » ، ويقال : فلان شاهـد ، وفـلان غائب • وحمل الآية على هذا الاحتمال الثاني أولى ، إذ لو كان المراد هو الأول وهو ما تثبت به الدعوى لما خـلا لفظ المشهود عن حرف الصلة ، فيقال : مشهود عليه ، أو مشهود له • هذا هو الظاهر •

ثم ذكر أوجهاً من المعاني تفسر بها الآية بناء على هـذا الوجه ، وختمها بقوله :

« ولعل الآية عامة لكل يوم عظيم من أيام الدنيا ، ولكل مقام جليل من مقاماتها ، وليوم القيامة أيضاً ، لأنه يوم عظيم ، كما قال : « ليومٍ عظيم ، يومَ يقومُ الناسُ لِربّ العالمين ». وقال : « فويلٌ للذينَ كفروا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عظيم » •

ويدل على صحة هذا التأويل ، أي عموم الآيـة لكل يوم عظيم ـ خروج اللفظ في الشاهد والمشهود على النكرة • فيحتمل أن يكون ذلك على معنى أن القصد لم يقع فيه الى يوم بعينه ، فيكون معرفا » يعني لو قصد به يوم بعينه لزم تعريفه وهو نكرة(١) •

الأُخْدُود: الشق في الأرض يحفر مستطيلا ، وجمعـه الأخاديـد • ومصدره الخدّ وهو الشق • يقال خد في الأرض خداً ، وتخدد لحمه إذا صار طرائق الشقوق •

ومانَقَمُوا : أي ما عابوا ولا أنكرو •

---

(١) الرازي ج ٣١ ص ١٣٣ و ١١٥ •

الاعراب :

والسماءِ : قَسَم ، وما بعده عطف عليه ٠

قُتِلَ أصحاب الأُخْدُود : جواب القسم ، باضمار اللام والأصل : لقتل ٠ حذفت اللام للطول ٠ وقيل التقدير لقد قتل ٠ والجملة خبرية ٠ واختار الزمخشري وأبو السعود ان هذه الجملة ليست هي الجواب ، بل هي دعائية دالة على جواب القسم ، كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء : أنهم أي كفار مكة ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود ، كما أن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الايمان ، وتصبيرهم على أذية الكفرة ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب حتى يَأْتَسُوا بهم بالصبر ٠

النارِ : بدل اشتمال من الأخدود ، فان الأخدود مشتمل على النار ٠ والضمير الرابط مقدر ، أي فيه ٠ أو أقيم (آل) مقام الضمير ، أو لأنه معلوم اتصاله به فلا يحتاج الى رابط ، وكذا كل ما يظهر ارتباطه فيما قيل ٠

إذ : ظرف متعلق بقوله « قُتِل »٠ أي لُعِنوا حين أَحدقوا بالنار قاعدين حولها ٠

المعنى والأسلوب :

« والسماءِ ذاتِ البروجِ ٠ واليومِ المَوْعود » :

يقسم الله تعالى بالسماء وبروجها وهي منازل الشمس والقمر وهي اثنا عشر برجاً ، ويقسم باليوم الموعود ، أي الموعود به ، وهو يوم القيامة باتفاق المفسرين ، يوم ميعاد الخلائق أجمعين ، كما قال عز وجل: « يوم يخرجون من الأجداثِ سِراعاً كأنهم إلى نُصُبٍ يُوفِضُون ، خاشعةً أبصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّة ، ذلكَ اليومُ الذي كانوا يُوعَدون » ٠

« وشاهدٍ ومَشْهود » :

ويقسم بالشاهد والمشهود أي ومن يشهد ذلك اليوم ويحضره من الخلائق المبعوثين فيه ، وما يعرض فيه من الأهوال والعجائب ، فيكون الله تعالى أقسم سبحانه بيوم القيامة وبما فيه تعظيماً لذلك اليوم وإرهاباً لمنكريه ، كما قال الآلوسي . أو نقول ان المراد بالشاهد والمشهود كل حاضر أمر مهم ، وكل ما يحضر للناس من مهمات الأمور ، ويدخل في ذلك من يشاهد يوم القيامة ، وما فيه من الأهوال دخولاً أولياً ، لأنه أعظم محضر يحضره الخلائق ، وفيه أعظم ما يشاهدونه .

وقد عبرت الآية بأسلوب التنكير في « شاهد ومشهود » لتعظيم هذين الوصفين حتى إنهما لا يحاط بهما ، أي وشاهد ومشهود بالغين غاية العظمة ، لا يكتنه وصفهما . أو للتكثير أي كثيرين جداً .

« قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُود » :

لقد لُعِنَ أصحابُ الأُخدود ، الذين استولوا على من عندهم من المؤمنين وقذفوهم في النار المؤجَّجَة في الأخدود لكي يقهروهم أن يعودوا عن توحيد الله تعالى وعبادته ، وانعتاقهم عن العبودية لغير الله تعالى .

وقد عبرت الآية بالقتل عن أشد اللعن والطرد ، لأن حقيقة الدعاء لا تأتي من الله تعالى فأريد منه لازمه وهو السخط والطرد عن رحمته جَلَّ وعلا .

« النارِ ذاتِ الوَقود » :

هذا بيان للأخدود فسرته الآية بما اشتمل عليه من النار ، وقد وصفت الآية هذه النار بغاية العظم وارتفاع اللهب ، وذلك أولاً باتباع أسلوب البدلية ، ثم بهذا التعبير « ذات الوقود » حيث عبر بهذا ولم يقل النار الموقدة مثلاً .

« إذْ هُمْ عليها قُعودٌ . وهُمْ على مايَفْعلونَ بالمؤمنينَ شُهود »:

تبين هذه الآيات ما حلت به اللعنة على هؤلاء الكفرة ، وهو زيادة

إسرافهم في الطغيان وتعذيب المؤمنين بالنار ، حيث بلغ من قسوة قلوبهم ، أنْ تحلّقوا حول النار قعوداً ، مشرفين عليها من حافات الأخدود ، ينظرون شيّ الأجساد الآدمية حية في النيران الحامية، وهم على مايفعلون من هذا العمل الفظيع بالمؤمنين شهود ، يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأن أحداً لم يقصر فيه !!٠

وقيل إن المعنى : وهم مع ما يفعلون من العذاب بالمؤمنين شهود أي حضور لا يرقون لهم ، لغاية قسوة قلوبهم(١) ٠ وبذلك فسر الامام ابن كثير الآية فقال : « أي مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين » ٠

وهذا يناسب مقصود سياق الآيتين كما ذكرنا ، إلا أنه فسر « على » بمعنى « مع » ، ولاضير فيه فانه واقع في كلامهم ٠

ثم بينت الآيات مزيد فظاعة عمل هؤلاء المجرمين ببيان سبب فعلتهم الذي فعله المؤمنون ، وإذا هو شيء لا يوجب عيباً ولا نُكرا :

« وما نَقَمُوا منهمْ إلا أَنْ يُؤمِنوا باللهِ العَزيزِ الحَميدِ » :

أي وما كان لهم عندهم ذنب يعيبونهم به وينكرونه عليهم إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام مَنْ لاذَ بجانبه المنيع ، الحميد في جميع أفعاله وأقواله وشَرْعه ، وإن كان قد قدّر على عباده هؤلاء ، هذا الذي بهم بأيدي الكفار ، فهو العزيز الحميد ، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس » ٠

« الذي له مُلْكُ السموات والأرض » :

---

(١) انظر هذه الأوجه في أبي السعود ج ٥ ص ٢٥٢ والآلوسي ج ٣٠ ص ٩٠ طبع المنيرية ، وغيرهما ٠ وثمة أوجه أخرى تأثر أصحابها بروايات أخرى في الموضوع ، خصوصاً رواية أن الله أنجى المؤمنين ، وانقلبت النار على أعدائهم فأحرقتهم ٠ لكن سياق السورة لا يناسب تفسيرها على هذه الرواية ، لذلك قدمنا تحقيق الأصح لقصة السورة ، حتى نتحاشى الخوض في الاحتمالات الضعيفة ٠

هذا من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض ومافيهما ، وما بينهما •

« والله على كل شيء شهيد » :

لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض ، ولا تخفى عليه خافية •

وقد جاء أسلوب الآيتين غاية في تبرئة المؤمنين عما يعابون به ، وذلك في هذا الاستثناء : « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله » • وظاهر أنه ليس بعيب ، فلا عيب فيهم إطلاقاً ، فضلا عن أن يستحقوا هذا التعذيب الفظيع ، وهذا أسلوب بليغ جداً ، هو أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم •

ثم قررت الآيتان براءة المؤمنين بما يدل على مدحهم حيث آمنوا بما يجب الايمان به وذلك بأن تممت الاستثناء « إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذي له ••• » بهذه الصفات التي توجب الايمان بالله تعالى وحده لا شريك ، وأن يطاع ، ولا يعبد أحد سواه •

ونسوق إليك بيان ذلك مما قاله الرازي(١) :

« فأولها : العزيز : وهو القادر الذي لا يُغْلَب ، والقاهر الذي لا يُدْفَع •••

وثانيها : الحَميد : وهو الذي يستحق الحمد والثناء على ألسنة عباده المؤمنين ، وإن كان بعض الأشياء لا يحمده بلسانه فنفسه شاهدة على أن المحمود في الحقيقة هو هو ، كما قال : « وإنْ مِنْ شَيءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بحَمْدِهِ » •

وثالثها : « الذي له ملك السموات والأرض » :

---

(١) ج ٣١ ص ١٢٠ •

وهو ما لكها ، والقيِّم بهما ، ولو شاء لأفناهما ، وهو إشارة الى الملك التام ، وإنما أَخَّر هذه الصفة عن الأولين لأن الملك التام لايحصل إلا عند حصول الكمال في القـدرة والعلم ، فثبت أن من كان موصوفاً بهذه الصفات كان هو المستحق للايمان به ، وغيره لا يستحق ذلك ألبتة ، فكيف حكَمَ أولئك الكفارُ الجهال بِكَوْنِ مثل هذا الايمان ذنبا؟!!٠

وقال أبو السعود (١) :

«ووصفه تعالى بكونه عزيزاً غالباً يخشى عقابه، وحميداً منعماً يرجى ثوابه وتأكيد ذلك بقولـه تعالى « الـذي له ملك السموات والأرض » للاشعار بمناط إيمانهم ، وقوله تعالى « والله على كل شيء شهيد » وعد لهم ، ووعيد شديد لمعذبيهم ، فان علمه تعالى بجميع الأشياء التي من جملتها أعمال الفريقين يستدعي توفير جزاء كل منهما حتماً » ٠

قال الله تعالى :

« إنَّ الذينَ فتَنوا المؤمنينَ والمُؤمنـاتِ ثم لَمْ يتوبوا فلهُمْ عـذابُ جهَنَّمَ ولهم عـذابُ الحَريق ، إن الذينَ آمنوا وعمـلوا الصالحاتِ لهم جناتٌ تجري مِنْ تحتِها الأنهـارُ ذلكَ الفوزُ الكبير ، إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَديد ، إنه هُوَ يُبْدِىءُ ويُعيـدُ ، وهوَ الغفورُ الودُودُ ، ذُو العرشُ المجيد ، فَعَّالٌ لِما يُريد » ٠

(سورة البروج : ١٠ ـ ١٦)

---

(١) ج ٥ ص ٢٥٢ ٠ وكذا ذكر الآلوسي ج ٣٠ ص ٩٠ طبع المنيرية ٠

مناسبة الآيات لما قبلها :

قال الرازي : « اعلم أنه سبحانه لما ذكر قصة أصحاب الأخدود ، أتبعها بما يتفرع عليها من أحكام الثواب والعقاب » فقال : « إن الذين فتنوا المؤمنين » ·

المفردات :

فتنوا : الفتنة المحنة · وهي في أصل اللغة بمعنى الاختبار والامتحان. تقول فَتَنَ الذهبَ يفتِنه بالكسر ، فِتْنَةً ، إذا أدخله النار ، لينظر ما جودته ، ثم استعمل بمعنى المِحْنة ·

وقال الخليل : الفَتْنُ : الاحراق ، قال الله تعالى : « يوم هم على النار يُفتَنون » · انتهى من مختار الصحاح وبه فسر الراغب في المفردات ·

بَطْشَ : البَطْش السطوة والأخذ بالعنف وقد بطش به من باب ضرب ونصر ·

الاعراب :

وهو الغفور الودود : هو مبتدأ ، والغفور وما بعده أخبار لهذا المبتدأ ·

فَعَّال لما يُريد : أعرب الزمخشري «فعّال لما يريد» خبراً لمبتدأ محذوف، أي هو فعّال لما يريد ·

قال صاحب الكشف : « إنما لم يحمله على أنه خبر السابق ، أعني هو ، في قوله تعالى : « وهو الغفور » ، لأن قوله سبحانه: «فعّال لما يريد» تحقيق للصفتين البطش بالأعداء ، والغفر والود للأولياء ، ولو حمل عليه لفاتت هذه النكتة » ·

يعني بقوله « ولو حمل عليه » لو جعل خبراً لهو ، لفاتت هذه الفائدة أي وقوع الجملة موقع التحقيق للصفتين المذكورتين ·

قال الآلوسي : « وهو تدقيق لطيف » ·

المعنى والأسلوب :

يعقب القرآن على قصة أصحاب الأخدود بالوعيد الشديد لمن يرتكب جريمة الاضطهاد للمؤمنين فيقول :

إن الذين فتنوا أي محنوا المؤمنين والمؤمنات بانزال البلاء والعذاب بهم ليرجعوا عن توحيد الله تعالى ودينه الحق· وقد جعل بعض المفسرين الآية في شأن أصحاب الأخدود ، وعلى ذلك يفسر الذين فتنوا بالذين حرقوا المؤمنين بالنار ، والمؤمنين والمؤمنات بأنهم الذين أحرقوا فيها ·

لكن الظاهر من الآية هو العموم لكل من يعمل هذا العمل ، لأن الآية استعملت صيغة العموم « الذين فتنوا » و « المؤمنين والمؤمنات » . ويدخل في هذا العموم أصحاب القصة دخولاً أولياً ·

ويرجح هذا العموم أنه أكثر إفادة للمقصود ، وهو زجر كفار مكة عن امتحان المؤمنين ووعيدهم على فتنتهم هذه · وتثبيت الصحابة على مواجهة المحن والصبر والاحتمال لها ·

وأيضاً قوله تعالى : « ثم لم يتوبوا » فان هذا اللفظ ـ كما قال ابن عطية ـ في كفار قريش أحكم منه في أصحاب الأخدود ، الذين علم أنهم ماتوا على الكفر ، وأما قريش فكان فيهم وقت نزولها من تاب وآمن ···(١) ، فكان هذا إشارة الى إرادة العموم والله تعالى أعلم ·

---

(١) الآلوسي بتصرف · ومذهب ابن عطية ان المراد بالآية كفار مكة والمؤمنين الذين امتحنوهم ، كما يدل ما ذكرناه من كلامه · لكن هذا لا يلزم منه تخصيص المراد بالآية بما ذكر ، لكنه يفيدنا في ترجيح العموم · والله أعلم ·

« فلهُمْ عذابُ جهنَّمَ ولهُمْ عذابُ الحَريق » :

وذلك أن الجزاء من جنْس العمل ، فجعل منجزائهم خصوص الحريق ، وهو نار أخرى زائدة الاحراق ، لعدم توبتهم وعدم مبالاتهم بما صدر منهم ·

وقد أفادت الآية هول عذابهم الذي خُصُّوا به بسبب فتنتهم ، بهذا التعبير : « عذابَ الحريق » حيث عبَّر بالحريق ، على زِنَةِ فَعيل ، ولم يقل العذاب المحرق مثلا ، فأفاد إحراقاً فظيعاً ، بالغاً غاية لا تدرك ، عِياذاً بالله تعالى ·

ونلاحظ في الآية هنا التعرض للتوبة ، ثم لم يتوبوا ، وفي هذا إشارة الى قسوتهم الزائدة ، فان هؤلاء تجمدت أحاسيسهم الانسانية ، وماتت فلم يتوبوا وظلوا مصرين على فَعْلتهم ·

وأيضاً فان هذا التعبير ـ والكلام تعريض بكفار مكة ـ فتح باب التوبة والايمان لهم ، حتى لا يوقعهم الوعيد الشديد في اليأس من رحمة الله تعالى ، وهذا باب من سعة رحمته عز وجل بعباده ، أنه لا يُقَنِّط أحداً من رحمته ، مهما كانت عظمة ذنبه ، ويجب على الدعاة أن يسيروا على هذه السنة الإلهية في دعوة الناس ، ووعظ العصاة ·

وما أحسن قول الحسن البصري في الآية : «انظروا الى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم الى التوبة والمغفرة » ·

ثم اتبعت السورة هذا الوعيد بالوعد العظيم للمؤمنين :

« إن الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ لهمْ جناتٌ تجري مِنْ تحتِها الأنهار » ! ·

وقد فخمت الآية ثواب المؤمنين تفخيماً عظيماً ، وخصوصاً في هذا التذييل :

« ذلك الفوزُ الكبير » :

حيث عبرت باسم الاشارة الـذي للبعد « ذلك » · للايـذان بعلو درجته وعلو منزلته في الفضل ·

« إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيد إنَّه هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعيد » :

لما ذكر سبحانه وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات أولا ، وذكر وعد « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ثانياً أردف ذلك الوعد والوعيد بالتأكيد فقال لتأكيد الوعيد :

« إن بطش ربك لشديد » :

أي إن بطشَه وانتقامَه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد ، عظيم قوي ، فانه تعالى ذو القوة المتين ، الذي ما شاء كان، كما يشاء ، في مثل لمح البصر أو هو أقرب ·

ونلاحظ أن الآيات جاءت مستأنفة عما قبلها ، مع توجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك لمعنى جليل هو أن يكون « إيذاناً » كما قال أبو السعود ـ بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه كما ينبيء عنه التعرض لعنوان الربوبية · · ·

« إنّه هو يُبْدِىءُ ويُعِيدُ » :

أي من قوته وقدرته التامة يبدىء الخلق ، ثم يعيده كما بدأه ، بلا مُمانع ولا مُدافع ، ولا دخل لأحد في شيء منهما ، ففيه مزيد تقرير لشدة بطشه عز وجل · وأن ذلك الامهـال لهذا السبب وهو الاعـادة للجزاء يوم القيامة ، لا لأجل الاهمال ·

ثم قال تعالى لتأكيد الوعد :

« وهُوَ الغفورُ الوَدُودُ ، ذوُ العَرْشِ المجيـدُ ، فعَّالٌ لِما يُريد » :

فذكر تعالى من صفات كرمه وعظمته خمسة :

الصفة الأولى : الغفور :

أي يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ، ولو كان الذنب من أي شيء كان ، ونلاحظ هنا أن المفسرين يقيدون المغفرة ، ولا يطلقونها ، وذلك بسبب خاص هنا هو « إما لمناسبة المقام مقام الانذار ، أو لما في صيغة الغفور من المبالغة ، فأصل المغفرة ، لا يتوقف على التوبة ، وزيادتها مما لا يعلمه إلا الله تعالى للتائبين » .

الصفة الثانية : « الودود » :

أي المحب ، وهذا قول أكثر المفسرين ، والمعنى أنه سبحانه وتعالى المحب كثيراً لمن أطاع ، ففعول صيغة مبالغة في الوادّ ، اسم فاعل . ومحبة الله تعالى ومودته مُفَسَّرة عند الخَلَف بإنعامه سبحانه وإكرامه جلّ شأنه . ومن هنا فسر الودود بكثير الاحسان » .

الصفة الثالثة : « ذو العرش » :

أي صاحب العرش المعظم العالي على جميع الخلائق . والمراد مالكه أو خالقه . والعرش أعظم المخلوقات . وهو عالم عظيم جداً .

الصفة الرابعة : « المجيد » :

وذلك على قراءة الرفع ، صفة لله تعالى ، أي أنه العظيم بذاته عز وجل وصفاته سبحانه . فانه تعالى شأنه واجب الوجود ، تام القدرة، كامل الحكمة . والمجد من صفات التعالي والجلال .

والقراءة الثانية بالخفض وهي قراءة حمزة والكسائي فيكون ذلك صفة العرش .

قال العلماء : القرآن دل على أنه يجوز وصف غير الله تعالى بالمجيد.

الصفة الخامسة : « فَعَّالٌ لِما يُرِيد » :

قال القفال : « فعال لما يريد » على مايراه لايعترض عليه معترض . ولا يغالبه غالب .

قال تعالى :

« هــــل أتاكَ حديثُ الجُنود ، فِرْعَونَ وثَمود ، بَلِ الذين كفروا في تكذِيب ، واللهُ مِنْ ورائِهِمْ مُحِيط ، بلْ هُو قُرْآنٌ مَجِيد ، في لَوْحٍ محفوظ » .

(سورة البروج : ١٧ ـ ٢٢)

أي هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس ، وأنزل عليهم من النِّقْمة التي لم يردها عنهم أحد . وقد جاء الكلام استفهاماً مستأنفاً ، والمراد بالاستفهام التقرير أي قد أتاك والكلام هنا مقرر لشدة بطشه تعالى بالظلمة العصاة والكفرة العتاة ، المشار إليه في قوله « إن بطش ربك لشديد » ومقرر أيضاً لكونه تعالى فعالاً لما يريد ، يتضمن تسليته عليه الصلاة والسلام بالإشعار بأنه سيصيب قومه ما أصاب الجنود المذكورين.

« بَلِ الذينَ كفروا في تَكْذِيب » :

أي هم في شك وريب وكفر وعناد .

وقال أبو السعود[1] : « إضراب عن مماثلتهم لهم ، وبيان لكونهم أشد منهم في الكفر والطغيان ، كأنه قيل ليسوا مِثْلَهُمْ في ذلك ، بل هم أشد منهم في استحقاق العذاب ، واستيجاب العقاب ، فانهم مستقرون في تكذيب شديد للقرآن » .

وهذا التفسير يجعل الموصول « الذين كفروا » لأهل مكة ، مع أن ظاهره العموم . كما نحاه الرازي .

---

(١) ج ٥ ص ٢٥٣ . وتوسع فيه الآلوسي .

قال الامام الرازي :

« والمقصود بيان أن حال المؤمنين مع الكفار في جميع الأزمنة مستمرة على هذا النهج ، وهذا هو المراد من قوله « بل الذين كفروا في تكذيب » .

والله مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيط » :

لما طيب الله تعالى قلب نبيه صلى الله عليه وسلم بذكر أحوال الأولين في هذا الباب ، سلاّه بعد ذلك من وجه آخر بقوله « والله من ورائهم محيط » . والمراد وصف اقتداره عليهم ، وأنهم في قبضته ، كالمُحاطِ إذا أُحِيطَ به مِنْ ورائه ، فَسُدَّ عليه مَسْلَكُهُ ، فلا يجد منه مهرباً . يقول تعالى : فهم في قبضة قدرتي ، وأنا قادر على إهلاكهم ومعاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم إياك، فلا تَجْزَعْ من تكذيبهم إياك ، فليسوا يفوتونني إذا أردت الانتقام منهم ، كما لا يفوت المُحَاطُ المُحِيط الذي أحاط به .

« بَلْ هُوَ قُرآنٌ مَجِيد . في لَوْحٍ مَحْفوظ » :

في هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وهو أن هذا القرآن مجيد ، مَصونٌ عن التغيير والتبديل ، فلما حكم فيه بسعادة قوم وشقاوة قوم ، وبتأذي قومٍ من قومٍ ، امتنعَ تغييرُه وتبديلُه ، فوجب الرضا به . ولا شك أنَّ هذا من أعظم موجبات التسلية .

وصُدِّرتِ الآية بحرف الإضراب « بل » ، لرد كفرهم ، والابطال لتكذيبهم ، وتحقيق لحقية هذا القرآن ، أي ليس الأمر كما قالوا ، بل هو كتاب عظيم ، شريف عالي الطبقة بين الكتب الإلهية في النظم والمعنى .

« في لوح محفوظ » :

أي محفوظ من التحريف ، ووصول الشياطين إليه .

وهذا لبيان عظمة القرآن ببيان تسطيره الأول في العوالم العليا في اللوح المحفوظ • ذلك العالم العظيم الـذي هو مظهر من مظاهر علمـه تعالى المحيط وحكمتـه ، وإحاطتـه علماً وتقـديراً بما هو كائن الى أبد الآبدين •

والله سبحانه وتعالى أعلم •

• • •

كتب للمؤلف

في التأليف العلمي المتخصص:

* الإمام الترمذي والموازنة بين جامعه وبين الصحيحين (الطبعة الرابعة).
* منهج النقد في علوم الحديث (الطبعة الخامسة ـ منقحة).
* معجم المصطلحات الحديثية. (باللغتين العربية والفرنسية، حائز على الجائزة الأولى لمسابقة الدراسات الحديثية، للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ جامعة الدول العربية).
* تصدير معجم المصنفات في الدراسات الحديثية. (حائز على الجائزة الثانية لمسابقة الدراسات الحديثية المذكورة).
* هَـدْيُ النبي ﷺ في الصلوات الخاصة (طبعة رابعة موسعة جداً).
* دراسات تطبيقية في الحديث النبوي (الكتاب الأول) (العبادات) (الطبعة السابعة).
* دراسات تطبيقية في الحديث النبوي (الكتاب الثاني) (المعاملات) (الطبعة السابعة).
* دراسات منهجية في الحديث النبوي (الأسرة والمجتمع) (الطبعة الرابعة).
* النكاح في سنن النسائي والأدب في سنن الترمذي (الطبعة الرابعة).
* الحج والعمرة في الفقه الإسلامي (موضح بالمصورات الجغرافية والمخططات الملونة) (الطبعة الخامسة).
* في تفسير القرآن الكريم وأسلوبه المعجز علمياً وبيانياً (الطبعة الحادية عشرة). الثانية: معدلة وموسعة.
* علوم القرآن الكريم (الطبعة السابعة موسعة).
* الإحرام (بحث خاص لموسوعة الفقه الإسلامي في الكويت).
* الإحصار (بحث خاص لموسوعة الفقه الإسلامي في الكويت).
* الحج (بحث خاص للموسوعة الكويتية).

* خروج النظم المصرفية عن أحكام الشريعة الإسلامية وطرق علاجها. (خاص بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية).
* المسانيد ومكانتها في علم الحديث.
* أصول الجرح والتعديل (الطبعة الثالثة ـ معدَّلة ومنقحة ومزيدة زيادات مهمة).
* خبر الواحد الصحيح وأثره في العقيدة والعمل.
* القرآن الكريم والدراسات الأدبية (الطبعة الرابعة).
* أحكام القرآن في سورة البقرة. (الطبعة الرابعة).
* أحكام القرآن في سورة النساء (من محاضرات الدراسات العليا في التفسير التحليلي).
* آيات الأحكام: تفسير واستنباط (الطبعة الأولى).
* إعلام الأنام شرح بلوغ المرام من أحاديث الأحكام للحافظ ابن حجر (الطهارة والصلاة).
* إعلام الأنام شرح بلوغ المرام من أحاديث الأحكام (تتمة الصلاة ـ اللباس ـ الزكاة ـ الصوم ـ الحج ـ البيوع) (الطبعة السابعة، الأولى الموسعة).
* في ظلال الحديث النبوي: أول دراسة فكرية اجتماعية وأدبية جمالية معاصرة (الطبعة الثانية).
* مناهج المحدثين العامة (في الرواية والتصنيف).
* مع الروائع والبدائع في البيان النبوي.

في تحقيق المخطوطات:

* علوم الحديث للإمام ابن الصلاح الشهرزوري. (طبعة سادسة بتحقيق جديد وتعليقات موسعة).
* المغني في الضعفاء للإمام شمس الدين الذهبي. (طبعة مدققة بتحقيق جديد وتعليقات معدلة وموسعة).
* الرحلة في طلب الحديث ، للإمام الحافظ أبي بكر الخطيب. (الطبعة الرابعة) وهو كتاب فريد يتحدث عن الرحلة في طلب الحديث الواحد.
* شرح علل الترمذي للحافظ ابن رجب الحنبلي. (الطبعة الرابعة). (والأولى بمقابلة جديدة على الأصل، وتصحيح مهم لأخطاء الطباعة وتعديل جوهري للتعليقات).
* إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق ﷺ للإمام النووي. (الطبعة الرابعة)

* نزهة النظر شرح نخبة الفكر للحافظ ابن حجر (الطبعة الثالثة بمقابلة جديدة، وتعديلات مهمة في التعليق).

*. هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك، للإمام المحدث الحافظ المجتهد عز الدين بن جماعة الكناني.

بحوث علمية ودراسات ثقافية :

* المعاملات المصرفية والربوية وعلاجها في الإسلام (الطبعة الثامنة).

* أبغض الحلال (الطبعة السادسة).

* أسس الدعوة وأخلاق الدعاة (طبع الآلة الكاتبة).

* تفسير سورة الفاتحة في ضوء السنة النبوية وعلوم البلاغة واللغة العربية.

* الأحاديث المختارة من جوامع الإسلام (أملية جامعية).

* ماذا عن المرأة (الطبعة السابعة).

* السنة المطهرة والتحديات (الطبعة الثالثة).

* فِكر المسلم.

* كيف تتوجه إلى القرآن.

* تعلم كيف تحج وتعتمر (الطبعة الرابعة)، فيها تعديل مهم.

* النفحات العطرية من سيرة خير البرية ﷺ.

* الاتجاهات العامة للاجتهاد.

* ما هو الحج الأكبر.

* الملامح الفنية في الحديث النبوي.

* علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن وكشف إعجازه.

* فقه الإمام البخاري في جامعه الصحيح.

* جمع القرآن الكريم وتوثيقه في عهد النبي ﷺ.

* كيف تتوجه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها.

* * *

أهم المصادر [*]

أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي • طبع مطبعة السعادة •

أحكام القرآن لأبي بكر الرازي الجصاص •

إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي •

إملاء ما منّ به الرحمن من أوجه القراءات والاعراب في جميع القرآن للعكبري [1] •

الانتصاف حاشية ابن المنير السكندري على تفسير الكشاف • (بذيل تفسير الكشاف) •

أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي مع حاشية الكازروني •

البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي •

تفسير القرآن العظيم لابن كثير الدمشقي • طبع دار إحياء الكتب العربية في ٤ مجلدات • وطبع مطابع الشعب في ٨ مجلدات •

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي • طبع دار الكتب المصرية •

جامع البيان في تفسير القرآن لأبي جعفر بن جرير الطبري •

الجامع للإمام الترمذي • طبع مصطفى البابي الحلبي •

الجامع الصحيح للإمام البخاري • طبع بولاق سنة ١٣١٣ هـ •

الجامع الصغير للسيوطي • نسخة شرحه فيض القدير للمناوي •

(*) مع بيان الطبعة عند الحاجة الى ذلك • والمرجع الذي رجعنا فيه لأكثر من طبعة يسهل تمييز الطبعة من عدد الأجزاء •

(1) كذا سمي الكتاب ، وليست هي تسميته الحقيقية •

الدر المنثور في التفسير المأثور لجلال الدين السيوطي •

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ، والسبع المثاني للالوسي • طبع بولاق في ٩ مجلدات ، وطبع المنيرية في ٣٠ جزءاً •

السراج المنير في الإعانة على فهم بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني •

السنن لأبي داود السجستاني • طبع المكتبة التجارية بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد • الطبعة الثالثة •

السنن للإمام النسائي مع حاشيته للسيوطي والسندي • تصوير بيروت •

السنن لابن ماجه • تحقيق : فؤاد عبد الباقي • طبع دار إحياء الكتب العربية •

صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج • طبع استانبول •

فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني •

الكشاف للزمخشري • طبع المكتبة التجارية ، مع ذيوله التالية :

الانتصاف ، وتخريج أحاديث الكشاف ، وتخريج شواهد الكشاف وإعرابها •

لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي • طبع دمشق • مطبعة الملاح •

مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي • طبع دار إحياء الكتب العربية ٤ أجزاء •

المستدرك للحاكم النيسابوري ، مع تلخيصه للإمام الذهبي •

المسند للإمام أحمد بن حنبل • طبع المطبعة الميمنية •

مفاتيح الغيب للإمام الرازي • طبع المطبعة المصرية في ٣٢ جزءاً •

مفردات القرآن للراغب الأصفهاني بهامش النهاية لابن الأثير •

موارد الظمآن بزوائد صحيح ابن حبان للهيثمي •

نصب الراية لتخريج أحاديث الهداية للزيلعي •

الفهرس

الموضوع	الصفحة